

دار سعاد الصباح

جوستين

الطبعـــة الأولـــى ١٩٩٢

دار سعـــاد الصبـــاح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفـاة ١٣١٣٣ ـ الكويـت
ص. ب: ١٣ المقطم ـ القاهرة

الاشراف الفنى : حلمى التونى

ر

رواية

رباعية الأسكندرية

جوستين

لورانس داريل

ترجمة : د. فخرى لبيب



دار سعاد الصباح

جوستين

رواية « جوستين » هي الجزء الأول من (رباعيــة الإسكندرية) التي كتبها «لـورانس داريل » عن الإسكندريــة . وهي تحكي قصة امـرأة تعيش في حمأة خطيئة لا تزهــدها ... إنها تتذوق كل من تــراه عيناها ، لكنها أبــدًا لا ترتوى .. فهي تنهل من ماء ملح آسن يزيد من لهيب ظمئها .

وإذا كانت جوستين هي المحور الرئيسي للــرواية ، فإن هناك محاور ثانوية عديدة :

هناك « نسيم » الزوج الغافل ، المنتقم دون أن يصل إلى مبتغاه .. و«بلتازار» فيلســوف الخطيئة والشــذوذ ، و « كليا » التي تعشق جـوستين وتهيم بها . و «كابـود يستريا » الثعبان النــاعم العابث . و « سكوبى » الإنجليـزى الطاعن في السن الذي عينته الحكومة المصرية حينذاك ـ كرمًا منها وزلفى ـ كمسئول عن مكافحــة الرذيلة ، فبلغت الــرذيلة في عهــده حدًّا هائلاً غــدا بعده من الضرورى ترقيته ونقله . و « ميليسا » المومس الفاضلة ، وأكثر المجموعة شرفًا ونقاء .

وتتجمع كل تلك المحاور في حبكة رائعة وبأسلــوب شعرى لتعطينا صورة عن الحياة التي كان يعيشـها في الإسكندرية قطاع من الأجانب ومن ارتبط بهم . إنها حياة تغطى سطحها الخضرة المزدهرة بينما تمور أعماقها بالعفن والعطن.

الجـــزء الأول

البحر هـائج اليوم مرة أخرى ، وللـريح عصف مدو . وفي وسعك أن تحس تبـاشير الـربيع في قلب الشتـاء . وسماء مـن لـؤلـؤ عـار دافئ حتى الظهيرة ، والجنادب تحتمي بالأمـاكن الظليلة . وتبسط الريح الآن السهـول الشاسعة ، تنهب السهول الشاسعة ...

لقد هـربت إلى هذه الجزيـرة ، ومعي بعض الكتب القليلـة والطفلة ـــ طفلة «ميليسا » ـ إنني لا أدرى لم استخدمت كلمة « هربت » ، فالفلاحون يقولون في مزاح ، إن الرجـل العليل وحده هو الذي ينتقي مكـانًا نائيًا كهـذا المكان ليجدد قواه . حسنـًا . إذا ابتغيت أن تضع الأمر على هذا النحو ، إذن فقـد أتيت إلى هنا لتندمل جراح نفسي .

في الليل ، عندما تـزمجر الريح وتنام الطفلة في هـدوء ، في سريرها الخشبي الهزاز ، إلى جوار المدفأة المليئـة بالأصداء ، أشعل مصباحًا وأنـا أهيم ، أفكر في أصدقائي ـــ في « جوستين » و « نسيم » ، في « ميليسـا » و « بلتـازار » ـ وأعود حلقة بعد حلقة من أول سلسلة الذكريات إلى آخرها ، إلى المدينة التي استوطناها معًا لفترة قصيرة : المدينـة التي عاملتنا كنبتها فـرسبت في نفوسنا تنـاقضات كـانت في الـواقع تنـاقضـاتها هي ، لا تنـاقضـاتنـا نحن كما اعتقـدنـا خطأ : «الإسكندرية » الحبيبة .

ما كان في وسعـى أن أدرك الأمر كله ، إلا بعد أن أذهب بعيدًا عنهـا كل هذا البعد . وأنا إذ أعيش على هذه الصخرة العارية ، تنتزعني نجمة « الدب الأكبر » من الظلام كل ليلـة ، بعيدًا عن غبـار تلك العصاري الصيفيـة ، المحمل بالجير ، أصل في النهايـة إلى أنه ليس صـوابًا أن يدان أى منـا بما حدث في الماضي ، إنها

المدينة التي يجب أن تدان ، وإن كان يتحتم علينا نحن أبناءها أن ندفع الثمن .

* * *

أولاً وقبل كل شيء ، ما كنه مدينتنا هذه ؟ ما الذي تبعثه في النفس كلمة الإسكندرية ؟ في لمحة خاطفة أرى بعين خيالى ألف شارع كتم الغبار أنفاسها . إنها اليوم ملك للذباب والشحاذين ، وهؤلاء الذين يحظون بوجود يتوسط هذين الفريقين . خمسة أجناس ، وخمس لغات ، و « دستة » من المذاهب : خمسة أساطيل تدور بظلالها اللزجة عبر البحر خلف حاجز الميناء . إلا أن هناك ما يزيد على خمسة أجناس يبدو العنصر اليوناني الشعبي متميزًا فيما بينها . والغذاء الجنسي الذي يرقد في متناول اليد مذهل في تنوعه وغزارته . ولكن لا تتوهم أبدًا أنه مكان سعيد . إن العشاق الرمزيين للعالم الهيلينى الحر ، قد استبدلوا هنا ، في هذا المكان ، بشيء ناعم مخنث ، شيء مقلوب على نفسه . إن الشرق لا يرحب بفوضى الجسد الحلوة ، لأنه قد تخطى مشكلة الجسد . إنني أتذكر « نسيم » وهو يقول ذات مرة ـ وفى اعتقادى أنه كان يقتبس ما يقول ـ إن « الإسكندرية » تفعل بالحب ما تفعله معصرة النبيذ ، وإن الخارج منها إما أن يكون رجلا مريضا أو يعانى الوحدة أو نبيًّا ـ أعنى بما أقول ، كل الذين جرحوا بعمق في قدرتهم الجنسية .

* * *

ملاحظات عما تتركه المناظر الطبيعية من أثر ... تتابع طويل للمشاهد ، الضوء ينساب خلال عطر الليمون . الهواء مشحون بتراب الآجر برائحته الحلوة . رائحة الأرصفة الحارة وقد أطفئت بالماء . سحابات خفيفة ندية ، تقرب الأرض ، لكنها نادرًا ما تحمل أمطارًا . وينتشر فوق هذا كله اللون الأحمر المغبر ، والأخضر المغبر ، والأرجواني الجيري ، والقرمزي ، فوق هذا كله ، وقد صبغ مياه البحيرة . وفي الصيف تعطي رطوبة البحر للهواء لمعانًا خفيفًا . ويقبع كل شيء تحت غطاء صمغي .

ثم يهب في الخريف هواء جاف سريع ، قاس بما حمل من كهرباء ساكنة ، يلهب الجسد خلال ملبسه الخفيف . ويعالج الجسد ، وقد عادت إليه الحياة ، قضبان سجنه . وعاهرة سكرى تسير بالليل في شارع مظلم ، تنثر شذرات من أغان كأوراق الزهر . أترى في هذا المكان سمع « أنطونيو » ألحان موسيقى رائعة تخدر القلب ، أغرته أن يستسلم إلى الأبد للمدينة التي أحبها .

وتشرع أجساد الشباب الخاملة في البحث عن صحبة عاربة . ويجلس الفتيان في تلك المقاهى الصغيرة ، حيث كان « بلتازار » وشاعر المدينة الشيخ [1] يترددان كثيرًا ، يلعبون النرد تحت مصابيح البترول ، وهم لا يستقرون على حال ، تزعجهم ما تثيره تلك الريح الصحراوية الجافة التي تفتقد الشاعرية وتبعث في النفس القلق ، يتلفتون يراقبون كل غريب . إنهم يجاهدون لالتقاط أنفاسهم ، ويتذوقون طعم الجير الحى مع كل نسمة من نسمات الصيف .

* * *

كان عليَّ أن أحضر إلى هذا المكان حتى أعيد من جديد تشييد تلك المدينة في ذهنى تشييدًا كاملاً . المناطق التي تخيم الكآبة عليها كما رآها الرجل الشيخ مليئة بحطام حياته الأسود . طنين عربات الترام وهي تنقض فوق قضبانها الحديدية تخترق ميدان « الأزاريطة » الملون بلون اليود . أوراق بلون الذهب والفسفور والمغنسيوم . هنا كثيرًا ما التقينا . وفي الصيف كانت توجد دكة قد رصت عليها شرائح البطيخ الأحمر الذي كانت تحب أكله . والمشروبات المثلجة المنعشة . بالطبع كانت تحضر متأخرة بضع دقائق . لعلها قادمة لتوها من لقاء في غرفة معتمة ، الأمر الذي أنأي عنه بفكرى . ولكن كم كانت شفتاها المنفرجتان حول فمها كأوراق الزهر رطبة وفتية وهي تنقض عليَّ كصيف ظامئ . ربما ما يزال الرجل الذي تركته يجتر ذكراها مرة بعد أخرى ، وربما ما

---

(١) الشاعرك . ب . كافافي .

تزال هي كما لو كانت مغبرة بلقاح قبـلاته . إلا أن هذا لا يهم على أيّ حال ، فأنا أحس بثقل جسـدها اللـدن وهي تتكئ على ذراعي تبتسم في صفـاء الناكـرين لذاتهم ، هؤلاء الذين لا يخفون أسرارًا . لقد كان ممتعًا أن نقف هناك ، مرتبكين، خجلين ، إلى حـد ما ، تتـلاحق أنفاسنـا ، لأننا نـدرى ما يبغى كل من الآخـر . فالرســائل تمضى وراء وعينا ، خلال الشفاه الممتلئـة ، والعيون ، والمشروبات المثلجة ، والـدكة الملونة . نقف هنـاك لا نبالى بما حولنا ، وأصبعـانا الصغيران متشابكان ، نشرب جزءًا من المدينة ، في الأصيل المفعم برائحة الكافور .

* * *

كنت الليلة أقلب النظر خلال أوراقي . لقد تحول بعضها إلى ما يفيد المطبخ ، والبعض الآخـر أتلفته الطفلـة . إن هـذا النوع من الحكم الصـادر على أوراقي يعجبني ، لأنه يتضمن لا مبالاة العـالم الخارجي بما يشيده الفن ، « لا مبالاة » بدأت أنا أشارك فيها . ومع ذلك فما جدوى تشبيه رقيق « لميليسا » بينما ترقد هي مدفونة على عمق ، كأية مومياء ، في رمال المصب الأسود الضحلة الدافئة .

إلا أن تلك الأوراق التي أحرص عليها بعناية هي المجلدات الثلاثة التي كانت تدون فيها « جوستين » يومياتها . كذلك الأوراق التي تسجل جنون « نسيم » . لقد أعطاها « نسيم » كلها إليّ ونحن نفترق قائلاً :

« خذ هذه واقرأها . هناك الكثير فيها عنا جميعًا . إنها ستعاونك على احتمال ذكـرى « جوستين » دون إجفـال ، كما كان عليَّ أن أفعل » . لقـد حدث هـذا في القصر الصيفى بعد موت « ميليسا » ، وهـو لا يزال على يقين بأن « جوستين » ستعـود إليـه . إنني كثيرًا مـا أفكـر والـرهبـة تخيم عليَّ ، في حب « نسيم » «لجوستين » . أي حب يمكن في ذاته أن يكون أكثر عمقـًا وأمتن أساسًا من ذلك الحب ؟ لقد لـون تعاستـه بنوع من النشوة ، بـاستعذاب الألم الـذي تتوقع أن تلقاه عنـد القديسين لا مجرد العشـاق . ومع ذلك فلمسة واحـدة من الملاطفة

كانت كفيلـة بأن تنقذ نفســه من ذلك الألم الهائل العميق . إنني أعـرف أنه من السـهل أن ينتقد الإنسان غيره . إنني أعرف ذلك .

البحر : هـو المقياس الـوحيد للـزمن في تلك الأمسيـات الشتويـة بسكونها الشـامل . إن إيقـاعـه الواهن في الـذهن هـو اللحن الـذي كتبت على نغمـه تلك الكتابات . الإيقاعات الخاوية لمياه البحر ، تلعق جراحها ، تهدر على طول منافذ الدلتـا ، تفور فـوق تلك الشطـآن المهجورة ، الجرداء ، جـرداء إلى الأبد ، تحت طيور النورس : بلونها الرمادى الذي يتخلله الأبيض ، والتي تمضغها السحب. لو حـدث وكانت هنا أيـة سفينة شراعية ، لتحطمت قبل أن يظللهـا الشاطىء . وغُسل حطامها فوق نتـوءات الجزر ، حيث ينتهى في جوف المياه الأزرق ، آخر جزء فيها ، وقد أكلته عوامل التعرية ... ثم ينتهى .

* * *

أنا والطفلة وحيدان تمامًا ، ما خلا الفـلاحة العجوز المجعدة الوجه . والتي تأتي فوق بغلهـا كل يوم من القريـة ، لتنظيف المنزل . الطفلة سعيـدة ونشطة وسط هـذا المحيط الـذي لم تألفه . لم أطلق عليهـا اسماً بعـد ، لكنـه بالتأكيـد سيكون « جوستين » ـ وهل هناك اسم غيره ؟

أما بـالنسبة لي . فأنـا لست سعيدًا ولا تعيسًا . أنـا أرقد معلقـًا كشعرة أو ريشة في خليط الذكريات الضبابية . لقد تكلمت عن عدم جدوى الفن ، ولكني لم أضف شيئًا صادقًا عما يبعثه في النفس من سلوان . إن العزاء الذي يمنحه مثل هـذا العمل الذي أقـوم بـه بعقلي وقلبي يكمن فقط في أعماق صمت الرسـام أو الكاتب ، حيث يمكن أن يعاد تشكيل الحقيقة وصيـاغتها وبناؤها حتى تكشف عن وجهها المعبر . وفي الحقيقة فإن تصرفاتنا الظاهرة ما هي إلا الغطاء الخشن الذي يخفي نسيـج الذهب ـ يخفي دلالـة النموذج الـذي نعنيه . لأنـه يبقى لنا نحن الفنانين ، ذلك التصالح الودي الممتع ـ من خـلال الفن ـ مع كل ما أصابنا بالجراح أو الخذلان ، خـلال حياتنا اليـومية .ونحن على هـذا النحو لا نتجنب

القدر كما يحاول عامة الناس أن يفعلوا ، لكننا نسعى إلى تحقيقه بقدرته الأصيلة ـ نحققه بالخيال . وإلا فلماذا يوجع كل منا الآخر ؟ كلا . فإن الغفران الذي أنشده ـ والذي قد أناله ـ ليس غفرانًا يمكن أن أراه في عيني « ميليسا » » الورديتين اللامعتين ، ولا في نظرة « جوستين » القاتمة ، قتامة حاجبها . لقد سلك جميعنا الآن سبلاً متباينة ، لكننى أحس في هذا التمزق الهائل الذي يصيبني لأول مرة وأنا في سن النضج ، بأبعاد فني وسبل حياتي وقد عمقت بذكراهما إلى أبعد الآماد . إنني أستعيدهما بفكري من جديد ، وكأنما هنا فقط ـ حيث المنضدة الخشبية جوار البحر تحت شجرة الزيتون ، هنا فقط في وسعى أن أوفيهما ما تستحقان ، حتى تستمد كتابتي هذه طعمها من بعض عناصر حياتهما ـ من أنفاسهما ، جلدهما ، أصواتهما . ولأنسجها جميعًا في الأنسجة المرنة لذاكرة الإنسان . إنني أودهما أن يبعثا من جديد ، أن يبعثا إلى الحد الذي يغدو فيه الألم فنًا . ربما كانت تلك محاولة فاشلة ، لكننى لا أستطيع أن أقرر ذلك . إذ ليس في وسعى إلا أن أحاول .

انتهينا اليوم ، أنا والطفلة ، من بناء أرضية مدفأة المنزل . كنا نتحدث خلال العمل في هدوء ، أنا أتحدث إليها كما لو كنت أحدث نفسي عندما أكون بمفردي ، وكانت تجيب بلغة مليئة بالحماس من صنعها هي . ودفنًا الخاتمين اللذين اشتراهما كوهين « لميليسا » في الأرض تحت قاعدة المدفأة طبقًا لعادات تلك الجزيرة فهذا العمل يجلب الحظ الطيب لسكان المنزل .

* * *

عندما إلتقيت « بجوستين » كنت ، على وجه التقريب ، رجلاً سعيدًا . لقد انفتح أمامي فجأة باب يقودني إلى علاقة وصال مع « ميليسا » ـ علاقة وصال لم ينل من روعتها أنها لم تكن متوقعة ، وأنني لم أكن أستحقها على وجه الإطلاق . فأنا ككل الأنانيين لا أطيق العيش وحيدًا . وأقول صادقًا ، إن آخر سنة من سنى العزوبة قد أعيتني ، وقادني إلى اليأس قصوري عن الإلمام

بالشئون المنزلية ، وعجزى التام فيما يخص أمور الملبس والمأكل والمصروفات النقدية . وكنت ، أيضًا ، قد سئمت الحجرات التي تتخذها الصراصير مأوى لها حيث كنت أعيش حينذاك ، يقوم على خدمتي خادم نوبي أعور يدعى « حميد » .

إن « ميليسا » لم تخترق تحصيناتي المتداعية بأىّ من الصفات التي يمكن أن يعددها المرء في المعشوق - أو الجمال النادر ، أو الذكاء ـــ كلا ، وإنما اخترقتها بقوة ما ، لا أملك إلا أن أدعوها برًّا وإحسانًا ، بالمعنى اليوناني للكلمة . لقد تعودت أن أراها ، كما أذكر ، شاحبة ، أقرب إلى الهزال ، ترتدى سترة رثة من جلد كلب البحر ، تقود كلبها الصغير خلال الشوارع وقد غلفها الشتاء . ويداها المعروقتان كيدى مسلول ، وحاجباها مصنوعان مدببان إلى أعلى ليحملا عينيها البديعتين الجريئتين الصريحتين ، كنت أراها باستمرار ، يوميًّا ، لشهور عديدة غير أن جمالها المصبوغ العابس لم يثر في نفسي أية استجابة . كنت أمر بها يومًا بعد يوم وأنا في طريقي إلى مقهى (الأقطار) حيث كان ينتظرني «بلتازار» بقبعته السوداء ليلقي عليَّ « بتعاليمه » . لم يدر بخاطري قط أني سأغدو عشيق « ميليسا » .

كنت أعلم أنها قد عملت ذات مرة كموديل في أحد المراسم - وهي وظيفة لا تحسد عليها - وأنها تعمل الآن راقصة . وأكثر من ذلك كنت أعلم أنها كانت محظية تاجر فراء عجوز ، رجل سوقي فظ من تجار المدينة . إنني أكتب هذه الملاحظات ، لأسجل فقط قطاعًا من حياتي سقط في البحر « ميليسا !ميليسا !».

* * *

إنني أعود بأفكاري إلى ذلك الوقت الذي كان فيه إحساسنا نحن الأربعة بالعالم حولنا يكاد يتلاشى ، الأيام غدت مجرد فواصل بين الأحلام ، فواصل بين مواقع الزمن المتغيرة ، بين الادعاء والتمثيل . والحياة خارج الإطار المحيط بنا ... مد من الأحداث التي لا معني لها ، يتحسس طريقه على طول المدى الذي تفقد فيه الأمور كيانها ، دون الدخول في أى جو محدد ، لا يقودنا إلى مكان ما ،

ولا يطلب منا شيئًا إلا المستحيل ــ وهو أن نوجد . و « جـوستين » تقول ، إننا قـد وقعنا في نطـاق إرادة أقوى وأحـزم من أن تكـون إرادة إنسـانيـة ـ نطـاق الجاذبية الـذي تحيط به « الإسكندريـة » هؤلاء الـذين اختارتهم كنماذج تعبر عنها .

* * *

الساعـة السادسـة . وقع أقدام أناس تـرتدي الملابس البيضـاء من ميدان المحطة . الحوانيـت تمتلئ وتفرغ كـالرئات في شارع الـراهبات . أشعـة شمس الأصيل المتطاولـة تلون منحنيـات الحديقة . والحمائم المبهـورة ، كحلقات من ورق مبعثـر، تصعـد إلى المنائر ، لتنـال آخـر شعـاعات الضـوء المتـلاشي على أجنحتها . رنين الفضة فـوق موائد الصيارفة ، والسـور الحديدي خارج البنك مـا زال أسخن من أن يلمس . جلجلة العـربات التي تجرهـا الخيل وهي تحمل الموظفين بطرابيشهم الحمراء التي تشبه أصص الزهور ، إلى المقاهي المطلة على البحر . هذه هي السـاعة التي أضيق بها أكثر من غيرها ، عنـدما ألمحها على غير انتظار من شرفتي، تسير متثـاقلة نحو المدينة ، وقـد انتعلت صندلها الأبيض ، وهي بعد نصـف نائمة ، وتتمـدد المدينة كسلحفـاة عجوز تمعن فيهـا النظر ، وهي تنحي جانبًا ، للحظة قصيرة ، خرق الجسد الممزقة . بينما يعلو فوق أنين وصرخات الماشيـة ، شذرات خنفـاء من أغنية حب دمشقيـة قادمـة من زقاق مختبئ إلى جوار السلخانة ، تقاسيم محشرجة كصوت العظام وهي تطحن إلى دقيق .

والآن يفتح الرجال المجهدون مصاريع شرفاتهم ، يخطون في الضوء الحار الشاحب . يرمشون بأعينهم ـ كـزهور أسقمها الحرمان من الضياء ، يقضون ما بعد الظهر في ضيق ، يتقلبون على سرر كـريهة ، تغلفهم الأحلام . لقد غدوت واحـدًا من هـؤلاء الكتبة البـؤسـاء أصحـاب الضمير ، مواطنـًا من مـواطني «الإسكندرية » . إنها تمر تحت نافذتي وهي تبتسم وكأن أمرًا خاصًا يرضيها ،

تروّح وجنتيها بمروحة صغيرة مصنوعة من الغاب . إنها ابتسامة قد لا أراها مرة أخرى ، فهي تضحك فقط ، عندما تكون في صحبة الآخرين ، فتظهر تلك الأسنان البيضاء الرائعة إلا أن تلك الابتسامة الحزينة الخاطفة ، مليئة بميزة لا يعتقد المرء أنها تملكها - إنها القدرة على الإيذاء . لقد كان في وسعك أن تقول بأن شخصيتها أكثر ميلا للطابع المأساوى وأنها تفتقر إلى روح الدعابة العادية. إن الذكرى الملحة لتلك الابتسامة فقط ، هي التي ستجعلني أشك ، في قادم الأيام ، في صحة هذا الأمر .

* * *

كنت قد لمحتها مرات عديدة في أوقات مختلفة . وكنت بالطبع أعرفها شكلاً فحسب ، قبل أن نلتقي بزمن طويل ، معرفة جيدة . فلا يمكن في مدينتنا أن يكون مغموراً ، من كان دخله السنوى يزيد على مائتى جنيه . **كنت أراها بمفردها تقرأ جريدة وتأكل تفاحة ، قرب البحر ، أو في ردهة فندق « سيسيل » ، بين أشجار النخيل المتربة** . وقد ارتدت رداء مرصعًا بالفضة يشبة غمد الخنجر ، تمسك بفرائها الفاخر على ظهرها كما يمسك القروي عباءته ، وقد ثنت سبابتها الطويلة على مشبكه المعدني . ويتوقف « نسيم » عند باب صالة الرقص ، التي كان الضوء والموسيقى يغمرانها .... لقد افتقدها . وتحت أشجار النخيل ، جلس كهلان ، في خلوة عميقة ، يلعبان الشطرنج . وتوقفت « جوستين » كى ترقبهما . إنها لا تعرف شيئًا من تلك اللعبة ، لكن جو الصمت والتركيز الذي تفيض به الخلوة كان يخلبها . فتقف هناك طويلاً بين اللاعبين اللذين لا يسمعان شيئًا ، وبين عالم الموسيقي ، وكأنها حائرة في أيهما تغمر نفسها ، وأخيرًا يجيء « نسيم » في رقة ، ليأخذ ذراعها ، وليقفا معًا للحظة، هي تراقب اللاعبين وهو يرقبها . وأخيرًا تذهب في رقة ، وعلى مضض ، وبرزانة إلى العالم المضاء ، وقد أطلقت تنهيدة قصيرة .

وفي أحوال أخرى ، كانت جوستين بلا شك ، لا تشرف نفسها كثيرًا ، ولا

تشرفنـا نحن الباقين جميعـًا : ومع ذلك فما أشد قـدرتها على التأثير وما أشـد طراوة أنوثتها ، تلك المرأة التي كانت أكثر النساء استرجالاً وأوسعهن حيلة . لم يكن هناك مفر من أن تذكرني بتلك السلالـة من الملكات الرهيبات اللائى تركن خلفهن رائحـة حبهن المحرم النفـاذة كرائحـة الأمونيـا (النوشـادر) لتحوم كسحابة فوق وجدان سكان « الإسكندريـة » . إن القطط العملاقة آكلة الرجال مثل « أرسينو » كن شقيقاتها الحقيقيات . ومع ذلـك فإن شيئًا آخر كان يكمن وراء تصرفات « جوستين » ، شيئًا هو وليد فلسفة مأساوية حديثة توزن فيها الأخلاق والشخصية المخادعة أمام بعضهما البعض في كفتي ميزان واحد . لقد كـانت ضحية شكـوك حقيقيـة مثيرة . ورغم ذلك فقد كـان في وسعي أن أرى علاقـة مباشرة بين صـورة « جوستين » وهي تنحني فوق بـالوعـة قذرة بها الجنين (السَّقْطْ) ، وبين « صوفيا » البائسة عشيقـة « فالنتينوس » التي ماتت من أجل حب كان كاملاً بقدر ما كان خاطئًا من أساسه .

* * *

يشـاركني في شقتي الصغيرة ، التي تقع في شـارع « النبى دانيال » موظف صغير بالسلك القنصلي يـدعى « جورج بومبال » . وهـو شخصية متميزة بين الدبلومـاسيين إذ يبدو منتصب القامـة . إن طاحونة البروتـوكول والحفلات ـ والتي تشبه كابوسًا سرياليًا ـ تغدو بالنسبة إليه مليئة بسحر غريب . إنه يرى الدبلومـاسية بعيني « دونير روسو » . وينغمس فيها دون أن يـدعها تلتهم ما بقى من عقله . وفي اعتقـادي أن سر نجاحه يكمن في كسله الهائل الـذي يكاد أن يكون خارقًا .

إنـه يجلس إلى مكتبه في القنصليـة العـامة ، وقـد غمـره سيل لا ينقطع من بطاقـات تحمل أسماء زملائه . إنـه رجل ضخم الجثة كسـول ، إنسان شـديد البطء ، مولع بقيلـولة ما بعد الظهـر « وبكر بيلون الإبن » . تفوح من منـاديله رائحة « ماء البرتغال » الرائعة ، والنسـاء هن مدار حديثه المفضل . إنه بالقطع

يتكلم عن تجربة ، فتتابع الزائرات إلى الشقة الصغيرة لا ينتهي. ونادرًا ما يرى المرء نفس الوجه مرتين . « الحب هنا يمتع الرجل الفرنسي . فالنساء يقدمن قبل أن يفكرن بروية ، وعندما يحين وقت الشك ، ومعاناة تأنيب الضمير ، يكون الوقت حارًا للغاية ، وليس هناك من له القدرة على ذلك . إن هذه الحيوانية تفتقد اللباقة ، إلا أنها تلائمني . لقد أبليت قلبي وعقلي بالحب ، وأبغي أن أترك وحيدًا ـ وخاصة يا عزيزى من هذا الهوس الديني لتشريح وتحليل الموضوع . إنني أود العودة ، سليم القلب ، إلى مزرعتي في « نورمانديا » .

ويقضي « جورج بومبال » فترات طويلة من الشتاء بعيدًا في إجازة . وأنفرد أنا بالشقة الصغيرة الرطبة ، ساهرًا إلى ساعة متأخرة ، أصحح كراسات التمرين ولا رفيق لى إلا « حميد » بشخيره . لقد بلغت في هذه السنة الأخيرة ، ذروة الانحطاط النفسي . إنني أفتقد قوة الإرادةلأصنع أى شيء بحياتي ، لأحسِّن وضعى بالعمل الشاق ، أن أكتب : حتى أن أضاجع . إنني لا أدري ماذا حل بي . إنها المرة الأولى التي أصادف فيها فشلاً حقيقيًا لإرادتي في أن أحيا . وأقلب ما بين الحين والحين لفة مخطوط ، أو نسخة أصلية أو كتاب شعر في إهمال يثير التقزز ، في حزن ، كشخص يطالع جواز سفر قديم .

من وقت لآخر كانت إحدى فتيات « جورج » الكثيرات تضل طريقها إلى وكرى بأن تزور الشقة وهو غائب عنها . ومثل تلك الواقعة كانت ، لفترة ما ، تزيد من حدة « تبرمي بالحياة » . إن « جورج » إنسان كريم كثير التفكير في مثل تلك الأمور . فقبل رحيله (ولمعرفته كم أنا فقير) كان يدفع مقدمًا نقودًا لواحدة من السوريات من حانة « جولفو » ويأمرها بأن تقضي بعض الليالي في الشقة « تحت تصرفي » كتعبيره هو . وواجبها أن ترفه عني ، وهي مهمة لا تحسد عليها بأى حال من الأحوال ، خاصة وأنه لا يوجد في مظهري ما ينبئ عن افتقاري إلى البهجة . وأضحت قلة الحديث سلوكًا مفيدًا للآلية التي تستمر طويلاً بعد أن يفقد المرء حاجته للكلام . وإذا اقتضى الأمر ففي وسعى أن

أضاجع بارتياح ، ولكن دون عاطفة أو اهتمام ، فالمرء لا ينام نومًا جيدًا في هذا المكان !

إن بعض تلك اللقاءات مع مخلوقات مسكينة مـرهقة دفعتها الحاجة المادية إلى أقصى حـد ، ممتع ومؤثـر كـذلك ، إلا أنني قد فقـدت كل اهتمام بتصنيف عواطفي ، حتى أنهن قد ظللن بالنسبة إلى كصور مهزوزة تومض على شاشة . لقد قالت « كليـا» ذات مرة ، « هناك أشياء ثلاثـة يمكن القيام بها مع امرأة ، أن تحبهـا ، أن تعـاني من أجلهـا .... أو تحيلها إلى مـادة لـلأدب » . وكنت أعـاني إفلاسًا في مجالات كل تلك المشاعر .

إنني أسجل هذا لأظهـر المادة الإنسانية التي لا يرجى منهـا والتي اختارت «ميليسـا » أن تمارس عملها عليها ، أن تنفث في خياشيمي بعض أنفاس الحياة . لم يكن سهلاً عليهـا أن تحمل هذا العبء المزدوج إلى جـانب مرضهـا وأحوالها الخاصة البائسة . أن تضيف أعبائي إلى أعبائها يحتاج إلى شجاعة حقيقية ، لعل اليأس قـد ولـد لديها هـذه الشجـاعـة ، لأنها ، هي الأخرى ، كـانت قـد بلغت الحضيض . لقد كنا زملاء في الإفلاس .

كان تاجر الفراء العجوز يتبعني لأسـابيع خلال الشوارع ، يحمل مسدسًا يثقل جيبه . ولقد كان مطمئنًا أن أعرف من أحد أصدقاء « ميليسـا » أن المسدس لم يكن محشـوًا . إلا أن مطاردة هـذا الـرجل العجوز لى كـانت رغم ذلك أمـرًا مزعجـًا . ولابد أن كلاً منـا ، في خياله ، قـد أطلق الرصـاص على الآخـر عند كل ركن من شوارع المدينة . ومن ناحيتي ، لم أكن أطيق النظر إلى هذا الوجه البليد المجدور بعناقيد الكآبة البهيمية لملامحه المعذبة التي تكسو وجهه . لم أكن أطيق التفكير في ملاطفاته السمجة الثقيلـة لهـا : هـاتين اليدين الصغيرتين الراشحتين عرقـًا المغطتان كالقنفد بـالشعر الأسود الكثيف . لقد استمـر هذا الحال لفترة طويلـة ، ثم نما فيما بيننا ، بعد عـدة شهور ، شعـور غريب بالألفـة . كنا كلما التقينـا نومئ ونبتسـم لبعضنا البعض . وذات مـرة التقينـا في أحد البـارات ،

ووقفت إلى جواره قرابة نصف ساعـة ، وكدنا نتبادل الحديث ، إلا أن أحدًا منا لم تكن لديه الشجاعة ليبدأه . لم يكن هناك من موضوع مشترك للحديث سوى « ميليسا » . وبينما أغادر البار لمحته في إحدى المرايا الطويلة ، وقد أحنى رأسه يحملق في كأس . لقـد صدمنى شيء مـا في هيئته ، شيء في مظهره ، كعجـل بحر مدرب يتشبـث بالمشاعـر الإنسانيـة . وأدركت لأول مرة ، أنـه من المحتمل أن يكـون قد أحب « ميليســا » بالعمق الـذي أحببتها بـه . ورثيت لقبحه وعجـزه الموجع الضـائع والذي يـواجـه به مشـاعر جـديـدة عليه ، مشـاعر كـالغيرة والحرمان من المحظية التي يعزها .

وفيما بعـد ، حينما كـانـوا يقلبـون جيـوبـه ، رأيت بين خليط الحاجيـات الموجودة زجاجة عطر صغيرة فارغـة من النوع الرخيص الذي كانت تستعمله « ميليسا » ، فأخـذتها معي إلى الشقة ، حيث بقيت على المدفأة لعـدة شهور قبل أن يلقي بها « حميد » خلال حملة التنظيف الشامل للشقة . ولم أخبر « ميليسا» بهذا الأمر . ولكن عنـدما أكون وحـدي بالليل بينما «ميليسـا » ترقص أو ربما تضـاجع واحـدًا من معجبيهـا ، بسبب الحاجة ، كنت غـالبـًا مـا أتفحص تلك القارورة الصغيرة في حزن وانفعال ، أتأمل وأفكـر في حب هذا الرجل العجوز ، هذا الحب الفظيع ، وأقيسه بحبي . وأتذوق ـ واضعـًا نفسي مكانه ـ ذلك اليأس الذي يجعـل المرء يتشبث بشيء صغير منبوذ ، مـا زال مشبعًا بذكـرى الحبيب الخائن .

لقد عثـرت على « ميليسا » فـوق سواحل « الإسكنـدرية » الموحشـة ، وقد غسلتها المياه كطائر أوشك أن يغرق ، وقد تحطم فيها جانبها الجنسي .

* * *

شوارع تنطلق من أحـواض السفن ، مثقلة بمنازل عفنـة نخرة ، تتنفس في أفـواه بعضها البعض ، مقلـوبة على ذاتها . شرفـات تعج بـالفئران ، وعجـائز

النساء وقد امتلأ شعرهن بدم القراد . جدران تقشر طلاؤها تميل سكرى شرقًا وغربًا عن مركز ثقلها الحقيقي . شريـط الذباب الأسود يلصق نفسه إلى شفاه وعيون الأطفـال ـ ومسـابح رطبة من ذباب الصيف في كـل مكان ، ينهش ثقل أجسـامها أوراق الـذباب العتيقـة المعلقة على المقـاهى والأكشاك البنفسجيـة . رائحة الرواد المستحمين فى رغـوة عرقهم تشبه رائحة سجـادة سلم بالية . ثم ضجيج الشارع : صيـاح وصليل بائع العـرقسوس الصعيـدي يدق أقـداحه المعدنيـة معًا كوسيلة لـلإعلان عما معه ، والصرخـات التي لا يكترث بها أحد ، تخترق الضـوضـاء من حين لآخـر كصرخـات حيـوان رقيق التكـوين تـزال أحشاؤه. الآلام كالبرك ، حضّانة للشقاء الإنساني بمقادير تجعل المرء مأخوذًا، وقد فاضت مشاعره الإنسانية في طوفان من التقزز والهلع .

كنت أبغى لو أستطيع تقليد طريقة « جوستين » المباشرة الواثقة من ذاتها ، وهي تشق طـريقهـا خلال تلك الشـوارع نحـو مقهي « البـاب » حيث كنت في انتظارهـا . جلسنا عنـد القوس المتهـدم ، الذي يجاوره بـاب المقهي ، نتجاذب أطراف الحديث بكل براءة إلا أن حديثنا قد غدا بالفعل مشبعًا بتفاهم مشترك ، اعتبرنـاه ، فألا سعيدًا بصـداقـة خـالصة . وتملكتنـا فقط ، ونحن فـوق تلك الأرضية الموحلة الداكنة . نحس محور الكرة الأرضية يبرد في سرعة مائلاً نحو الظلام ، رغبـة في أن تتصل آراؤنا وخبراتنـا التي تخطت مجال الفكـر المألوف للحديث بين الناس العاديين . كانت تتكلم كـرجل . وكنت أخاطبها كما لو كانت رجلاً . في وسعي فقط أن أتذكر طراز وقيمـة تلك الأحاديث ، لامادتها . وأنا إذ أجلس هنـاك متكئًا على كوع نسيتـه ، أشرب العرقي الـرخيص ، وأبتسم لها ، أستنشق عطـر الصيف الدافئ المنبعث من ردائهـا وجلدها ، عطـر يسمى ، ولا أدرى لماذا ، « جاميه ده لافى » *..

---

* أى « أبدًا بالمرة » .

هناك لحظات تمتلك الكاتب لا العاشق ، لحظات تعيش إلى الأبد ، لحظات في وسع المرء أن يعود إليها في ذاكرته مرة وأخرى ، أو يستخدمها معينًا يمكن أن يشيد عليه دوره في الحياة ، ألا وهو الكتابة . في وسع المرء أن يلوث تلك اللحظات بالكلمات ، ولكن ليس في وسعه أن يفسدها . وفي هذا السياق أيضًا ، أستعيد لحظة أخرى مماثلة ، وأنا راقد إلى جوار امرأة نائمة في حجرة رخيصة قرب الجامع . في ذاك الفجر الربيعي المبكر ، بنداه الكثيف ، المرسوم فوق الصمت ، الذي يبتلع المدينة بأكملها قبل أن توقظها الطيور ، التقطت أذناى صوت المؤذن الأعمى العذب وهو يرتل ــ صوت معلق كالشعرة في الطبقات العليا لجو الإسكندرية وقد رطبها النخيل ـ يرتل كلمات الآذان وبعض آيات القرآن القصيرة يتحدث خلالها عن كمال الإله ، الدائم (وهي تكرر ثلاث مرات، كل منها أبطأ من السابقة في تنغيم عذب مرتفع) وكمال الإله المراد ، الدائم ، الواحد ، العالى : كمال الإله الواحد الأحد ، كماله الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، لا يعصيه أحد ، ولا ينوب عنه أحد ؛ ليس له كفو ولا خلف ، كماله المعظم .

ويشق الدعاء العظيم من الكلمات الوضاءة طريقه إلى وجداني الناعس ، كحية ، لفة بعد لفة ، وصوت المؤذن يهبط في هيبة من نغمة إلى نغمة حتى يبدو الصباح جميعه كثيفًا بقدرته الغريبة على لأم الجراح ، وإيماءات منة غير مستحقة أو منتظرة تعمر تلك الحجرة الرثة ، حيث رقدت « ميليسا » تتنفس في هدوء كطير النورس وهي تهدهد فوق لأ لأ المحيط بلغة لن تعرفها أبدًا .

* * *

من الذي يستطيع أن يزعم ؛ بأن « جوستين » ، لم يكن لها جانبها الأحمق؟. عبادة اللذة ، الخيلاء العابرة ، الإهتمام بأن يكون لمن دونها فكرة طيبة عنها ، التعالي . كان في وسعها ، إذا شاءت ، أن تكون مثيرة للمتاعب . حقًا ، حقًا . إلا أن كل الشوائب يغذيها المال . إنني لا أقول إلا أنها كانت تفكر كرجل في كثير من

الأمور ، بينما كـانت تتمتع في تصرفاتها بشيء من الاستقـلال الواضح المنطلق الذي يبدو في مظهر الرجال . كـانت الألفة التي تجمعنا ذات طابع عقلي غريب . واكتشفت منذ فترة مبكرة أن في مقدورها قراءة الأفكار بطريقة لا تخطئ . لقد كانت تـواتينا الأفكـار في ذات الوقت . إنني أتـذكر ذات مـرة أدركت فيها أنها تشاركني بعقلها فكرة كانت لتوها قد انبثقت في عقلي ، وهي أن هذه المودة يجب ألا تمتد أكثـر من ذلك ، وأن ما سننتهي إلى تكشفه وراء ألوان الشهـوة القاتمة النسيج ، سيكون صداقة قد تعمقت إلى المدى الذي سيجعلنا أسيراها أبد الدهر. لقد كان هذا ، إذا أحببت ، غزلاً بين عقلين أرهقتهما قبل الأوان تجربة ظهر أنها أخطر بكثير من حب قائم على الجاذبية الجنسية .

وعجزت عن تأمل تلك الفكرة ، دون أن ينتابني الفزع ، فقد كنت أعرف حب « جوستين » الكبير « لنسيم » كما كنت أنا نفسي أحبه حبـًا جمًا . كانت ترقد إلى جـواري تتنفس في هـدوء وتحملق بعينيها الكبيرتين في السقف الـذي تكسـوه الملائكة . وقلت لها : « إن حبًا كحبنا هـذا ، بين مدرس فقير وواحدة من سيدات المجتمع السكندري ، لن يؤدي إلى شيء . وكم سيكون مرًا على النفس ، أن ينتهي كل شيء إلى فضيحة من تلك الفضـائح التقليدية التي تتركنـا وحيدين ، وتضع على عاتقك عبء اتخاذ قرار في كيفية التخلـص مني » . كانت « جوستين » تكره سماع الحقيقـة . فـاستدارت على مـرفقهـا تحملق في بعينين مضطـربتين لمدة طويلة ، ثم قالت بصوتها الأجش الذي غدوت أحبه كثيرًا ، « لا مجال للخيار في هذا الأمر ، إنك تتكلم كما لو كان هناك مجال للخيار . إننا لسنا أقوياء أو أشرارًا بالدرجة التي تمكننا من ممارسة الاختيار . إن كل هذا إنما هو جزء من تجربة قد دبرها شيء آخر ، ربما تكـون المدينة ، أو جزء آخر من ذواتنا ، من أين لي أن أعرف » .

إنني أتذكرها جالسة أمام المرايا المتعددة عند الخياطة ، تجرب لها رداء من « الشارك سكين » وهي تقول :

« انظر ، خمس صور مختلفة لنفس الشيء ، لو أنني مارست الكتابة لحاولت إظهار تأثير تعدد الأبعاد في الشخصية . نوع من تعدد زوايا الرؤية . لماذا لا يعبر الناس عن أنفسهم بأكثر من زاوية واحدة في نفس الوقت » .

ثم تثاءبت وأشعلت سيجارة . وجلست فوق السرير وقد أمسكت كعبيها الدقيقين بيديها ، وهي تتلو في بطء ونطق معوج تلك الأبيات الرائعة للشاعر اليوناني الشيخ عن قصة حب ، مضى عليها زمن طويل ـ إلا أن الأبيات فقدت مذاقها وهي تتلى بالإنجليزية .

وأحسست مرة أخرى ، وأنا أسمعها تتلو أبيات الشاعر ، وتلمس في رقة كل مقطع من شعر هذا المفكر اليوناني الساخر ، بالقوة الغامضة الغريبة لتلك المدينة ـــ وأرضها المسطحة الغرينية وأجواءها المرهقة ـــ وأدركت أنها ابنة حقيقية للإسكندرية ، تلك المدينة التي لا هي باليونانية أو السورية أو المصرية ولكنها خليط ، شيء مشترك ، من كل هؤلاء .

وبأى إحساس بلغت المقطع ، الذي يلقي فيه الشيخ جانبًا رسالة الحب القديمة التي أثارت أشجانه إثارة بالغة ويصرخ : « إنني أخرج في حزن إلى الشرفة ، أفعل أي شيء لأغير مجرى تلك الأفكار ، حتى لو كان مجرد رؤية حركة هامسة في المدينة التي أحب ، في شوارعها ومتاجرها » . وتدفع «جوستين» بنفسها المصاريع لتقف في الشرفة المظلمة ، فوق مدينة من الأضواء الملونة ، تحس ريح المساء تهب من تخوم « آسيا » . وقد غفت للحظة عن جسدها .

* * *

« الأمير نسيم » ، إنها بالطبع نكتة ، على الأقل بالنسبة لأصحاب الحوانيت والتجار ذوى المعاطف السوداء الذين كانوا يرونه راكبًا سيارته « الرولز » الفضية الفخمة بأغطية مدار عجلاتها الصفراء الباهتة في لون زهرة «الدافوديل» ، السائرة بهدوء في الطريق الظليل . ولتقديمه ، فقد كان قبطيًا ،

ولم يكن مسلماً . ومع ذلك فقد اختير لقبه اختياراً موفقًا ، إذ كان « نسيم » كالأمراء في ترفعه عن الجشع العام الذي انغمست فيه غرائز السكندريين المبجلة بما فيهم أشدهم ثراء . ومع ذلك فإنه لم يكن في أي من العوامل التي جلبت عليه سمعة الشذوذ ، ما يثير الانتباه عند هؤلاء الذين عاشوا خارج نطاق الشرق . فهو لم يكن يبالى بالمال إلا لإنفاقه ــ تلك أولى خصاله ، أما الثانية فهي أنه لم يكن يمتلك شقة يمارس فيها الرذيلة ، لقد بدا شديد الإخلاص «لجوستين » ، وهي حالة نادرة الوجود . ولما كان شديد الثراء فقد سيطر عليه نفور عميق من المال ، جعله لا يحمل بنفسه أى شيء منه . كان ينفق على الطريقة الغربية ويعطي لأصحاب الحوانيت صكوكًا بخط يده . وكانت النوادي الليلية والمطاعم تقبل شيكاته الموقع عليها بإمضائه . ومع ذلك فإنه كان يفي بديونه في دقة ، إذ يرسل سكرتيره « سليم » بالسيارة كل صباح ، كى يتعقب طريقه في اليوم السابق ، ويسدد كل ما تجمع عليه من ديون .

واعتبر سكان المدينة مسلكه هذا ضربًا من الشذوذ والتعالي إلى أقصي الحدود ، فقد كانت لهم خصال مكتسبة فظة واهتمامات منحطةوثقافة خاطئة لا تمدهم بأى خيط يقودهم لمعنى السلوك بمفهومه الأوربي ، ولكن « نسيم » لم يكن قد تعلم هذا السلوك فحسب واكتسبه ، بل لقد ولد له هذا السلوك . ففي هذا المجتمع المحدود ، والذي يحكمه سعار مخطط لجمع المال ، لم يكن ليجد مجالاً لفاعلية الروح ، خاصة إذا كانت رقيقة ، ميالة إلى التأمل . كان أقل الرجال ادعاء ، تعبر عنه أعماله التي تحمل الطابع الحقيقي لشخصيته . لقد كان الناس ميالين إلى أن يعزو سلوكه إلى ثقافته الأجنبية ، ولكن « ألمانيا » و«إنجلترا » لم تؤثرا في الحقيقة فيه إلا قليلاً ، لقد بلبلتاه ، وجعلتاه غير لائق لحياة المدينة . غرست الأولى فيما كان عقلاً فطريًا من عقول البحر المتوسط ، نزعة تأملية لما وراء الطبيعة ، بينما حاولت « أكسفورد » أن تجعله متعاليًا ، ولكنها لم تنجح إلا في تطوير نزعته الفلسفية إلى الحد الذي غدا فيه عاجزًا عن

ممارسة الرسم ، الفن الذي أحبه أكثر الحب . لقد فكر وقاسى كثيرًا ، إلا أن التصميم على الإقدام — وهو أول الصفات اللازمة لمن يتدرب على الفن — كان ينقصه .

كان « نسيم » والمدينة على طرفي نقيض ، إلا أن رجال الأعمال فيها والذين كانوا على صلة يومية به لثروته الضخمة ، قد عمدوا إلى تخفيف كراهيتهم له بمعاملته في رفق يثير الضحك ، تفضل كهذا الذي يتعطف به المرء على أبله . لم يكن هنالك ما يثير الدهشة إذا ما دخلت عليه في مكتبه ـ هذا التابوت الحجري بفولاذه المجوف وزجاجه المضاء — لتجده جالسًا إلى المكتب الكبير (المغطى بالأجراس والبكرات والأضواء الباهرة) كاليتيم ـ يأكل خبزًا قاتم اللون وزبدًا ويقرأ « فارساى » بينما يوقع الرسائل والمستندات ، بدون انتباه . كان ينظر إليك بذلك الوجه اللوزي الشاحب ، وقد كساه تعبير متجهم منكمش يكاد يكون توسلاً . ومع ذلك فقد كان هناك حبل من الصلب ممتد خلال كل تلك الرقة ، حيث كان يُفاجَأموظفوه على الدوام باكتشاف معرفته كل تفاصيل العمل ، رغم مظهره الساهي . كان من النادر أن تثبت صفقة عقدها ، أنها لم تكن قائمة على تقدير صائب . كان بالنسبة لموظفيه شيئًا يذكرهم بمن يوحى إليهم . ورغم ذلك (كانوا يتنهدون في حسرة ويهزون أكتافهم) فقد بدا وكأنه لا يبالي بالربح، وذاك ما تُعرِّف به « الإسكندرية » الجنون .

كنت أعرفهما بالعيان ـ كما كنت أعرف كل امرئٍ في المدينة ، لمدة شهور عديدة ، قبل أن ألتقى بهما لقاء مباشرًا . كنت أعرفهما بالعيان وبما يتمتعان به كذلك من سمعة . فإن حياتهما الفخمة المنطلقة والتي لا تراعي أى عرف أو تقليد ، قد جعلت لهما سمعة خاصة بين قاطنى المدينة المحليين : اشتهرت «جوستين » بكثرة عشاقها ، ونُظر إلى « نسيم » باعتبار أنه زوج « مجامل » .... ولقد راقبتهما يرقصان معًا مرات عديدة ، هو نحيل منخفض الخصر كامرأة ، ويداه طويلتان منحنيتان جميلتان . و « جوستين » برأسها الجميل وأنفها

العربي بطرفه الحاد الانحناء وعينيها الصافيتين وقد وسعتهما « البلادونا » . كانت تتفرس فيما حولها كفهد نصف مدرب .

ولقد أقنعني البعض ، في ذاك الوقت ، بأن أحاضر عن شاعر المدينة في مرسم الفنون الجميلة ــ وهو نوع من النوادي التي يمكن لهواة الفن الموهوبين أن يجتمعوا فيها وأن يستأجروا غرفًا للرسم ، وما شابه ذلك . وقد وافقت لأن ذلك كان يعني مبلغًا قليلاً من المال لشراء معطف « ميليسا » الجديد ، خاصة والخريف على الطريق . إلا أن ذلك كان مؤلمًا لى ، كنت أحس بالشاعر الشيخ يملأ المكان حولي . وهكذا كان على أن أحاضر ناثرا الشوارع الحزينة حول حجرة المحاضرة بشذا تلك الأبيات التي اعتصرها مما مارسه من حب أمتعه رغم سوقيته ، حب ربما اشتراه بالمال ، فلم يدم إلا للحظات قصار ، إلا أنه يحيا الآن في شعره . لقد أمسك عن قصد ، وبكل حنان ، تلك اللحظة العابرة ليثبت كل ألوانها . يالها من صفاقة أن يحاضر المرء عن شاعر ساحر ، انتقى مادة موضوعاته بطريقة طبيعية للغاية ، وبمثل تلك الغريزة المرهفة ، من شوارع ومواخير « الإسكندرية » ، وأن يتوجه المرء بالحديث ، فوق ذاك ، لا إلى مساعدي باعة الخردوات وصغار الكتبة ـ جمهوره الذي خلده ـ ولكن إلى شبه حلقة وقورة من سيدات المجتمع اللواتى كن ينظرن إلى الثقافة التي عبر عنها باعتبار أنها نوع من بنوك الدم : فجئن كى يمارسن عملية نقل الدم . والحقيقة أن الكثيرات منهن قد تركن حفلة للعلب « البريدج » من أجل تلك المحاضرة ، رغم إدراكهن بأنهن سيكتئبن بدلاً من أن ينتعشن .

إنني لا أتذكر سوى قولي بأن وجهه يلازمني ـ الوجه المُفزَع الحزين الرقيق كما بدا في صورته الفوتوغرافية الأخيرة . ولاحظت عندما تقاطرت نساء ، أعضاء النادى ، الوقورات أسفل السلم الحجرى ، إلى الشوارع المبتلة حيث كانت سياراتهن المضاءة في انتظارهن ، وقد تركن الحجرة الهزيلة تسبح في رائحة عطورهن ، إنهن قد تركن خلفهن طالبة وحيدة من طلبة العواطف

والفنون . كانت تجلس في آخر الصالة تدخن سيجارة وقد اتخذت سمت المفكر واضعة إحدى ساقيها فوق الأخرى بطريقة الرجال . لم تكن تنظر إليَّ ولكنها كانت تنظر إلى الأرض تحت قدميها بطريقة غير مهذبة . وأحسست بالزهو إذ فكرت أن هناك شخصًا واحدًا ، ربما قدر ما أواجه من صعاب ، فجمعت حقيبة أوراقي الرطبة ومعطفي القديم الواقي من المطر وأخذت طريقي إلى حيث كان رزاز خفيف نفاذ قادم من جهة البحر ، يجتاح الشوارع . وتوجهت إلى منزلي حيث لابد وأن توجد « ميليسا » الآن مستيقظة وقد أعدت لنا عشاءنا فوق المنضدة المغطاة بأوراق الجرائد . لابد أنها قد أرسلت « حميد » أولاً إلى الفرن ليحضر اللحم المشوى — حيث إننا لا نمتلك فرنًا خاصًا بنا في البيت ، وعبرت الشارع البارد إلى شعلات الحوانيت المضاءة في « شارع فؤاد » ورأيت في نافذة بقال علبة زيتون ، علبة تحمل اسم « أورفيتو » ، فدخلت الحانوت وقد تملكني حنين مفاجئ أن أكون على الجانب الحقيقي من البحر المتوسط ، وابتعت العلبة وفتحتها هناك : ثم جلست إلى مائدة رخامية في ذاك الضوء البشع ، وبدأت آكل « إيطاليا » ، جسدها الأسمر المقدد ، تربتها الربيعية وقد نسقتها الأيادى ، أعنابها المخصصة للنذور . وأحسست أن « ميليسا » لن تستطيع فهم هذا على الإطلاق ، وعلى أن أتظاهر بأني قد فقدت النقود .

لم أر في بادئ الأمر سيارتها الفارهة التي كانت قد تركتها في الشارع وآلتها تدور . ودخلت الحانوت بغتة ، بطريقة سريعة مليئة بالعزم ، وقالت في ثقة تتظاهر بها النساء السحاقيات أو الثريات مع معدم واضح الحاجة .

« ماذا عنيت بملاحظتك التي أبديتها عن الطبيعة المتناقضة لقواعد السخرية» .

ونظرت إليها بطريقة خشنة ، فقد كنت عاجزًا عن انتزاع نفسي من «إيطاليا». ورأيتها تنحني إلى أسفل متجهة نحوى من المرايا التي تغطي ثلاثة حوائط للحجرة ، وقد كسا وجهها الأسمر المثير ، تحفظ متعال حائر . وكنت قد

نسيت بالتأكيد ، ما قلته بخصوص السخرية أو أى شيء آخر له علاقة بهذا الموضوع . فقلت لها ذلك في لا مبالاة طبيعية ، وتنهدت تنهيدة قصيرة كأنما تعبر عن ارتياحها بطريقة عادية ، ثم جلست أمامي وأشعلت سيجارة «كايورال » فرنسية ، وأخذت أنفاسًا قصيرة مبتورة ثم أطلقت نفثات خفيفة من الدخان الأزرق في الضوء الحاد . ونظرت إلى في عبث طائش ، وأحسست بالحرج بينما كانت تراقبني بطريقة صريحة ـ وبدا الأمر وكأنها تحاول أن تقرر أى فائدة يمكن أن ترجى منى . وقالت : « إنني أحب الطريقة التي اقتبست بها أشعاره عن المدينة . إن يونانيتك جيدة ، لا شك أنك كاتب » . قلت : « لا شك في ذلك » . إنه لشيء يؤلم النفس أن يكون الإنسان مغمورًا . وبدا لى أنه لا يوجد ما يبرر متابعة هذا الحديث كله ، فقد كرهت على الدوام تلك المناقشات الأدبية . فقدمت لها حبة زيتون أكلتها في سرعة وبصقت النواة في يدها المكسوة بالقفاز كالقطة حيث أمسكتها دون أن تدرى ، وهي تقول :

« إنني أريد أن آخذك إلى « نسيم » ، زوجي ، هل تصحبني ؟ » كان رجل البوليس الذي ظهر في الممر واضح القلق بسبب السيارة المهجورة . كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها بيت « نسيم » الكبير بتماثيله والممرات التي يظللها النخيل ولوحات « كوربت » و « بونارد » وما شابه ذلك . لقد كان جميلاً وبشعًا في نفس الوقت . وأسرعت « جوستين » تصعد السلم الضخم . ولم تتوقف إلا لكي تنقل حبة الزيتون من جيب معطفها إلى زهرية صينية ، وهي تنادى « نسيم » طوال الوقت ، وأخذنا نتنقل من حجرة إلى أخرى محطمين الصمت . وأخيرًا أجاب « نسيم » نداءها من المرسم الضخم الواقع فوق السطح، وانطلقت « جوستين » إليه ، وبدت لناظرى ككلب صيد ألقي بي عند قدميه ، ثم وقفت بعيدًا تهز ذيلها . لقد أجهزت عليّ .

كان « نسيم » جالسًا يقرأ على قمة سلم ، وأخذ ينزل إلينا في بطء ناظرًا في أول الأمر إلى واحد منا ثم إلى الآخر . كان خجله يفوق منظرى الرث ، وشعرى

المبتل ، وعلبة الزيتون . ومن ناحيتي لم يكن في وسعى أن أقدم تفسيرًا يبرر وجودى ، حيث إني لم أكن أدرى لأى غرض أحضرتني « جوستين » إلى هذا المكان .

وأشفقت عليه فقدمت له زيتونة ، وبينما نجلس سويًا أتينا على صفيحة الزيتون بينما « جوستين » تعد لنا الشراب وتتحدث ، إذا كنت أتذكر ، عن «أورفيتو » ، حيث لم يذهب أىٌ منا . إنه عزاء كبير أن أعود بذاكرتى إلى ذلك اللقاء الأول . لم أكن قريبًا إلى كليهما في يوم من الأيام كما كنت في ذلك اليوم ، أعنى قريبًا من حياتهما الزوجية ، لقد بديًا لى حينئذ وكأنهما ذلك الحيوان الرائع ذو الرأسين الذي يمكن أن يكونه الزواج . وأدركت وأنا أراقب ذلك الدفء الشفوق في عينيه ، بينما استعدت كل الشائعات الفاضحة عن «جوستين» . إنه مهما كان ما فعلته ، حتى ما كان آثمًا أو ضارًا في أعين العالم ، فإنها قد فعلته ، من زاوية ما ، من أجله . كان حبها له يشبه جلدًا يرقد داخله وقد خيط من حوله مثل « هرقل » الطفل ، ولقد قادتها على الدوام كل محاولاتها لتحقيق ذاتها في اتجاهه لا بعيدًا عنه . أنا أعرف أنه لا يوجد في العالم مكان لمثل هذا التناقض الظاهري ، ولكن بدا لي حينئذ أن « نسيم » كان يعرفها ويتقبلها بطريقة يستحيل شرحها لامرئٍ ما زال الحب بالنسبة إليه مقيدًا برغبة الامتلاك . ولقد قال لي « نسيم » ذات مرة ـ فيما بعد : « ماذا كان علىّ أن أفعل ؟ لقد كانت « جوستين » بالنسبة إلىَّ ، قوية للغاية في نواح عديدة جدًا ، لقد كان في وسعى أن أتفوق في حبى لها ، وكان ذلك مطلبى على المدى البعيد . لقد تقدمتها ـــ متوقعًا كل عثرة ، وحيث سقطت في كل مرة ، وجدتني هناك في انتظارها مستعدًا أن أعاونها لتقف على قدميها ، مظهرًا أن ما حدث لا يهم . ومع ذلك فإنها عرضت للهوان أضأل شيء في ذاتي ـ سمعتي » .

لقد دار هذا الحديث بعد لقائنا الأول بكثير . فقبل أن تجرفنا البلايا بتشابكاتها المشئومة . لم نكن نعرف بعضنا البعض بالقدر الكافى لنتحدث في

صراحة كتلك الصراحـة ، وأتذكره أيضـًا وهو يقـول ذات مرة ـ وكـان هذا في الفيللا الصيفيـة قرب « بـرج العرب » : « ستصيبك الحيرة عنـدما أخبرك أنني كنت أعتقد بأن « جوستين » عظيمة على نحو ما . وأنت تعلم أن هناك أنواعًا من العظمة تـدمر الحيـاة العاديـة إن لم تمارس في الفن أو الدين . ولقـد أسيء إلى موهبتها عندما وجهت نحو الحب . لقد كـانت بالطبع سيئة في عديد من الأمور ولكنها كانت أمورًا بسيطة . كما أنه ليس في وسعى أن أقول : إنها لم تؤذ أحدًا ، ولكن هؤلاء الذين آذتهم أكثر من غيرهم قـد صيرتهم أكثر نضجًا . كانت تخلع عن الناس نفوسـهم البالية . ولابد أن ذلك كان يؤلمهم . وأخطأ الكثيرون في فهم طبيعة الألم الذي أوقعتهم فيه ، ولكني لم أكن واحدًا منهم » . وابتسم ابتسـامته التي كانت تمتزج فيها الحلاوة بمرارة يصعب التعبير عنها . وعاد يكرر في رقة نفس الكلمات من تحت أنفاسه « ولكني لم أكن واحدًا منهم » .

* * *

« كابوديستريـا » .... كيف نقدمه في هذا المقام ؟ إنه أقـرب للشيطان منه إلى الإنسان الذي تظنه . رأسه كرأس الحية ، مسطحـة مثلثة بفصوصـها الأمامية الضـخمة . ينمو شعره إلى الأمام بنفس الطريقة التي ينمو بها الشعر على رأس أرملة . يميل لسـانه إلى البياض وهو لا يستقر على حال ، يعمل دائماً في المحافظة على شفتيه الـرقيقتين رطبتين . إنه ثرى ثـراء فاحشًا ولا يحتـاج إلا لأن يرفع أصبعًا حتى يجاب إلى طلبه . يجلس طوال اليوم في شرفة نادي السماسرة يرقب النسوة العـابرات ، بعين لا تهدأ ، عين امرئ تعبث بـلا توقف خلال مجمـوعة قديمة من أوراق اللعب الملونة . ثم تصـدر عنه ما بين الحين والحين « طرقعة » شبيهـة بتلك التي تصدر عن لسـان الحربـاء ـ إشـارة لا يكاد يلمحهـا إلا من يتابعه . وعندها ينساب من الشرفـة خيال رجل يلاحق المرأة التي أشار إليها . ويوقف رجاله النساء أحيانًا علانيـة ويلحون عليهم باسمه ذاكرين قدرًا معينًا من المال ، وفي مـدينتنـا لا يحس بـالمهانـة عنـد ذكـر المال . إن بعض الفتيـات

يضحكن في بساطة . والبعض الآخر يقبلن في الحال . لن ترى ألبتة غضبًا يكسو سماتهن . إذ لا يمكن أن ندعى الفضيلة أو الرذيلة ، فكلاهما أمر طبيعى .

ويجلس « كابوديستريا » بعيدًا عن كل ما يجرى ، في معطفه الطاهر الذيل المصنوع من الشارك سكين وقد تدلى منديله الحريرى الملون على صدره . حذاؤه الرفيع يلمع . إن أصدقاءه يدعونه باسم « داكابو » لما اشتهر به من قدرة جنسية ضخمة كثروته ـ أو قبحه . إنه يمت بصلة قرابة غامضة إلى «جوستين » التي تقول عنه : « إنني أرثى لحاله ، فقد ذبل قلبه وتيبس في أعماقه، وبقيت له حواسه الخمس ، كحطام زجاجة من النبيذ » . ومع ذلك يبدو أنه لا يضيق بمثل تلك الحياة الشديدة الرتابة . ولقد تميزت عائلته بحوادث الانتحار التي وقعت فيها ، ميراثه النفسي شقى بتاريخه الحافل بالاضطرابات والأمراض العقلية . ورغم ذلك لا يبدو عليه القلق ، وهو يلمس صدغيه بسبابته الطويلة ويقول « لقد اختل أسلافي جميعًا ،.هنا في الرأس ، حتى أبى . لقد كان زير نساء كبير ، وعندما غدا عجوزًا للغاية كان لديه نموذج مصنوع من المطاط للمرأة الكاملة بحجمها الطبيعى . كان من الممكن ملؤه بالماء الساخن في الشتاء . كانت فائقة الجمال . وكان يدعوها باسم أمه « سابينا » . ويأخذها معه إلى كل مكان . كان يهوى السفر على عابرات المحيط . ولقد قضي بالفعل العامين الأخيرين من حياته على ظهر واحدة منها ، يقطع البحر إلى « نيويورك » جيئة وذهابًا . وكان « لسابينا » صوان ملابس يثير العجب . كان مشهدًا مثيرًا أن تراهما يدخلان غرفة الطعام ، وقد ارتديا ثياب العشاء . كان يسافر مع حارسه ، رجلاً يدعى « كيلى » . وبينهما كانت تسير « سابينا » بملابس السهرة الرائعة ، وقد أسندها كل من ناحية ، كامرأة جميلة سكرى . وفي الليلة التي مات فيها قال « لكيلى » أبرق إلى « ديمتريوس » وأخبره أن « سابينا » قد ماتت الليلة بين ذراعي دون أن تعاني ألمًا » . وقد دفنت معه على مسافة بعيدة من « نابولي » وضحك « كابوديستريا » ضحكة لم أسمع ألبتة ، أكثر منها صدقًا وطبيعية .

واكتشفت فيما بعد وأنا أكاد أجن من القلق وقد أثقلتني ديون «كابوديستريا» أنه أقل مجاملة مما كنت أعتقد، إذ حدث ذات مساء أن كانت «ميليسا» تجلس هناك نصف سكرى فوق مسند الأقدام إلى جوار النار، وقد أمسكت بأصابعها الطويلة المتأنية سند الدّين الذي كتبته له وقد خط عليه بالحبر الأخضر كلمة «خالص» تلك الكلمة المقتضبة ... إنها ذكريات موجعة. وقالت «ميليسا». «كان من الممكن أن تدفع «جوستين» دينك من ثروتها الضخمة. ولكنى لم أشأ أن أراها تشدد قبضتها عليك. فضلاً عن أنى ما زلت أرغب في أن أفعل شيئًا من أجلك، رغم أنك لم تعد تبالى بى - وتلك أقل تضحية. لم أكن أعتقد أنه سيؤلمك كثيرًا أن أنام معه. ألم تفعل أنت نفس الشيء معى - أعنى ألم تقترض أنت النقود من «جوستين» كى ترسلنى بعيدًا كى أكشف بأشعة X؟ رغم أنك قد كذبت علىّ بهذا الخصوص وقد عرفت أنا ذلك. أما أنا فلا أكذب - لا أكذب أبدًا. هيا، خذها ومزقها، ولكن لا تقامر معه بعد ذلك. إنه ليس من طينتك».

وصدر عنها وهي تدير وجهها صوتًا كذلك الصوت الذي يأتيه العرب عندما يبصقون.

إنني لا أرغب في الكتابة عن حياة «نسيم» الخارجية — عن حفلات الاستقبال الفخمة المملة، والتي كانت تقام في البدء خصيصًا لزملائه من رجال الأعمال ثم كرست فيما بعد لغايات سياسية غامضة. كنت أتوقف لحظة، بينما أنسل عبر البهو الكبير وفوق السلالم إلى المرسم، لأقرأ اللوح الجلدي الكبير الموضوع فوق المدفأة وعليه تصميم المائدة — لأرى من الذي وضع إلى يمين «جوستين» ويسارها. لقد قاما لمدة قصيرة بمحاولة رقيقة لضمى إلى تلك الاجتماعات إلا أننى سرعان ماسئمتها محتجًا بالمرض، رغم سعادتي بأن أفعل ما أشاء في المرسم والمكتبة الضخمة. وكنا نلتقي فيما بعد كالمتآمرين، فتطرح «جوستين» ما تتقنع به في حياتها الاجتماعية من عواطف المرح، والملل

والنزق . كانـوا يرفسون أحذيتهم في ضـوء الشموع ، ويلعبون بأوراق اللعب كل إثنين معا . وعندما تذهب إلى فراشـها فيمّا بعد كانت تنظر إلى نفسـها في المرآة الموجودة بـالطابق الأرضي وتقول لصورتها : « أيتهـا اليهودية المتعبة الـدعية المختلة » .

* * *

يقع محل « منمجيان البابليونى » الحلاق على ناصية شارع « فؤاد الأول » و « النبى دانيال » . هنا يتمدد بومبال كل صباح إلى جوارى في المرايا . كنا نُرفع معًا في وقت واحد ثم نؤرجح في هدوء إلى أسفل نحو الأرض وقد لففنا كفراعنة أمـوات ، ثم نعود للظهـور على السقف في نفس اللحظـة وقـد بسطنا كعينـات نموذجية . لقد فرد علينا صبى صـغير أسود قطع قماش بيضـاء ، بينما الحلاق « يطرقع » وهـو يقلب رغوته الكثيفـة الحلوة الرائحة في قـدح الحلاقة الكبير « الفيكتـورى » الطـراز ، قبل أن يضـعهـا على خـدودنـا بضربـات مبـاشرة من الفرشاة. ثم يسلم عمله وقد تمت المرحلـة الأولى منه إلى مساعده ، بينما يتوجه هو إلى سير جلـدى كبير يتدلى بين أوراق اصطيـاد الذبـاب على الحائط الداخلى للمحل ويأخذ في شـحذ موس إنجليزي النوع .

إن « منمجيان » الصـغير ، قزم ذو عين بنفسجية لم تفقد طفـولتها أبدًا . إنه الـرجل الذي يحتفظ بكل شيء في ذاكـرتـه ، إنه أرشيف المدينـة . فإن رغبت في معرفة أسلاف أو دخل أغلب العابرين بطريق الصدفة ، ما عليك إلا أن تسـأله ، فيتلو عليك التفاصيل في صوت منغم بينما يشـحذ موسه ويجربه في شـعر زنده الأسود الخشن . وفي وسعه أن يكتشف ما لا يعـرفه في لحظات معدودة . وهو فضـلاً عن ذلك حجة في الموتى كما في الأحياء . أعنى هذا بالمعنى الأدبى للتعبير ، حيث يستخدمه المستشفى اليوناني ليحلق لضـحاياه ويعدهم قبل أن يعهد بهم إلى الحانـوتية ـــ عمل يؤديـه بمتعـة يلونها حماس يتميـز به بنى جنسـه . إن صنعته العتيقة تضم العالمين ، وتبدأ بعض من أفضل ملاحظاته بالجملة التالية

« كما قال فـلان ـ وفـلان وهو يلفـظ آخر أنفـاسه » . ويشـاع عنه أنـه جذاب للنساء على نحو غـريب ، ويقال إنه قد كون ثروة صغيرة كسبتهـا له المعجبات به. إلا أن لـه كذلك عـدد من الزبائن الـدائمين من عجائز السيـدات المصريات ، نساء وأرامل بعض الباشوات واللواتى يتردد عليهن في فترات منتظمة ليصفف لهن شعورهن . وهن كما يقول في خبث ، « قد تجاوزن كل الحدود » . ويمد يده ليبلغ ظهره ، يتحسس حـدبته القبيحـة المنظر والتي تتـوج ظهره ويضيف في افتخار « إنها تثيرهن » . ولديه بين أشياء أخـرى علبة سجائر ذهبية أعطتها له واحـدة من تلك المعجبـات ، وهـو يحتفظ فيهـا بكميـة من ورق السجـائر غير الملفوفة . إن يونانيته ركيكة ولكنهـا جريئة وحية كما أن « بومبال » يرفض أن يسمح له بأن يتحدث الفرنسية ، اللغة التي يجيدها أكثر من اليونانية .

وهو يؤدي لصديقي بعض الخدمات اللطيفـة . ويدهشنى فيه دائماً قدرته على التحليق الشـاعري الفجـائي الـذي يجيده عنـدمـا يصف النساء اللـواتي يضعهن تحت حمايته . إنـه ينحني فوق وجه « بـومبال » الذي يشبـه القمر . ويقول ، مثلا ، في صوت خافت حذر ، وقد أخذ موس الحلاقة في الهمس «عندى لك شيء ــ شيء خصـوصي » . وتلتقي عين « بـومبـال » بعيني في المرآة فيبعـد ناظريه سريعًا حتى لا تنتقل عـدوى الابتسام من أى منا إلى الآخر . ويدمدم في حذر . ويميل « منمجيان » في خفة على أطراف قـدميه ، وفي عينيه حول خفيف ، والصوت الخافت المداهن يثير معنى مـزدوجًا حول كل مـا يقول ـ وحـديثه لا يقل إثارة للانتبـاه ، حيث يقطعه بتنهيدات المتعب من الـدنيا . ويستمر لفترة لا يضيف لما قال شيئًا . في وسعى أن أرى قمـة رأس « منمجيان » في المرآة ـ ذلك البروز القبيح من الشعر الأسـود الذي شذ به على كل من صـدغيه على صورة خصلة كـالبصقة ، آملا دون شك في شـد الانتباه بعيدًا عن ذلك الظهـر المقوس الذي يميـزه . وبينما يعمل بالموس تغيـم عيناه وتغدو مـلامحه خاليـة من كل تعبير وكأنها ملامح زجاجة وتنتقل أصابعه فوق وجوهنا الحية ببرودة تماثل

تلك التي ينتقل بها فـوق وجـوه المتأنقين والموتى (وهم المحظـوظون حقـًا) .
ويقول « منمجيـان » : « سينشرح صدرك هـذه المرة من جميع الـوجوه . إنها صغيرة ، رخيصة ونظيفة . ستقول لنفسك إنها طـائر قطًا صغير ، قرص شهد عسله كله ما يزال بداخله ، يمامـة . إنها تعانى بعض المتاعب المالية . فقد عادت مؤخرًا من مصحة الأمراض العقلية في حلـوان . حيث حاول زوجها أن يودعها هناك بدعوى أنها مجنونة . لقد أعـددت لها مكانًا تجلس فيه في « الروزمارى » عند آخر منضدة على الرصيف . اذهب وعاينها الساعة الواحدة ، فإن أردت أن تصطحبك ، اعطها البطـاقة التي سأعدهـا لك ، ولكن تذكر ، الـدفع لى وحدى . وهذا هو الشرط الوحيد الذي أضعه بين سيـد مهذب وسيد مهذب آخر يتعامل معه » .

ولا يقول المزيـد حينذاك . ويحملق « بومبال » في نفســه في المرآة ، يتصارع فضوله الطبيعي مع هواء الصيف البائس الكسـول . وأخيرًا سينطلق دون شك إلى الشقة ومعه مخلوقـة مرهقة مختلة لا تثير ابتسامتها المشـوهة في نفسه إلا الشفقـة . ليس في وسعى القـول بأن صـديقى ينقصه العطف والحنـان ، إنـه يحاول دائماً تـوفير عمل من أى نوع لهؤلاء الفتيـات . وفي الحقيقـة فإن أغلب القنصليات متخمة بالعاملات اللـواتى جمعته الصدفة بهن من قبل ، واللواتى يحاولن جهدهن الظهور بمظهر المستقيمات ، إنهن مـدينات بوظائفهن لإلحاح «جورج » على زمــلائه في المهنة . ومع ذلك فلا تـوجد امرأة لم تنل من رعـايته المظهرية مهما كانت هذه المرأة ذليلة أو متهدمة أو عجوزًا ، لم تنل من تصرفاته البسيطة القائمة على النخوة والمروءة ولمحـات الفطنة ، والتي بدأت أربط بينها وبين المزاج « الغالى » (*) . إنه السحر الفرنسى المزوق المندفع والذي يتحول في سهولة كبيرة إلى كبرياء وكسل عقلي ، كالفكـر الفرنسي الذي ينساب سريعًا إلى قوالب رملية ، كالنفس الفطرية وقد تصلبت في الحال إلى آراء هزيلة . فإن لعبة

Galli, (*)

الجنس السهلة والتي تهُوم حول أفكاره وأفعاله لا تحمل أى جو من الإثرة مما يجعلها ، مثلاً ، تختلف اختلافًا كيفيًّا عن أفكار وأعمال « كابوديستريا » ، الذي يلحق بنا في أغلب الأحيان بينما نحلق في الصباح . إن ! « كوبوديستريا » القدرة الفطرية الخالصة على أن يقلب كل شيء إلى امرأة . فتحت نظرات عينيه تعانى المقاعد الألم لإحساسها بعرى سيقانها ، إنه يلقح الأشياء بعينيه ، ولقد رأيت بطيخة فوق المائدة وقد غدت حساسة تحت نظراته حتى أنها أحست بالبذور التي في أحشائها وهي تنبض بالحياة . وتحس النسوة عندما ينظرن إلى وجهه الضيق المفلطح بلسانه الذي لا يكف عن الحركة عبر شفتيه الرقيقتين بإحساس الطيور التي تتصدى لها أفعى سامة . إنني أفكر في « ميليسا » مرة أخرى :ـ

أختي العروس التي تشبه حديقة مغلقة .

* * *

قالت « جوستين » :ـ « إنك تنظر إلينا في ازدراء . إذ كيف يمكن أن تكون واحدًا منا إلى هذا الحد ومع ذلك ... فإنك لست كذلك ؟ » . إنها تمشط شعرها الفاحم في المرآة ، وفمها وعيناها مشدودة نحو سيجارة ، « لابد ، لكونك «أيرلنديًا » ، أن تكون لاجئًا بسبب أفكارك ، إلا أنك لا تعاني ما نعانيه نحن من قلق » . إن ما تسعى إليه « جوستين » إنما هو في الحقيقة ذلك الشيء الخاص المميز والذي لا ينبعث منا نحن ولكن من المناظر الطبيعية ـ إنها روائح الإرهاق التي تشبه رائحة المعدن والتي تملأ أجواء مريوط .

وأفكر أنا ، بينما تتكلم « جوستين » ، في الرجال الذين أسسوا المدينة ، في الجندي ـ الإله في تابوته الزجاجي ، الجسد الشاب ملفوفًا في الفضة يمخر النهر نحو مقبرته . أو في ذلك الرأس الزنجي الضخم الممتلئ وهو يردد ما توصل إليه من خلال التأمل الفكرى الخالص عن تصوره للإله ـ «بلوتينوس». وكأن هموم هذه الرقعة من الأرض قد تمركزت في مكان ما بعيدًا عن متناول المواطن

العادي ـ في منطقة يضطر فيها الجسد ، وقد جرده تسامحه الزائد عن الحد من أسراره الأخيرة ، إلى الخضوع إلى سيطرة أكبر شمولاً بكثير : أو أن يهلك في نفس الإرهاق الذي عبرت عنه أعمال « الموسويين » لعب الخناث الخالي من الفن في ساحات العلم والفن المورقة . والشعر محاولة فجة تصيب عرائس الشعر بعقم زائف : ويلمع التشبيه الأحمق المؤلم المأخوذ عن شعر « برنيس » في سماء الليل فوق وجه « ميليسا » النائم . لقد قالت « جوستين » ذات مرة « آه ، لابد أن يكون هناك شيء بلا مقابل ، شيء يمت إلى « جزر الباسفيكى » في تلك الإباحية التي نحياها » . وربما أضافت : أو حتى شيء يمت إلى البحر المتوسط حيث يختلف مغزى القبلة في « إيطاليا » أو « إسبانيا » ، هنا تحك الرياح القاسية الجافة والتى تهب من صحارى « أفريقيا » أجسادنا فنجبر على أن نستبدل الحب برقة ذهنية أشد قسوة ، إنها تؤكد بالضرورة وحشتنا بدلاً من أن تحد منها .

وغدا للمدينة الآن قطبًا جاذبية ـ القطب الحقيقي وقطب الجاذبية الشمالي والذي يحمل طابعها ، وبينهما يتوهج مزاج سكانها في قسوة كشحنة كهربية مفرغة ومنطلقة . إن مركزها الروحى كان في مكان « السوما » الذي ذهب في طي النسيان حيث دفن يومًا ما جنديها الشاب الحائر في إلوهيته المستعارة ، ومركزها الدنيوى في نادي السماسرة حيث جلس سماسرة القطن «كالقباليين»[1] يرشفون قهوتهم ويدخنون السيجار الفاخر ، ويراقبون كابوديستريا ـ كما يراقب الناس على ضفة النهر ما يحرزه الفنان أو الصياد من تقدم . لقد كان الأول بالنسبة لي رمزًا لانتصارات الإنسان في مجالات المادية والزمان والمكان ـ والتي يجب أن تخضع بصورة حتمية خبرتها المريرة في الهزيمة للمنتصر الراقد في نعشه ، أما الآخر فإنه لم يكن رمزًا ، ولكنه كان

---

(١) مجموعة من الناس تعمل وتتآمر سرًا ، تدعو إلى الفلسفة الدينية السرية لأحبار اليهود .

حافـة الجحيم الحية لـلإرادة الحرة التي تجوس خلالها محبـوبتي ، تبحث في وحدانيـة ذهنية مخيفة عن شرارة الكمال والتي يمكن أن ترفعهـا إلى ما تطمح فيه من رؤيـا جيدة لنفسـهـا . ففي أعماقها كواحـدة من بنات « الإسكنـدرية » كانـت الإباحيـة ـ على نحو غـريب ـــ شكلاً من أشكـال إنكار الـذات ومسخًا للحـريـة. ولـو نظـرت إليهـا كنمـوذج للمـدينـة فـلا يعنى هـذا بـالضرورة «الإسكندريـة » أو « بلوتينوس » الـذي أجبرت على التفكير فيه ، ولكنهـا كانت كابنـة « فالنتينـوس » الثلاثين الحزينة والتـي سقطت « لا كما سقط الشيطان بالتمرد على الإله ، ولكن بالرغبة العارمة في الاتحاد به » . إن أى تماد ينقلب إلى خطيئة .

وسقطت ـــ كما يقول الفيلسـوف التراجيدي ـــ لانفصالها عن الانسجـام الإلهي مع ذاتها ، وغـدت مظهرًا للمادة ، تشكـل عالم مـدينتهـا كله ، والعـالم جميعـه من عـذابها وتأنيب ضميرهـا . إن البذرة المأسـاويـة التي نمت عنهـا أفكارها وأعمالها كانت بذرة القدرية التشاؤمية .

إنني أعرف أن هذا التعـريف صحيح ـ فقد حدث بعـد ذلك بوقت طويل أن سمحت لي ، في كثير من الريب والهواجـس ، أن أنضم إلى الحلقة الصغيرة التي كانت تجتمع كل شـهر حول « بلتازار » والذي كـان حديثه عن القدرية هو أكثر ما يشد انتباهها دائماً . إنني أتذكـرها وهي تسأله ذات ليلة في قلق وتوسل عما إذا كانت قد أولت فكره تأويـلاً صحيحًا ، « أعنى أن الله لم يخلقنا ولم يرغب في أن نخلق ، ولكننا من صنع إلـه صانع أقل مـرتبة ، اعتقد خطأ بأنـه الإله [1] ؟ ياللسموات ! كم يبـدو هذا الاحتمال مرجحًا ، وتلك العجرفـة التي ورثناها ثم نورثهـا لأبنائنـا » . وبينما نسير أوقفتني بأن وقفت أمامي وأمسكت بثنيات

(١) في الفلسفة اليونـانية هناك إله متكبر يترفع عن صنـاعة اى شيء وهناك إله صـانع هو الذي كلف بخلق البشر إلخ ...

معطفي وحملقت بحماس في عيني وقـالت : « ما الـذي تؤمن بـه ؟ إنك لا تتكلم ألبتة ، وأكثر ما يصدر عنك أن تضحك في بعض الأحيان » . لم أعرف بم أجيبها فقد بدت لى كل الأفكـار متماثلة الجودة ، وحقيقة وجودهـا وبقائها يبرهن على أن هناك قوة خالقة . فهل يهم إن كانـوا ، موضوعيًا ، على خطأ أم على صواب ؟ إنهم لن يستمروا هكذا لفترة طويلة . ولكنها صرخت وهي تؤكد بطريقة مؤثرة « ولكنه يهم ، بصورة عميقة ، بصورة عميقة يا حبيبي » .

إننا أبناء الطبيعة المحيطة بنا ، وهي تملى علينا سلوكنا وحتى فكرنا بالقدر الـذي نستجيب به لها . لم يكن في وسعى أن أفكـر في تعـريف أفضل من ذلك ـ «إن تشككك مثـلاً ، والـذي يتضمن قـدرًا كبيرًا مـن القلق ومثل هـذا التعطش للحقيقة المطلقة ليختلف إلى حـد بعيد عن الشك اليوناني ، عن التـلاعب الذهني الذي تتميـز به عقلية البحر المتـوسط والذي يلجأ عامدًا للسفسطـة كجزء من لعبة الفكر ، لأن فكرك سلاح ، ولا هوت » .

« ولكن كيف يمكن أن يحكم على الفعل بغير هذه الطريقة ؟ » .

« لا يمكن أن يحكم عليـه حكماً شامـلاً قبل أن يقيم الفكر ذاتـه ، فأفكارنـا ذاتها إنما هي أفعال . إن محاولـة إصدار أحكام جـزئية على أى منها هـو الذي يقود إلى الريب والشكوك » .

أحببت كثيرًا الطريقـة التي تجلس بها فجأة على حائط أو عمـود مكسور في الفناء الخلفي المتهدم لعمود « بومبي » ، وتغـرق في حزن لا يخمد لفكرة طرأت للتو على ذهنها . « هل هذا حقًّا هو ما تعتقـد ؟ » ،. تقولها بطريقة حزينة تجعل المرء يتأثر منها ويطرب لها في نفس الوقت . « ولماذا تضحك ؟ إنك تضحك دائماً من أكثر الأمور جدية . آه بالتأكيـد يجب أن تكون حزينًا » . لو لم تكن تعرفني ألبتة ، لاكتشفت فيما بعد بـالضرورة أنه بالنسبة لنـا نحن الذين نحس الأمور بعمق ، والذين نعى كل ذلك التشابك المعقد للفكر الإنساني ، فإنه لا يصدر عنا سوى رد فعل واحد ـ هو الصمت والرقة الساخرة .

لم يكن هناك ما أفعله ، في ليلة تلمع بالنجوم حيث تعيد اليراعات المنتشرة في العشب الجاف الحاد بـريقها الأرجـواني الشاحب كـالطيف إلى السماء ، إلا أن أجلس إلى جوارها أربت تلك الهامة الفاحمة من الشعر الجميل ، ولا أقول شيئًا. ومن تحتتنـا انطلق كنهر داكن ، ذلك الاقتبـاس الجليل الذي اتخذه « بلتـازار » مرجعـًا له والذي كـان يقرؤه وهو ينتفض بعض الشيء من العـاطفة والبعض الآخر من الإرهاق الـذي يعانيه من كل ذلك الفكـر الغامض . « إن نهار الجسد هـو ليل الروح . فعنـدما تكف الأجســاد عن العمل تبـدأ الأرواح الإنسانيـة في العمل . إن صحوة الجسـد إنما هي نوم الروح . ونوم الـروح إنما هو صحوة الجسد » . وأخيرًا قـال في صوت كهزيم الرعـد : « إن الإثم هو أفضل سبيل إلى الضـلال » .

* * *

كنت أشك لفترة طويلة في أن « نسيم » قد وضـع « جوستين » تحت المراقبة ، ومع ذلك بدت طليقـة كالوطواط وهي تطير خلال الليـل عبر المدينة ، لم أسمعه يطلب منهـا أن تقدم لـه حســابًا عـن تحركاتها . ليس سهـلاً أن تتجسس على شخص لا يستقر على حال ، متصل بحياة المدينة في أمـاكن عديدة للغاية . ومع ذلك فمن المحتمل أنها كـانت تحت المراقبة حتى لا يصيبهـا أذى أو ضرر . ففي إحـدي الليالى ذكـرتني إحـدى الحوادث بتلك الفكـرة ،إذ كنت مـدعوًّا لتنـاول العشـاء في البيت القـديم . وكنا نتنـاول العشـاء ، حينما يكـونا بمفـردهما في «شـاليه» صغير في نهايـة الحديقة حيث يمكن أن تمتـزج رطوبـة الصيف مع خرير الماء المتســاقط من رءوس الأسود الأربعة المحيطة بالنـافورة . وتأخرت «جـوستين » في تلك المناسبـة الخاصة ، وجلس « نسيم » بمفـرده وقد شـدت الستائر إلى الخلف نحـو الغرب ، يلمع في أناة بـأنامله الطـويلة الرقيقـة حجرًا أخضر من « اليشب » من مجموعته .

كان قـد مضى بالفعل أربعـون دقيقة على ساعـة العشاء فأشـار كي يقدم

الطعام وفي تلك اللحظة صدر عن التليفون الداخلي الصغير الأسود صوت أشبه بصوت الإبـرة ، فعبر المكان إلى المنضدة والتقطـه وهو يتنهد ، وسمعتـه يقول وقد نفد صبره : « نعم » ، ثم تكلم لبرهة بصوت منخفض ، مغيرًا لغته فجأة إلى اللغة العربية ، وللحظة انتابنى شعور داخلي مفاجئ بأن « منمجيان » هو الذي يتحدث إليـه عبر الأسلاك . لم أدر لم انتابني ذلك الإحسـاس . وخط شيء ما في سرعة على مظروف ، ووقف يستظهر مـا كتب بعد أن وضع سماعة التليفون . ثم استـدار إليّ ، وفجأة غـدا « نسيم » الـذي يحدثني شخصا آخـر غير الـذي أعرفه، وقال « ربما احتاجت « جوستين » إلى أن نقدم لها يد العون والمساعدة ، فهل تحضر معى ؟. ودون انتظـار لجواب انـدفـع يهبط درجـات السلم إلى «الجاراج » عبر بركة الزنابق . وتبعته على قدر ما استطعت . لم يستغرق الأمر دقائق وانطلقت بنا سيارته الرياضية الصغيرة عبر البوابات الثقيلة إلى « شارع فؤاد » وأخذ يشق طريقه عبر شبكة الشوارع التي تنحدر نحو « رأس التين » . كان المارة قليلين رغـم أن الوقت لم يكن متأخـرًا ، وانطلقنا على طول شـواطئ الكورنيش نحو « نادى اليخت » بعد أن لحقنا بعربات الحنطور القليلة (عربات الحب) والتي كانت تتسكع صعودًا وهبوطًا على شاطئ البحر .

وانحرفنـا عند الطـابية ودخلنا الأحيـاء المزدحمة القذرة التي تـرقد خلف شارع « التتـويج » ، ومصابيـح السيارة الأماميـة تكشف بأنـوارها الـزاهية المقاهي المليئة بالنـاس كعش النمل والميادين المزدحمة ، إنها تكشفه بإشعاع لم يألفه النـاس في هذا المكان ، ومن مكـان ما خلف المنازل المحطمـة والخالية من القـوائم الخشبيـةوالموجـودة أمـامنـا مبـاشرة ، انطلقت الصرخـات الحادة و«الولولات » من أحـد المآتم وقد جعلت الندابات المحترفـات الليل موحشًا بما يرددنه من رثاء عن الميت . وتـركنا السيارة في شارع ضيق إلى جوار الجامع ، ودخل « نسيم » بـوابة عمارة كبيرة مظلمـة يتكون نصفهـا من مكاتب مغلقـة عليها لـوحات بأسماء أصحابها وقد طمسـت الكتابة الموجودة عليهـا . وهناك

بواب وحيد يجلس على مصطبة يدخن نـارجيلة قصيرة الساق ، وقد لف نفسه في خرق ، فبدا للناس أجمعين كشيء منبوذ (كإطار سيارة قديم) . وتحدث إليه « نسيم » بطريقـة حادة ، وقبل أن يجيب الـرجل كان « نسيم » قـد عبر خلفية البناء من أولها إلى آخـرها إلى مكـان يبدو كفنـاء خلفي مظلم تمتد على جـانبيه مجموعـة من المنازل المتهدمة المبنيـة من الطوب الطيني وقد تساقط طـلاؤها . ولم يتـوقف إلا ليشعل ولاعتـه ، التي بـدأنا على ضـوئهـا الخافت بحثنـًا عن الأبواب . وعند البـاب الرابع أطفأ الولاعة وأخذ يطـرق الباب بقبضته . ولما لم يجبه أحد دفع الباب وفتحه .

وواجهنا ممر يقـود إلى حجرة صغيرة معتمة يضيئها نـور مصابيح زيتية خافتة . وكان من الواضح أن هذه الحجرة هي مقصدنا .

كان المنظـر الذي اقتحمناه منظـرًا غريبًا بصـورة وحشية ، إن لم يكن لأى سبب غير الضـوء المنطلق من الأرضية الطينيـة إلى أعلى ، وقد لامس حـواجب وشفاه وعظام وجنـات الموجودين في الغرفة بينما تـرك بقعًا كبيرة من الظلال على وجوههن ـ فبدوا وكأن الفئـران قد نهشت نصف وجوههن ، تلك الفئران التي كنا نسمعهـا وهي تتدافع بين العـوارض الخشبية لتلك البنايـة التعسة . كانت دار دعارة للمومسات الصغيرات ، وفي العتمة وقفت « دستة » من الفتيات بشعورهن المنكوشة وقد لبسن قمصـان نوم مضحكة على نمط القمصان التي جاء ذكـرها في التوراة ، وطلين شفاههن وارتـدين عقودًا من الخرز المزركش ، وخـواتم رخيصـة ، لم يكن قـد تجاوزن سن العـاشرة كثيرًا ، وكـانت بـراءة الطفولة التي تشع من تحت الملابس الملـونة تتناقض تناقضًا مفـزعًا مع المنظر الهمجي لبحـار فـرنسي ضخم الجثـة واقف في منتصف الحجـرة على سـاقين معوجتين ، ووجهـه المشوه المعـذب قد خـرج من عنقه نحـو «جوستين» التي وقفت وقد اتجه جـزء من وجهها نحونـا . إن القوة التي نطق بها الكلمات التي كان يصرخها للتو والتي تلاشت في الصمت كانت ما تزال واضحة في نتوء ذقنه

وعضــلات عنقه المشـدودة السوداء . أمــا عن « جوسـتين » فقـد كان وجههــا مضيئًا بنوع من الصرامة الغامضة المتألمة . كانت تمسك بزجاجة وترفعها بيد واحدة ، وكان واضحـًا أنها لم تلق بواحدة مثلها من قبل ، فقـد كانت تمسكها بطريقة خاطئة .

وتمددت فـوق كنبة بـالية في ركن مـن أركان الحجـرة أضاءه الظل الـدافئ المنعكس عن الحيطان ، فتاة صغيرة وقد انكمشت داخل قميص نومها بصورة بشعة تـوحي بالموت . كان الحائط فـوق الكنبة مغطي بنقوش زرقـاء لكفوف صغيرة ، إنها التميمـة التي تحمي المنـزل في هـذا الجزء من العــالم ، من العين الشريـرة ، كانت الـزخـرفـة الوحيـدة في الحجـرة ، وفي الحقيقة كـانت أكثـر الزخارف انتشارًا في كل الحي العربي من المدينة .

ووقفنا هناك أنا و « نسيم » لفترة ليست بالقصيرة مأخوذين بالمنظر الذي أمامنا والذي كان له نوع من الجمال المخيف ـ إنها تشبه على سبيل المثال بعض الصـور المحفورة الملـونة البشعـة لإنجيل من العصر الفيكتـورى ثمنه فلسـًا واحدًا، وقـد شوهت واستبـدلت مادة موضـوعة : كـانت « جوسـتين » تشـهق بطريقة توحى بأنها قد أوشكت على البكاء .

وانقضضنا عليها ، على ما أعتقد ، وسحبنــاها خارجًا إلى الطريق ، وعلى أى حال فإنني لا أتذكر سوانًا نحن الثلاثة وقد بلغنا الشاطئ وانطلقت بنا السيارة على طول « الكورنيش » في ضوء القمر البرونزي الرائق ، ومرآة السيارة تعكس وجـه « نسيم » الحزين الصــامت ، وصــورة زوجتـه الصامتـة الجالســة إلى جـواره، تحملق في الأمــواج الفضية وهـي تتكسر بينما تـدخن السيجـارة التي اقترضتها من جيب سـترته . وأخيرًا قبلت « جوستين » « نسيم » برقة في عينه ، ونحن في « الجاراج » ، قبل أن نغادر السيارة .

* * *

لقد اعتبرت كل هـذا نوعًا مـن المقدمة إلى ذاك اللقــاء الأول الحقيقي ، اللقاء

وجهًا لوجه ، حينما انتهى التفاهم الـذي استمتعنا به حتى ذلك الحين ـ والذي تمثل في المرح والصداقة القائمين على ميول مشتركة بيننا نحن الثلاثة ـ إلى شيء لم يكن هو الحب ـ وكيف كان من الممكن أن يكونه ؟ ـ ولكن إلى نوع من الشاغل الذهني الذي لعبت فيه الـرغبة الجنسية الحادة أقل الأدوار . كيف سمحنا لها أن تنطلق ــ ونحن كما كنـا أندادًا أفـذاذًا في الخبرة ، وقـد عبرنا أحـزان الحب وتأقلمنا معها في أماكن أخرى .

في الخريف تتحول إناث شجر الغار إلى اللـون الفوسفوري الذي لا يستقر على حال ويشعر المرء بعـد الأيام الطويلة الملتهبة المليئة بـالغبار بأول نبضات الخريف ، كجناحًا فراشة يخفقان ينفضان ما عليهما . وتتحول « مريوط » إلى اللون الأرجواني الشاحب ترصـع شطآنها الطينية مسطحات شقائق النعمان اللامعة ، النامية على طين الشاطئ اللزج الذي تغوص فيه الأقدام . ولقد عرجت على البيت ذات يـوم بينما كان « نسيم » في « القـاهـرة » لأقترض بعض الكتب ولدهشتي وجدت « جوستين » في المرسم بمفردها ، كانت ترتق بلوفرًا قديماً . لقـد استقلت قطار الليل وعـادت إلى « الإسكندريـة » تاركـة « نسيم » ليحضر بعض الاجتماعات الخاصة بالأعمال . وتناولنا الشاى معًا ، ثم أخذنا حاجيات السبـاحة استجـابة لخاطـر مفاجئ وانطلقنـا بالسيـارة خلال أكـوام الخبث الصدئة الموجودة « بالمكس » نحو شواطئ « برج العرب » الرملية ، والتي تلمع في الضوء الأرجـواني الشاحـب لأصيل يسرع نحو الغـروب . هنا كـان البحر الطليق يهدر فوق بســط الرمال الـرطبة التي لها لـون الزئبق المتأكســد ، كان وقعه الشجــي العميق يشكل خلفية منـاسبة لمثل الحديث الـذي كنا نتبـادله ، وسرنا تغمرنا المياه حتى مفاصل أقـدامنا ، في تلك البرك الضحلة اللاسعة التي تشبه « النُقـَر » ، وقد غصت هنا وهنـاك بالإسفنج الـذي اقتلع من جذوره ثم ألقي به على الشـاطئ . ولم نمر بأحد ونحن على الطـريق ـ على ما أتذكـر ـ غير شاب بدوى ضــامر يحمل على رأسه قفصًا مصنوعًا من السلك مليئـًا بالطيور

البرية التي اصطيدت بشراك من الأغصان . طيور السمان الدائخة .

ورقدنا لمدة طويلة جنبًا إلى جنب في ملابس الاستحمام المبتلة حتى نتلقي آخر شعاعات الشمس الشاحبة على أجسادنا في رطوبة الماء اللذيذة . كنت راقدًا وعيوني نصف مغمضة بينما كانت « جوستين » (كم أراها بوضوح) تتكئ على مرفقها تظلل عينيها براحة يدها وترقب وجهي . كان من عادتها أن تحملق في شفتي كلما تكلمت ، تحملق بطريقة غريبة تحمل معنى السخرية ، طريقة سليطة تكاد أن تكون متعمدة ، وكأنها تنتظر مني أن أخطئ وأنا أنطق إحدى الكلمات . لقد نسيت ما قيل لو أن الأمر كله بدأ حقًّا من عند هذه النقطة ، إلا أنني أتذكر صوتها الأجش المتعب وهي تقول شيئًا مثل « ما قولك إذا كان من المحتم أن يحدث لنا ذلك ؟ » إلا أنها انحنت عليّ وقبلتني في فمي بطريقة عدائية ساخرة ، قبل أن أتفوه بشيء ، وبدا لي أن هذا التصرف لا يليق بالمرة حتى إني استدرت وعلى شفتي تأنيب أوشك أن يصدر عني ـ إلا أنه ابتداء من الآن وفيما بعد كانت قبلاتها كطعنات لاهثة ناعمة تقطع ضحكتها الوحشية المهزوزة الساخرة ـــ والتي بدا أنها تتجمع في حلقومها . وخطر لي حينئذ أنها تشبه شخصًا ما يعاني من خوف شديد . ولو حدث وقلت لها الآن « يجب ألا يحدث لنا ذلك » . فلابد أن تجيب قائلة : « ولكن دعنا نفترض . ماذا لو حدث بالفعل ؟» وعندئذ ـ وأنا أتذكر هذا بوضوح ـ سيطر عليها جنون الذي يبرر أفعاله (وكنا نتكلم الفرنسية : واللغة تثير في النفس ما لها من طابع قومي) ، كانت تقول بين تلك اللحظات الخاطفة اللاهثة وأنا أحس فمها العنيف على فمي وذراعيها السمراوين الشهوانيين يطوقان ذراعي : « لن أخطئ فآخذ الأمر على أنه نهم وبطنة أو انغماس في الذات ، إننا أنضج من ذلك ، إن الأمر في بساطة أنه يوجد لدى كل منا ما يتعلمه من الآخر . ما هو هذا الشيء ؟ » .

ما هو هذا الشيء ؟ « وهل هذا هو السبيل إليه ؟ » . تذكرت نفسي أسألها ذلك السؤال عندما تراءى لي شبح « نسيم » الطويل وهو يكبو فوق سماء المساء .

فقـالت وتعبير من الذل متـوحش عنيد يـائس يكسو وجههـا : « لست أدري ، لست أدري » . ثم ضغطت نفسـها فـوقي كما يضغط الإنسان جرحًا أصـابه . كانت تبـدو وكأنها تود أن تمحو كل تفكير فيَّ ، ومع ذلك فقـد رأيت صـورة من صـور النهـاية المؤلمة في مغزى الرعشـة المتكسرة لكل قبلة من قبلاتها ــ كانت كالماء البـارد يصب على مرض أصاب الجسد . كـم عرفتها الآن معرفـة جيدة كابنة للمدينة التي قضت بأن تكون نساؤها شهوانيات في الألم لا في اللذة ، لقد كتب عليهن أن يسعين لاقتناص أقل مما يطمحن في لقياه .

نهضت « جوستين » وسارت بعيدًا أسفل الشاطئ الطويل المنحني وعبرت البرك البركانيـة في بطء وقد أحنت رأسهـا ، وفكرت في وجـه « نسيم » الوسيم وهو يبتسم لها في كل مرآة في الحجرة . وانبثـق في رأسي كل المشهد الذي مثلناه لتونا كحلم بعيد الاحتمال . كان غريبًا أن ألحظ بطريقة موضوعية كيف كانت يداي ترتعشان وأنا أشعل السيجارة وأنهض لأتبعها .

إلا أنني وجدت وجهها الذي أدارته نحـوي عندما لحقت بها وأوقفتها وجه شيطان مريض ـ كان يجتاحهـا غضب جامح وهي تقول : « لقد اعتقدت أن ما أرغب فيه ببسـاطة هو مضاجعتك ؟ يـا إلهي ! ألم ننل كفايتنا من المضـاجعة ؟ كيف يمكن ألا تـدرك مـا أشعـر بـه ولـو لمرة ؟ كيف يمكن ذلك ؟ » . وخبطت الرمال المبتلة بقـدمها فانطبع أثرها . لم يكن الأمر مجرد شق جيـولوجي وقد انفتح في الأرض التي كنا نطأها بثقة زائدة في النفس . وإنما بدا وكأن بئر منجم مهملـة منذ زمن طـويل في أعماق مـا أعتـد به أنـا من خُلق قـد تهاوت فجأة ، وأدركت أن هذا التبادل العقيم في الأفكار والمشاعر قد شق لنا طريقًا نحو أدغال القلب الأشد كثافة ، وأننا قد غدونا عبيدًا داخل أجسادنا ، نمتلك معرفة غامضة لا يمكن أن يتـداولها أو يتسلمها ، يفسرهـا أو يفهمها ــ إلا أولئك الذين ينـدر وجودهم ، أولئك الـذين يكملوننا في الـدنيا . (وكم كانوا قلـة ، قلما يعثر المرء عليهم) . وتذكرت « جـوستين » وهي تقول : « ومع ذلك ، فلا عـلاقة لما حدث

بالجنس » . وقد أغراني هـذا القول بالضحك رغم أنني أدركت من عبارتها تلك محاولتها اليائسة كي تفصل الجسد عن الـرسالة التي يحملها ، إنني أعتقد أن هذا الشيء يحدث لمن أفلست عواطفهم عندما يقعون في الحب ، ورأيت حينئذ ما كان عليَّ أن أراه منـذ زمن طويل : أعني بالتحـديد إن صداقتنـا قد نضجت إلى الحد الذي قد غدا فيه كل منا شريكًا في امتلاك الآخر .

وأعتقد أن كلانا قد أفزعه هـذا الخاطر . لم يكن في وسعنا وقد كنا مرهقين إلا أن نجبن أمام مثل تلك العـلاقة . ولم نقل المزيـد ولكنا عدنـا نسير صامتين وقد تشـابكت منا الأيدى على طول الشـاطئ إلى حيث تركنا ملابسنـا . وبدت جوستين مـرهقة للغـاية . كـان كلانـا تواقًا لأن يفترق عـن الآخر حتى يختبر مشـاعره . ولم نتبـادل الحديث مرة أخـرى . سقنـا السيارة إلى المدينـة حيث أنـزلتني عند الـركن المعتاد قـرب شقتي ، وخبطت باب السيـارة وأنا أغلقـه ، وسارت هي دون أن توجه لي كلمة أو تلقي ناحيتي بنظرة .

كان في وسعى أن أرى بصمة قدم « جـوستين » فوق الرمل المبتل وأنا أفتح باب حجرتي . ووجـدت « ميليسا » تقرأ وإذ نظرت نحـوي إلى أعلى ، قالت تقرأ الغيب بصوت هادئ تتميـز به : « لقد حدث شيء ما ـ مـا هو هذا الشيء ؟ » . لم يكن في مقـدوري أن أخبرها فقـد كنت أنا شخصيـًا لا أدرى ما هـو هذا الشيء. وأخذت وجهها بين راحتي وفحصته في عناية وانتباه وأنا صامت ، فحصته في حزن وشغف لا أتذكر ألبتة أني قد أحسست به من قبل . وقالت : « لست أنا من تراها ، إنها واحدة أخرى » . لكن الحقيقـة هي أني كنت أراها لأول مرة . كانت «جوستين » على نحو ما هي التي مكنتني من أن أرى « ميليسا » على حقيقتها ـ وأن أدرك مدى حبي لها . وابتسمت « ميليسا » وهي تتناول سيجارة وقالت : إنك واقع في حب « جوستين » . وأجبتها بقدر مـا استطعت من إخلاص وأمانة وألم : « كلايا « ميليسا » ، إن الأمر أسوأ من ذلك » . رغم أنه لم يكن في وسعي ، حرصًا على مستقبلي أن أشرح كيف ولماذا ؟

عندما أفكر في « جوستين » أفكر في مركب صنعته يد طليقة عظيمة ، في رسم كروكي لامرأة تحررت من عبودية الذكر . لقد اقتبست بافتخار ذات مرة قولاً « لبويم » ، متحدثة عن مدينتها . « ستتجمع النسور ، حيثما توجد الجيفة » . حقًّا كانت تبدو في تلك اللحظة كالنسر . إلا أن « ميليسا » كانت لوحة حزينة مأخوذة عن منظر شتوي ، تحتويه قتامة السماء ، حوض زهور به قليل من زهرات « الجرانيم » المتفتحة ترقد منسية عند حافة نافذة مصنع للأسمنت .

إنني أتذكر في هذا الصدد فقرة جاءت في يوميات « جوستين » . رغم أنها تشير إلى أحداث تسبق تلك التي رويتها بزمن طويل , إنني أترجمها هنا لأنها تكاد تعبر تعبيرًا صادقًا عن حالة من الحب تنمو داخل الإنسان على نحو غريب، حالة كان عليّ أن أتعرف عليها كشيء يمت إلى المدينة أكثر مما يمت إلينا . إنها تكتب ، « من التفاهة بمكان ، أن نتصور الوقوع في الحب نتيجة علاقة متبادلة في الأذهان أو الأفكار ، إنه هيام روحين معًا في وقت واحد وقد ارتبطا خلال عملية نضج مستقلة . إنهما يحسان كأن شيئًا قد انفجر في صمت داخل كل منهما . وحول هذه الواقعة يدور المحب ولهانًا مشغول البال يختبر أو يختبر تجربتها الخاصة . إن امتنانها وحده وهو يوجه بعيدًا إلى واهب أخطأ قصده ، إنما يخلق عندها الوهم بأنها على علاقة بوليفها ، غير أن ذلك الأمر شيء زائف . إن المحبوب في بساطة ، امرئً شاركك التجربة في نفس اللحظة الزمنية بطريقة نرجسية ، وأن الرغبة في أن يكون المرء موجودًا إلى جوار المحبوب لا ترجع في بادئً الأمر إلى فكرة الاستحواذ عليه ، ولكن لمجرد إخضاع التجربتين للمقارنة، كالصور في مرايا مختلفة . كل هذا قد يسبق النظرة أو القبلة أو اللمسة الأولى ، يسبق الطموح أو الخيلاء أو الحسد ، يسبق أول ما يباح فيحدد نقطة التحول ـ لأن الحب ينحدر من هنا إلى عادة ، إلى استحواذ ، ومرة أخرى إلى الوحدة » . كم كان تحديدها لتلك الهبة الساحرة متميزًا وكم كان قاتمًا : وكم كان صادقًا في صدورد عن « جوستين » .

وتكتب في مكان آخر فتقول ، « إن كل رجل » . وهنا أستطيع أن أسمع نبرات صوتها المبحوحة الحزينة وهي تردد الكلمات كما كتبتها هي « إن كل رجل مصنوع من طين ومن روح ولا توجد المرأة التي في وسعها أن ترضي الاثنين معًا » .

عندما عادت « جوستين » في ذلك الأصيل إلى المنزل وجدت أن « نسيم » قد عاد إلى « الإسكندرية » على طائرة ما بعد الظهر . فأوت إلى فراشها مبكرة متذرعة بأنها تحس بأن الحمى قد انتابتها . وعندما جاء « نسيم » ليجلس إلى جوارها وليقيس درجة حرارتها قالت له شيئًا ما أصابه بالذهول ، كان شيئًا مثيرًا حتى أنه ظل يتذكره ـ فبعد فترة طويلة كرر هذا القول لي : « ليس لهذا الأمر علاقة بالطب ـ إنها رعشة بسيطة ، فالأمراض لا تعبأ بأولئك الذين يطلبون الموت » . ثم استمرت كعادتها تحيد عن اتصال كلامها « أوه يا «نسيم»، لقد كنت دائماً قوية ، فهل منعني ذلك من أن أكون محبوبة حبًّا حقيقًّا» .

* * *

لقد بدأت ، عن طريق « نسيم » ، أتجول لأول مرة ، بكل حرية ، في مجتمع «الإسكندرية » الكبير والذي يشبه بيت العنكبوت . إن دخلي المحدود لم يكن حتى ليسمح لي بارتياد النادي الليلي الذي ترقص فيه « ميليسا » . كنت أحس في أول الأمر بعض الخجل لأني كنت ضيفًا دائماً على « نسيم » ، ولكن سرعان ما غدونا أصدقاء متلازمين حتى أني كنت أذهب معهما إلى كل مكان دون أن أعبر الأمر أي اهتمام . ولقد قلبت لي « ميليسا » سترة سهرة قديمة وجدتها في إحدى حقائبي وأعادت تجديدها . لقد كنت بصحبتها عندما زرت النادى الذي تعمل به « ميليسا » لأول مرة . كان غريبًا أن أجلس بين « جوستين » و «نسيم» أراقب غلالة الضوء البيضاء تتوهج فوق « ميليسا » التي لم أعرفها تحت غطاء الطلاء الذي جعل وجهها الرقيق يبدو فظًا ، وقد فقد شاعريته في وقت مبكر .

وفزعت أيضًا من مدى ابتذال رقصها ، الذي كان سيئًا إلى أبعد الحدود ، ورغم ذلك فإن رؤيتها وهي تؤدي حركات رقيقة ، عديمة التأثير ، بذراعيها وقدميها النحيلتين (كغزال ربط إلى ساقيه) ملأتني عطفًا على مستواها العادي ، وطريقتها الحائرة التي جعلتها تبدو وكأنها تقر بعجزها ، وهي تنحني للتصفيق الفاتر . ثم حملت بعد ذلك صينية كانت تدور بها تجمع النقود للفرقة الموسيقية ، ولقد أدت هذا العمل في استحياء بائس ، قادمة نحو المنضدة حيث كنت أجلس ، وقد نكست عينيها تحت تلك الرموش الصناعية المرعبة ، وارتعشت يداها . لم يكن صديقاى يعرفان حتى اللحظة شيئًا عن علاقتنا ، إلا أنني لاحظت نظرة « جوستين » الساخرة عندما قلبت جيوبي ووجدت بعض الدريهمات فقذفت بها إلى الصينية ويداي لا يقل ارتعاشهما عن ارتعاش يدي «ميليسا » ـ كنت أحس إحساسًا عميقًا بمدى ارتباكها .

وعندما عدت فيما بعد إلى شقتي الصغيرة مسرورًا نشوانًا بعض الشيء من رقصي مع « جوستين » وجدتها ـ « ميليسا » ـ ما تزال مستيقظة تغلي كنكة ماء فوق الموقد الكهربائي وقالت : « أوه ، لماذا وضعت كل تلك النقود في الصينية ؟ إنها أجر أسبوع كامل : هل جننت ؟ ماذا سنأكل في الغد ؟» .

كان كلانا مبذرًا متلافًا بصورة لا يرجى إصلاحها في الشئون المالية ، ورغم ذلك فقد كان بوسعنا على نحو ما أن نواجه الحياة معًا بطريقة أفضل من مواجهتها كل منا بمفرده . كانت تتوقف بالليل وهي عائدة في ساعة متأخرة من النادي الليلي ، في الزقاق خارج المنزل ، فإن رأت أن الضوء ما زال مشتعلاً أطلقت صفيرًا خافتًا . وما إن أسمع أنا تلك الإشارة حتى أضع الكتاب الذي أقرأه جانبًا وأزحف في هدوء أسفل السلم وأنا أرى بعين خيالي شفتيها وقد ضمتا حول الصوت المنساب منهما ، وكأنها تنفض ما خلفته منضدة ما من بقايا هشة . كان الرجل العجوز ، في هذا الوقت الذي أتحدث عنه ، ما يزال يلاحق « ميليسا » ويلح عليها هو وعملاؤه . كنا نضم أيدينا إلى بعضها البعض

دون أن نتبادل كلمة واحدة ونهرع خلال متاهة الأزقة قرب القنصلية البولندية ، نتوقف ما بين الفينة والأخرى عند مدخل بيت مظلم لنرى إذا ما كان هناك من يقتفي أثرنا . وأخيرًا ، هناك بعيدًا حيث تنتهي الحوانيت عند زرقة السماء ، كنا نخطو إلى ليل « الإسكندرية » الأبيض كالحليب المثلج كالبحر ، نخطو نحو نجمة الصباح التي ترقد خفاقة فوق سور المنتزه الأسود المخملي والذي تلامسه الريح والأمواج .

في تلك الأيام كان لاهتمام « ميليسا » بي ورقتها المثيرة معي كل الخصائص التي يتميز بها من استعاد شبابه . لقد اعتدت أصابعها الطويلة المترددة وهي تتحرك فوق وجهي حين تعتقد أني قد نمت ، وكأنها تستعيد ذكرى السعادة التي عشناها .كان فيها بساطة ومرونة شرقية ــ شغوفة بأن تقوم على خدمتي. يا لها من طريقة تلك التي كانت تعامل بها ملابسي المتسخة ـ إنها تبدو حين تمسك بقميص قذر من قمصاني وكأنها تغمره بفيض من عنايتها . وفي الصباح كنت أجد موسى الحلاقة وقد نظف تنظيفًا جيدًا ، حتى معجون الأسنان قد وضعته فوق الفرشاة معدًّا للاستخدام . كانت عنايتها بي دافعًا يحفزني كي أعطي لحياتي شيئًا من الشكل والأسلوب الذين ربما يتماثلان مع بساطتها . لم تتحدث أبدًا عن تجاربها في الحب ، كانت تنأى عنها في ضجر وتقزز يوحيان بأنها كانت وليدة الحاجة أكثر مما تكون وليدة الرغبة . وقد مدحتني بقولها : « إنني أحس لأول مرة بأنني لا أخاف أن أكون طائشة أو حمقاء مع رجل » .

كان فقرنا أيضًا رباطًا يعمق ما بيننا . وكانت نزهاتنا في غالب الأحيان هي نفس النزهات البسيطة التي يقوم بها أهالي مدينة تقع على شاطئ البحر . كان الترام الصغير والذي يشبه الصفيحة يحملنا وهو يقعقع بعجلاته حتى شطآن « سيدى بشر » الرملية ، أو كنا نقضي شم النسيم في حدائق « النزهة » ، نجلس فوق الحشائش تحت الأشجار المورقة بأزهارها الحمراء والبنفسجية

والبيضاء ، وسط العديد من العائلات المصريـة الفقيرة . كان ثقل الزحام علينا يلهينا ويقـربنا مـن بعضنا البعض أشـد القرب . نتجـول في سعـادة ، دون أن يعرفنـا أحد ، بين المتسكعين الآخرين من أهل المدينـة على حافة القناة الـراكدة نراقب الأطفال وهم يغطسون يبحثون في الطين عن عملة ، أو نأكل قطعة بطيخ من فوق دكـة . إن أسماء محطات الترام تردد صدى شـاعرية تلك الـرحلات : «الشـاطبي » ، « كامب شـيزار » ، « لورنس » ، « مظاريطة » ، « جليمونوبولو » ، «سيدى بشر » ...

ثم هناك الجانب الآخر : عندما كنت أعود بـالليل متأخرًا لأجدها نائمة وقد رفست شبشبها الأحمر بعيدًا وغليون الحشيش الصغير موجود على المخدة إلى جوارهـا ... كنت أعرف أن واحـدة من نوبـات الاكتئاب قـد حلت بها . لم يكن هنـاك ما يستطيع المرء فعلـه معهـا في مثل تلك الحالات ، إنها تغـدو شاحبـة ، سوداوية المزاج ، مرهقة ، لا تستطيع أن تقيم نفسـها من خمولها لأيام عديدة . إنها تتحدث إلى نفسها كثيرًا ، وتقضي الساعات تستمع إلى الراديو وهي تتثاءب أو تتصفح رزمـة من مجلات السينما القـديمـة دون أدنى اهتمام . في مثل تلك الأوقات عنـدما تطبق عليها رهبة المدينـة ، كنت أغدو حائرًا أدبر وسيلـة تزيح عنها خمولها ، كـانت تـرقد تنظر بعَينيهـا بعيدًا كعـرافة ، وتـربت على وجهي وتكرر القـول مرة بعد أخـرى : « لو عرفت كيـف كنت أعيش لهجرتني ، إنني لست بـالمرأة التي تصلح لك ، أو لأى رجل . إنني متعبة ، وأنت تبـدد عطفك » . فإن احتججت بأن مـا بيني وبينهـا حب وليس نـوعـًا من العطف ، فإنها ربما قالت وقد قطبت جبينها : « إذا كان ما بيننا حبًا لكان عليك أن تقتلني بالسم ولا تتركني على هـذا الحال » . ثم تأخـذ في السعال من رئتهـا التي لم تتلف بعـد ، وأغادر أنا المكان وقد عجزت عن احتمال هذا الصوت إلى الشارع المظلم القذر في الحي العربي ، أو أزور مكتبة المجلس البريطاني لأبحث في بعض المراجع ، وهنا حيث توحـي الثقافة البريطـانية كـانطباع عـام بالشح والفـاقة وبأن المثقفين

معلقون كشريط ، هنا كان في مقدوري أن أقضي الأمسية وحيدًا . سعيدًا بتمتمة وثرثرة القراء من حولي .

ولكن كانت هناك أوقات أخرى أيضًا ، هي تلك العصاري التي تثير الضيق بحرها ـ والتي كان يسميها « بومبال » : « العصاري التي ينضح المرء فيها عرقًا لزجًا كالعسل » ـ عندما كنا نرقد سويًّا غارقين في الصمت ، نرقب الستائر الصفراء وهي تعلو على الضوء وتهبط في حركة رقيقة . إنها أنفاس الريح الهادئة خارج « مريوط » وهي التي تماثل أنفاسنا . وربما نهضت بعد ذلك ، تنظر في الساعة بعد أن تهزها وتستمع إليها بانتباه : ثم تجلس عارية إلى منضدة الزينة لتشعل سيجارة ـ وقد بدت صغيرة وجميلة للغاية وهي ترفع ذراعها النحيل تستعرض السوار الرخيص الذي أهديته إليها . « حقًّا ، إنني أنظر إلى نفسي ، غير أن ذلك يساعدني على الانشغال بك » . ثم تستدير جانبًا من هذا التأمل السريع للمرآة وتخطو في سرعة إلى حوض غسيل الأواني القبيح المنظر ، وهو في نفس الوقت حمامي الوحيد ، وتقف عند البالوعة الحديدية القذرة لتغسل نفسها بحركات سريعة ماهرة ، تشهق من برودة الماء بينما أنا راقد أستنشق دفء وحلاوة الوسادة التي كانت تريح رأسها الفاحم عليها . أرقب وجهها اليوناني الطويل الحزين ، بأنفه المدبب إلى حد معقول وعيناها الصريحتان ، والبشرة الناعمة التي لا تمنح إلا للأطفال ، والشامة على عود عنقها الرقيق . تلك هي اللحظات التي لا يمكن أن تقدر ، ولا يمكن أن تقيم في كلمات ، إنها تحيا في عصارة الذاكرة ، كمخلوقات رائعة لا نظير لها في نوعها ، اصطيدت من أعماق محيط لم يرتده أحد من قبل .

* * *

قرر « بومبال » أن يؤجر شقته هذا الصيف إلى « بورسواردن » مما ضايقني أشد الضيق . إنني لا أحب تلك الشخصية الأدبية ـ لأنها تتناقض مع أعمالها الأصيلة الرشاقة نثرًا كانت أم شعرًا . لم أكن أعرفه معرفة جيدة ، إلا

أنه كان ناجحًا كروائي من الناحية المالية ، مما كان يثير حسدي ، وخلال أعوام تمرس فيها على الحياة الاجتماعية نما لديه فهم لآداب وسلوك المجتمع التي لم أحس برغبة في أن تكون جزءًا من مؤهلاتي على أي حال من الأحوال . كان قصيرًا سمينًا أشقر يعطى انطباع الشاب الذي يرقد في أحضان أمه وهي تهدهده . ليس في وسعى أن أقول إنه لم يكن طيبًا أو رحيماً ، لأنه كان كليهما معًا - إلا أن وطأة العيش مع إنسان لا تحبه في شقة واحدة ، كانت تثير غضبي . وعلى أى حال فإن تركي للمكان كان سيثير في نفسي ضيقًا أشد ، ولهذا فقد قبلت حجرة صغيرة كالعلبة في نهاية الممر في مقابل إيجار أقل . وكنت أقوم بالاغتسال في حوض الغسيل الصغير القذر .

كان في وسع « بورسواردن » أن يلهو كما يشاء ، وكانت ضجة الضحك والسكر الصادرة من شقته تفرض عليَّ أن أظل يقظًا مرتين تقريبًا في كل أسبوع. وحدث ذات ليلة أن سمعت في ساعة متأخرة للغاية طرقة على الباب . وفي الممر كان يقف « بورسواردن » وقد بدا شاحبًا أنيقًا مضطربًا ، وإلى جواره وقف وقاد بحري بدين بشع - مثل كل الوقادين البحريين ، وكأنه قد بيع عبدًا وهو صغير . وقال « بورسواردن » لي في صوت حاد ، « لقد أخبرني « بومبال » أنك كنت طبيبًا ، فهل تأتي معي وتلقي نظرة على شخص مريض ؟ » . كنت قد أخبرت « جورج » ذات مرة عن العام الذي قضيته طالبًا في كلية الطب ، وكانت النتيجة أنه اعتبرني طبيبًا كامل الصلاحية . إنه لم يكتف بأن يوكل إلى عنايتي بكل ما يصيب مزاجه من توعك ، - والتي كانت تشتمل على مضايقات عديدة تسببها له حشرات جسدية - بل إنه تمادى ذات مرة محاولاً إقناعي بأن أجرى لحسابه عملية إجهاض من فوق منضدة حجرة الطعام . وأسرعت أخبر «بورسواردن » بأني لست طبيبًا على وجه اليقين ، ونصحته بأن يستدعي واحدًا منهم بالهاتف ، إلا أن الهاتف كان معطلاً ، ولم يكن في الإمكان إيقاظ البواب من نومه ، وهكذا وبروح الفضول الخالص من أى غرض خاص ، أكثر

من أى شيء آخـر ارتـديت معطفي الواقـي من المطر فـوق بيجـامتي واتخذت طريقي خلال الممر .

ما أن فتحت الباب حتى عشيت عيناى للحال من الضـوء الباهر والدخان . لم يبد أن الحفلة كانت من النوع المعتاد . فقد كان هناك ثلاثة أو أربعة ضيوف من طلبة البحرية العسكريين المشوهي الخلقة ، وعاهرة من حانة « جولفو » لها رائحة كـرائحة المخـالب المملحة والطـافيا . والشيء الغـريب أيضًا أنها كـانت تنحني فـوق شبح أجلس على حـافـة الكنبـة ـ الشبح الـذي أعـرف الآن فيـه «ميليسا » إلا أنها كانت تبدو حينذاك كقناع يوناني هزلي يحمل سمات كارثة ، كانت تبـدو وكأنها تهذي ، ولكن بلا صـوت ، فقد انقطع صـوتها ـ حتى أنها بدت كفيلم صامت خاص بها . كانت مـلامحها غائرة . وكان واضحًا أن المرأة العجوز قد أصيبت بالهلع ، كانت تلكمها على أذنيها وتشد شعرها ـ بينما واحد من طلبة البحرية العسكريين ينثر الماء عليها بطريقة لادربة فيها من آنية كثيفة النقوش كانت واحدة من مقتنيات « بومبال » التي يعتز بها أشد الاعتزاز والتي تحمل على جانب من جـوانبها شارة السلاح الملكي الفـرنسي . وهناك بعيدًا عن الأنظار في مكـان ما كان شخص ما يحس قـرفًا عميقًا . كان « بـورسواردن » يقف إلى جواري يمسح المشهد الذي أمامه ، وقد بدا عليه أنه خجل من نفسه .

كانت «ميليسـا » تنضح بالعرق وقد التصق شعـرها بصدغيها ، وعنـدما حطمنـا دائرة معذبيهـا عادت تغـرق مرة أخـرى في صمت مرتعش خـال من التعبير ، وقد نقشت على وجهها صرخة لا آخـر لها . كان من الحكمة أن أحاول معرفة المكـان الذي كانت فيه وماذا أكلت أو شربت ، إلا أن نظـرة إلى المجموعة الثرثارة المترنحة حولي كانت توضح أنه من المستحيل أن يخرج المرء منهم بأي شيء له معني . ومع ذلك فقد أمسكت بأقـرب صبي يقف إلى جواري وأخذت في استجوابه عندما بدأت حيزبون « جولفو » في الصراخ في صوت أجش ممضوغ

« لقد أعطاها ذبانًا هنديًا » [1]. كانت هي نفسها في حالة هستيرية ، لا يمنعها إلا وقاد بحرى كان يقيدها من الخلف . وانطلقت كالفأر من ذراعي آسرها وأمسكت بحقيبة يدها ونزلت بها على رأس أحد البحارة في قرقعة مدوية . ويبدو أن الحقيبة كانت ملآنة بالمسامير ، لأن البحار سقط إلى أسفل وقد أصابه الدوار ثم عاد ينهض إلى أعلى وفي شعره بقايا من آنية فخارية محطمة .

ثم بدأت تشهق بصوت خشن وتنادي البوليس ، فاندفع نحوها ثلاثة من البحارة وقد شرعوا أصابعهم الفظة ، ينصحونها ، يحذرونها ، يتضرعون إليها أن تكف . لم يكن هناك من يرغب في الصدام مع البوليس البحري ، إلا أن أحدًا لم يكن يحب أو يرغب في تذوق لطمة من تلك الحقيبة التي تشبه الفخار ، الحقيبة المنتفخة بزجاجات البلادونا وأدوات منع الحمل . كانت تتراجع في حذر خطوة خطوة (في تلك الأثناء أخذت نبض « ميليسا » ، وشققت لها بلوزتها واستمعت إلى قلبها . وبدأت أنزعج عليها ، وبصدق ، من أجل « بورسواردن » الذي كان قد اتخذ لنفسه موقعًا إستراتيجيًا خلف أحد المقاعد وأخذ يومئ لكل شخص إيماءة بليغة) . وبدأ الهزل ، فقد حاصر البحارة الفتاة المزمجرة ـ إلا أنهم حاصروها لسوء حظهم عند الدولاب « الشيراتوني » المزخرف والذي يحوى مجموعة « بومبال » الفخارية التي يعتز بها أشد الاعتزاز . ومدت يديها خلفها تبحث عن شيء تلجأ إليه لحمايتها فالتقت بمدد من الذخيرة لا يفني ، فألقت بحقيبة يدها وهي تطلق صرخة خشنة ظافرة وأخذت في إلقاء الأواني الصينية في اهتمام ودقة بالغين ، لم أر لهما نظيرًا من قبل . وامتلأ الجو بشظايا القوارير المصرية واليونانية ، و « الأوشابتي » و « السيفر » . ولم يمض وقت طويل حتى جاءت الضربات المألوفة المخيفة للأحذية ذات المسامير الغليظة الرؤوس على عتبة الباب ، وبدأت الأنوار تضاء حولنا في كل البناية . وللحقيقة

---

(١) مادة مثيرة للأعصاب .

غـدا انزعـاج « بوزرسـواردن » ملحـوظًا للغـاية . إذ لم يكن في وسعـه احتمال الفضيحـة التي يمكن أن تثيرها الصحـافـة المصرية عن شغب كهـذا الشغب، بـاعتباره أحـد سكـان المنزل بـالإضـافة إلى كـونـه رجلاً مشهـورًا . وأحس بالارتياح عندما أشرت إليـه وأخذت في لف جسد « ميليسا » التي لا تكاد تحس شيئًا في السجادة الناعمة المصنوعة في « بخاري » . وحملناها معًا نترنح بها عبر الممر إلى العزلة المباركة في حجرتي التي تشبه الصندوق ، حيث فردنا السجادة، مثلما فعلت « كليوباترة » ووضعناها في الفراش .

وتذكرت وجود طبيب يوناني عجـوز ، إنه يقيم على مقربة في هذا الشارع ، ولم يمض وقت طويل حتى أحضرتـه إلى أعلى السلم المظلم ، يتعثر ويلعن بلغة سوقية ، ويسقط السماعات وأدوات إخراج البول على طول الطريق . وأعلن أن « ميليسـا » مريضـة للغايـة ، إلا أن تشـخيصه كـان غامضـًا ويشمل كل شيء حسب العـرف السائد في المدينـة . فقد قـال : « إنها مـريضة بكل شيء ، سـوء تغذيـة، هيستيريا ، كحـول ، حشيش ، درن ، ذبان هنـدي .... إختر بنفسك ما تشاء » . لقـد وضع يده في جيبه وأخرجهـا ملأنة بكل الأمـراض المتصورة ثم قدمهـا لنا لنختار منهـا . إلا أنه كـان عمليًّا أيضـًا . واقترح أن يعـد لها في اليوم التالي سريرًا في المستشفي اليوناني . على ألا تتحرك حتى يتم ذلك .

وأمضيت تلك الليلة والليلة التالية لها فوق الكنبة أسفل السرير وكنت أعهد بها إلى عناية « حميد » الأعور أرق البرابرة ، عندما أخرج للعمل . كانت مريضة للغايـة خلال الإثني عشرة سـاعة الأولى ، تُهذي في بعض الأحيـان ، وتعاني في أحيان أخرى نـوبات مؤلمة لكثرة ما أخافـوها . واتفقنا معًا أن نعاملهـا معاملة رقيقة حازمة حتى نمنحها القوة اللازمة للتغلب على أسوأ الأوضـاع . وفي عصر اليـوم التالي كـانت قد تحسنـت حالتهـا إلى الحد الذي جعلهـا تتكلم في همس . وأعلن الطبيب اليوناني أنه راض بما احرزته من تقدم . وسـألها من أين جاءت ، فلاح على وجههـا الفزع وهي تجيب « أزمير » . إلا أنها لم تذكـر اسم أو عنوان

والديها . وعندما ألح عليها أدارت وجهها نحو الحائط وفاضت دموع الإرهاق في بطء من عينيها . ورفع الطبيب راحتها وفحص الأصبع الذي يوجد به خاتم الزواج ، ثم قال لي بطريقة بعيدة عن الأسلوب الطبى وهو يشير إلى غياب الخاتم : « هذا هو السبب الذي من أجله تبرأت منها عائلتها وطردتها . إنها أمور تحدث كثيرًا في تلك الأيام .... » وهز رأسه الأشعث راثيـًا لها . ولم تقل «ميليسا» شيئـًا ، إلا أنها ، عندما أحضرت النقالة وأعدت المحفة لحملها ، شكرتني في حرارة لأني ساعدتها ، وضغطت راحة « حميد » إلى وجنتها ـ لقد فاجأتني قائلة بمروءة لم أتعودها في حياتي : « إذا لم تكن لك فتاة عندما أغادر المستشفي ، ففكر فيَّ ، وسأحضر لك إن دعوتني » . إنني لا أعرف كيف أنقل هذا النقاء السامي من اليونانية إلى الإنجليزية .

وهكذا مر شهر أو أكثر ولم أرها ، والحقيقة أنني لم أفكر فيها ، كان لدي العديد من المشغوليات في ذلك الوقت ، حتى كان ذات أصيل لم يكن لدى فيه أية مشغولية ، بينما أنا جالس إلى نافذتي أرقب المدينة وهي تتمطى من نومها رأيت « ميليسا » أخرى تسير في الطريق ثم تميل إلى مدخل المنزل الظليل . وطرقت بابي ثم دخلت وذراعاها مليئان بالورود ، وللحال وجدت نفسي منفصلاً عن تلك الليلة المنسية بقرون عديدة . كان فيها شيء من ذلك الحياء الذي رأيته يلازمها مؤخرًا بينما كانت تجمع المال للفرقة الموسيقية في النادي الليلي ، كانت تبدو كتمثال للكبرياء وقد تدلت رأسه .

حل بي نوع من التأدب يرهق الأعصاب ، فقدمت لها كرسيـًّا جلست على حافته . كانت الزهور من أجلي ، إلا أنه لم يكن لديها الشجاعة الكافية لتلقي بتلك الباقة بين ذراعي ، وكان في وسعي أن أراها تحملق حولها في حيرة بحثًا عن آنية يمكن أن تضع الزهور فيها . لم يكن هناك غير حوض غسيل خزفي ملئ بالبطاطس نصف المقشرة وبدأت أتمنى لو لم تحضر . كنت أود لو قدمت لها كوبـًا من الشاى إلا أن السخان الكهربي كان مكسورًا ، ولم أكن أملك نقودًا

حتى أصطحبهـا إلى مكان بـالخارج ، كنت في ذلك الوقت أنـزلق في الدين أكثـر فأكثر من ذي قبـل . كما أني قد أرسلت « حميد » خـارج المنزل ليكـوي بدلتي الصيفية التي لا أملك سواها وكنت مرتديًا جلبـابًا ممزقًا . أما من ناحيتها هي فقد بدت رائعة ، أنيقة بدرجة مخيفة ، ترتدي فستانًا صيفيًّا جديدًا عليه نقوش أوراق عنب مجعدة ، وقبعة من القش تشبه جـرسًا ذهبيًّا كبيرًا . وأخذت أبتهل في حرارة أن يعود « حميد » فيخلق بعـودته شيئاً من التغيير . كنت أبغي تقديم سيجارة لها إلا أن علبة سجـائري كانت فارغة ، واضطـررت إلى قبول واحدة منهـا من علبة سجـائرهـا المزركشـة والتي تحملها دائماً ـــ ولقـد دخنت تلك السيجـارة بطريقـة أملت أن أبـدو فيها رابط الجأش وأخبرتها أنني قـد قبلت وظيفة جديـدة قرب « سيدى جابر » ، وأن هـذا يعني بعض المزيد من النقود . وقالت إنها ستعود إلى عملها وأن العقد المبرم معها قد جدد مرة أخرى : إلا أنهم سيمنحونها قدرًا أقل من المال . ثم قالت بعـد بضع دقائق من مثل هذا الحديث إنها مضطـرة لتركي الآن إذ أنها مرتبطـة بمـوعد لتنـاول الشاى ، فقـدتها إلى بسطة السلم ورجوتها أن تحضر مرة أخـرى متى شاءت . فشكرتني وهـي ما زالت ممسكة بالزهور ، خجلة للغاية من أن تلقيها علي ، وهبطت السلم في بطء . وجلست على السرير بعـد أن غادرت البيت ، وأطلقت كل الشتائم البـذيئة التي تذكرتها بأربع لغات ـ رغم أنه لم يكن واضحًا لي ، من هو الذي أخاطبه . وجاء « حميد » في ذلك الوقت يجر أقدامه وكنت ما أزال في ثورة الغضب فصببت عليه جام غضبي ، وأفزعه تصرفي هذا بعض الشيء : فقـد مضى زمن طويل منذ ثار غضبي عليه ، واعتـزل في حجرة الغسيل يتمتم ويهز رأسه يستنجـد بالأرواح أن تمد له يد المساعدة .

واستـدنت بعض النقود مـن « بورسـواردن » بعـد أن ارتديت مـلابسي ، ورأيت « ميليسا » مـرة أخرى بينما كنت في طـريقي لأضع خطابـًا في صندوق البريد . كانت جـالسة بمفردها في ركن المقهي وقد أسنـدت رأسـها إلى راحتيها ،

وقبعتها وحقيبتها تـرقدان إلى جوارها بينما كـانت تحملق هي في فنجانها مما يوحي بأنها تقضي وقتـًا مملاً . واندفعت أدخل المكان ثم جلست إلى جـوارها . وقلت لها : إنني قـد أتيت لأعتذر عن سـوء استقبالي لها ، ولكن .... ثم أخـذت أصف الأحوال التي حلت بي دون أن أتـرك شيئًا . السخـان الكهربي المحطم ، غياب « حميـد » ، وبدلتي الصيفيـة . وبدت لي المصـائب التي أحاطـت بي وأنا أعددها مصـائب هزيلة إلى حد ما . فغيرت الزاوية التي كنت أعرض مشاكلي من خـلالها وأخـذت أرويها في سخط حـزين أغـراهـا بضحكـة كـانت من أكثـر الضحكـات التي سمعتها مـرحًا . والحق يقـال أنى قـد بالغت عنـد الحديث في موضوع ديوني ، رغم أن الحقيقة التي لا جـدال فيها أن « بورسواردن » كان على استعداد دائم لأن يقـرضني بعض المبالغ الصغيرة دون أى تـردد منذ تلك الليلة التي حدث فيها الشجار . وحتى أغطي الأمر كله ، قلت لها : إنها قد جاءت في وقت كدت أبرأ فيه من عدوى بسيطـة ولكنها مثيرة لأحد الأمراض السرية ـ ثمرة اهتمام « بومبال » بي ـ وأنها دون شك قد أصابتني من إحدى السوريات اللواتي تركهن « بومبال » خلفه بعد تفكير طويل . لقد كانت هذه القصة أكذوبة ولكني كنت مدفوعًا إلى روايتها رغماً عني . وقلت لها إنني كنت فزعًا من فكرة مضاجعـة أى امرأة مـرة أخرى قبل أن أشفى تمامًا ، وعنـدئذ أخرجت يـدها ووضعتها فوق يـدي وهـي تضحك وقد تجعد أنفها : كـانت تضحك في صفاء ، وابتهاج ودون تكلف ، حتى أنني قررت أن أحبها في هذا الزمان والمكان .

وسرنـا في ذلك الأصيل نتسكع على شـاطئ البحر وقـد تشـابكت ذراعانـا وامتلأت أحاديثنا بأنقاض حيـاتنا التي عشناها دون تبصر ودون تصميم . لم يكن هناك أى شيء مشترك في ميـولنا . كانت شخصيتانا واستعـدادات كل منا نقيض الآخر ، ورغم هذا فقد أحسسنا في السهولة السحرية التي تصادقنا بها بشيء يبعث الأمل في نفـوسنا . وأحب ، أيضـًا ، أن أتـذكر تلك القبلـة الأولى إلى جوار البحـر ، والريـح تطير خصلة من شعـرها على كل وجنـة بيضـاء ـــ قبلة

قطعتها ضحكة لم يكن هناك مفر منهـا عندما تذكرت روايتي للمحن التي كنت أعانيهـا . لقد كانت رمـزًا للعاطفة التي تمتعنا بها ، لـروحها المرحة ، لـرقتها : رمزًا لما تتمتع به من بر وإحسان .

* * *

كـان هناك مـوضـوعان من العبـث أن يطرقهما المرء مع « جـوستين » :ــ عمرها ، ومنبتها . لم يكن هناك من يعرف ـ وربما كان « نسيم » نفسه أيضًا لا يعرف ـــ كل شيء عنها بصـورة مؤكدة . حتى « منمجيـان » علام المدينـة بدا عاجـزًا في هذه المرة ، رغم أنه على معـرفة تامـة بآخر غـرام لها . ومع ذلك فقد ضاقت عيناه البنفسجيتان وهو يتحدث عنها ، وقال في تردد إنها قد جاءت من حي «العطارين » المزدحم ، وإنها قد ولدت من أسرة يهودية فقيرة هاجرت منذ ذلك الحين إلى « سـالونيكـا » . إن يوميات « جـوستين » لا تساعـد كثيرًا حيث تفتقـر إلى الأدلة ـــ الأسماء ، التـواريخ والأمـاكن ـ وتتكـون في معظمهـا من شطحات خيـال طائشـة تفصل فيما بينها نوادر مـرة وخطوط حـادة ترسم أنـاسـًا قـد وضعت شخصيتهم خلف قنـاع على صـورة حـرف من الحروف الأبجديـة . إن الفرنسية التي تكتب بها ليست صحيحـة تمام الصحة ، إلا أنها مليئة بالحيـاة ، وذات نكهة خاصة ، تحمل ميزة هذا الصـوت المبحوح الذي لا نظير له . انظر مـاذا تكتب : «كليًا » تتكلم عن طفولتها : إننـي أفكر في طفولتـي ، أفكر فيها بانفعـال عاطفي ؛ أفكر في عصري ... أولاً : اللطمات في الحظيرة خلف الإستاد ، دكان الساعاتي . إنني أرى نفسي وقد استغرقني تركيز عاطفي أرقب وجه عـاشق نـائم كما كنت أراه في غالب الأحيـان منحنيًا فـوق ساعـة حائط مكسورة والضـوء الحاد ينساب فـوقه في صمت . اللطمات واللعنـات ونقوش الـراحـات الـزرق وقـد رسمـت في كل مكـان على الحوائط الطينيـة الحمـراء (كضربات الضمير) ، والأصابع مشدودة لتحمينا من عين الشرير . ونمونا مع هذه اللطمات ، بعيـون فزعـة ورؤوس أصابها الصـداع . منزل أرضيتـه من

تراب ملئ بـالجرذان معتم بتلك الفتائل الطـافية فوق الـزيت ، المرابي العجوز سكـران يشخـر ، يستنشق مع كل نفس يأخـذه خليطـًا من روائح التراب ، والبراز، وإفرازات الخفافيش ، الميازيب التي تسدها أوراق الشجر وكسر الخبز وقد نقعت في البول ، أكاليل من الياسمين صفراء فاقعة البهرجة . ثم أضف إلى ذلك تلك الصرخات التي تنبعث في الليل من خلف نوافذ الآخرين في ذلك الشارع الملتوي : البك يضرب نساءه لعجزه الجنسي ، بائعة العشب العجوز تبيع نفسها كل ليلة فوق الأرض المنبسطة بين المنازل المتهدمة ـ أنين حزين غامض . الدبيب الرخو لـلأقدام السوداء العارية ، وهي تسير ليـلاً في الشوارع التي جف فيها الطين . حجرتنا متخمة بـالظلال والمرض ، ونعيش نحن الأوربيين في تنافر مع تلك الحالة الصحيـة الحيوانيـة المخيفة « للسـود » من حولنـا . وطء البوابين لنسائهـم يهز المنزل كشجـرة تمر ـ نمور سـوداء لها أسنان لامعـة . وفي كل مكـان، البراقع ، والصراخ ، القهقهـات المجنـونـة تحت أشجـار الفلفل ، الخبل والمصابون بالجذام . مثل تلك الأشياء هي التي يـراها الأطفال ويختزنونها في ذاكرتهم لتكتسب حياتهم منـاعة أو لتغدو بلا مـرشد أو دليل . لقد انهار جمل من الإعياء في الشارع خارج المنزل ، إنـه ثقيل حتى يصعب نقله إلى السلخانة ، ولـذا فقـد حضر رجلان ومـع كل منهما بلطة ، إنهما يقطعـانـه الآن هنـاك في الشارع . وهـو لا يزال حيًّا . كـانا يقطعان اللحم الأبيض ـــ والمخلوق المسكين يبـدو متألمًا أشد الألم . مترفعـًا أشـد الترفع ، حـائرًا أشد الحيرة وقـد قطعت رجلاه . وفي النهـاية ما تزال الـرأس حية هناك ، والعينان مفتـوحتين تنظران فيما حولهما . لا صرخة احتجـاج واحدة ، ولا أية مقاومـة . الحيوان مستسلم كشجرة تمر . إلا أن طين الشـارع ظل لأيام بعد ذلك مشربـًا بدمائه وأقـدامنا العارية قد صبغها البلل الدامي .

النقود تتسـاقط من أقداح الشحاذين المصنوعـة من الصفيح . شذرات من جميع اللغـات ـ الأرمنيـة ، اليونانيـة ، الأمهريـة ، المراكشية ، يهود مـن آسيا

الصغرى ، والبحر الأسود ، جورجيا : أمهات ولدن في مستعمرات يونانية على البحر الأسود ، مجتمعات ممزقة كفروع الأشجار التي ينقصها الجذع ، تحلم بجنة « عدن » . تلك هي الأحياء الفقيرة في المدينة البيضاء ، إنها لا تحمل أي شبه لتلك الشوارع الجميلة التي أقامها ونسقها الأجانب حيث يجلس السماسرة يرشفون صحف الصباح ، حتى الشاطئ لا وجود له بالنسبة لنا هنا . وفي الشتاء يندر أحيانًا أن تسمع صوت الصفارة الراعدة ـ ولكنه يبدو وكأنه آت من بلد آخر . آه : يا لتعاسة الموانئ والأسماء التي تسحر المرء عندما لا يبرح مكانه . إنها كالموت ــ موت التفس المنبعث مع كل ترديد لكلمة «الإسكندرية ، الإسكندرية » .

* * *

شارع « باب المندب » ، شارع « أبو الدردار » ، « مينا البصل » (الشوارع زلقة بما يلفظه سوق القطن من بقايا) « النزهة » (حديقة الزهور ، ذكرى بعض القبلات) أو محطات الأتوبيس بأسمائها الغريبة مثل « سابا باشا » ، «مظلوم » ، « زيزينيا » ، « باكوس » ، « شوتز » ، « جانا كليس » . إن المدينة تصبح عالمًا عندما يحب المرء أحد سكانها .

* * *

كان من نتائج ترددي على البيت الكبير أن غدوت مرموقًا أحظى بانتباه هؤلاء الذين يعتبرون « نسيم » من ذوى النفوذ ، وافترضوا أنه ما دام يقضي وقته معي فلا بد وأن أكون أنا أيضًا ، إما غنيًا أو لامعًا بطريقة لم يضعوا أيديهم عليها بعد . فقد جاء « بومبال » إلى غرفتي عصر أحد الأيام بينما كنت نائماً وجلس على سريري ثم قال « خذ بالك » لقد أصبحت مرموقًا . إن عشيق الزوجة في إطار نمط الحياة « بالإسكندرية » يعتبر بالطبع شخصية عادية تمامًا . إلا أن خروجك الكثير مع هذين الزوجين سيجعل الأمور من الناحية الاجتماعية عبئًا ثقيلاً عليك . أترى ! » .

وناولني قطعة من الورق المقوى كبيرة زاهية ، مطبوع عليها دعوة إلى حفل كوكتيل بالقنصلية الفرنسية . وقرأتها دون أن أفهمها . وقال « بومبال » : « إنه تصرف أخرق للغاية ، فرئيسي ، القنصل العام يكن « لجوستين » عاطفة قوية . ولقد بـاءت بالفشل الذريع كل محاولاته للقـائها . وقد أخبره أحد جـواسيسه بأن لك دالة في محيط الأسرة ، وأنك في الحقيقة .... أنا أعرف ، أنا أعرف . ولكنه يأمل أن يحل محلك في أمورها العـاطفية » . وضحك في غم . ولم يبد لي أن هناك ما هو أكثر مجافـاة للعقل من هذا الكلام في ذاك الوقت . وقلت ، « أخبر القنصل العام .... » وتفوهت بملاحظة عنيفة أو اثنتين جعـلاً « بومبال » يطقطق لسانه لائما ويهز رأسه . وقال : « كان بودي أن أفعل ذلك . ولكن يوجد يا عزيزي بين الدبلوماسيين ، نظام للنقد كذلك النظام المعمول به بين الدجاج ، كما أنه سندي فيما يختص بترقيتي المحدودة » .

واستدار رافعًا جسده ثم أخرج من جيبه أقصوصه صفراء الغلاف متآكلة الأطـراف ووضعها فـوق ركبتي وقـال : هاك شيء يثير اهتمامـك ، لقد كـانت «جوستين » متزوجة عندما كانت صغيرة من رجل « ألباني » الأصل « فرنسي » الموطن . وكان هذا الـرجل كاتبًا . وهذا الكتاب عنها ، عن مـاضيها الذي انتهى معه ، وهـو مكتوب بطريقـة مهذبة » . وقلبت الـرواية بين يدي . كـان عنوانها «عادات » كتبهـا شـخص يدعى « يعقوب الأرناؤوطى » . وقـد أشير في صفحة الغلاف إلى أن الرواية قد أعيد طبعها مرات عديدة في أوائل الثلاثينيات . وسألت « بـومبال » : « كيف تـوصلت إلى هـذا ؟ » وغمـز « جورج » بعين كبيرة ثقيلـة الجفن كعيون الزواحف وهو يقول : « لقد كنا نتحرى الأمر . إن القنصل عاجز عن التفكير في أي شيء غير « جـوستين » ، وقـد انشغل جميع الموظفين طـوال أسابيع في جمع المعلومات عنها . تحيا « فرنسا » .

ما إن ذهب « بومبال » حتى أخـذت في تقليب صفحات كتاب « عادات » وما تزال في عيني بقية من نوم . والحقيقة أن الروايـة كانت مكتوبة بصيغة المتكلم

بطريقة جيدة للغاية . كانت عبارة عن يوميات عن الحياة في « الإسكندرية » في منتصف الثلاثينيات . إن كاتب اليوميات ملتزم بالبحث عن رواية اقترح هو كتابتها ـ وهو يعرض حياته في « الإسكندرية » يومًا بيوم بطريقة دقيقة ثاقبة . إلا أن ما أسرني في هذه الرواية هو صورة يهودية شابة يلتقى بها ويتزوجها : ويأخذها إلى أوربا : ويطلقها . إن تعثر هذه الزيجة عند عودتهم إلى « مصر » قد تم بذكاء وحشي يكشف عن أبعاد شخصية « كلوديا » زوجته . وما أثار دهشتي وانتباهي أن أرى في تلك الزوجة رسماً كروكياً « لجوستين » التي تعرفت عليها ، دون أن أدري . إن الصورة على وجه اليقين صورة « جوستين » أصغر سنًا وأكثر تشتتًا مما أعرفها . إلا أن المرء لا يخطئ في إدراك هذا التصوير . والحقيقة أنني كلما قرأت الكتاب ، وكثيرًا ما كان يحدث ذلك ، كنت أستبدل الاسم باسمها . فكان يتطابق بطريقة مذهلة وكأنه الحقيقة .

لقد التقيا حيث رأيتها أول مرة ، في مرآة ، في المدخل الكئيب لفندق «سيسيل» ، « في مدخل هذا الفندق المتهالك تنشق أشجار النخيل إلى أجزاء وتنعكس صورة سعفها الساكن في المرايا المذهبة الإطارات ـ الأثرياء وحدهم هم الذين يستطيعون الإقامة الدائمة في هذا المكان ـ هؤلاء الذين يعيشون على معاش التقاعد الذي يضمن لهم طمأنينة آثمة تحيط بهم . إنني أبحث عن مأوى أرخص من ذلك . كانت تجلس في وقار في الردهة هذا المساء ، حلقة صغيرة من السوريين ، كانوا ثقلاء في بذاتهم السوداء ، شاحبين في طرابيشهم القرمزية ، وقد ذهبت نساؤهم اللواتي يشبهن أفراس النهر واللائى لهن شوارب خفيفة إلى فراشهن وهن يحركن حليهن فيصدر عنها صوت جميل ، وجوه الرجال الفضولية البيضاوية الناعمة وأصواتهم الأنثوية مشغولة بعلب المجوهرات ، فإن كلاً من هؤلاء السماسرة يحمل معه أنفس مجوهراته في علبة خاصة ، وتحول الحديث بعد العشاء إلى حلى الذكور . إن هذا هو كل ما تبقى لسكان البحر المتوسط من موضوعات للحديث ، المصلحة الذاتية ، نرجسية انحدرت

من الإرهاق الجنسي الذي يعبر عن نفسه في رمز الامتلاك والاستحواذ : حتى إنك إن قابلت رجلاً عرفت للتوكم يساوي هذا الرجل ، وإذا قابلت زوجته فستعلم عن طريق نفس الهمسات اللاهثة كم كان صداقها . إنهم يهمهمون فوق الجواهر كالخصيان ، يقلبونها في الضوء هنا وهناك حتى يثمنونها . وتلمع أسنانهم البيضاء في ابتسامات نسائية صغيرة . ويتنهدون . ويقدم القهوة لهم ساق ذو وجه أبنوسي لامع يلبس جلباباً أبيض . وتفتح علبة ذات غطاء فضي من سجائر ناصعة البياض (كأفخاذ المصريات) ، وفي كل سيجارة قطع صغيرة من الحشيش . قليل من « السطل » قبل النوم . كنت أفكر في الفتاة التي رأيتها بالأمس في المرآة ، سمار على بياض رخامي ـ عاجي : شعر أسود أملس : عينان عميقتان تتأوهان تغوص نظرات المرء فيهما لأنهما عصبيتان ، غريبتان ، تنطقان بالفضول الجنسي . إنها تتظاهر بأنها يونانية ، ولكن لابد أنها يهودية . فلا يشم رائحة اليهودي إلا يهودي مثله ، لم يكن أي منا يملك الشجاعة حتى يعترف بأصله الحقيقي . لقد قلت لها إنني فرنسي . ولكن سينكشف كل منا أمام الآخر إن عاجلاً أو آجلاً .

« إن نساء الجاليات الأجنبية هنا أكثر جمالاً من أي مكان آخر . يسيطر عليهن الخوف والقلق ، يعشن في وهم أنهن قد غرقن في محيط من السواد يحيط بهن من كل ناحية . لقد بنيت هذه المدينة كالسد ليمنع طوفان الظلمة الأفريقية ، إلا أن « السود » بأقدامهم الناعمة قد بدأوا يتسربون إلى الأحياء الأوربية . إن نوعًا من اللقاء العنصري يجري في هذا المكان . يجب على المرء حتى يسعد هنا أن يكون امرأة مصرية مسلمة ، مشتهاة ، ناعمة ، لينة نقية ، متزينة طوال الوقت ، إن أجسادهن الشمعية تتحول في ضوء النفط الساطع إلى اللون الأصفر الليموني أو الأخضر في لون البطيخ ، أجسادهن صلبة كالصناديق ، نهودهن متماسكة في لون التفاح الأخضر ـــ برودة الزواحف في لحمهن الخارجي بما فيه من نتوءات أصابع اليدين والقدمين العظيمة ، أحاسيسهن

مـدفونـة فيما يسبق الـوجدان . لا يمنحن في الحب شيئـًا من ذواتهن حيث لا ذوات لهن يعطونها ، ولكنهن يحطن بك في انكسار معـذب ، عذاب رغبة جامحة مكبوتة هي نقيض الرقة والمتعة . لقد حبسن منذ قرون وحتى الآن مع الثيران في حظيرة عـذاري محجبات . يتغـذين في الظـلام ، المربات والـدهـون الذكيـة الرائحة ، حتى غُـدون دنان متعة تتدحرج على أرجل زرقـاء العروق بيضاء في لون الورق .

« وتتغير رائحة اللحم البشرى عندمـا يجوس المرء خلال الحى المصري ـ إذ تفوح رائحة الراتنج ، خشب الصندل ، ملح البارود ، التوابل والأسماك . كانت لا تسمح لي بأن أصطحبها إلى منزلها ـ لأنها لاشك كانت خجلة من بيتها في هذه الأماكن المزدحمة القذرة . ورغم ذلك فقد كانت تتحدث عن أيام طفولتها حديثًا رائعًا . لقـد دونت بعض الملاحظات : عندمـا كانت تعود إلى منـزلها كانت تجد أباها يكسر الجوز على المنضدة بمطـرقة في ضوء مصباح زيتي . إنني أستطيع أن أراه بعين خيـالي . إنه ليس يـونانيـًا ولكنه يهوديّ من « أوديسـًا » يرتـدي طاقية من الفرو ، وله خصلات شعـر مدهونة بالشحم . كذلك أستطيع أن أرى بعين خيالي قبلة الهمجي لها ، وهو يميل عليهـا يأخذ شفتها السفلي بين أسنانه الجميلة غير المنتظمة ، وقضيبه الهائل المتوتر كالحمم السوداء اللامعة في عصر الجليد . لقد تركنا هنا أوروبا خلفنا وأخذنا نتقدم نحو آماد روحية جديدة . لقد سلمتني نفسها باحتقار حتى أني ولأول مرة في حياتي دهشت من القلق الذي تعانيـه ، كانت تبدو وكأنها يائسـة ، متخمة بالنـوائب . ومع ذلك فلنسوة تلك الجاليات الضائعة شجاعة يـائسة تختلف تمام الاختلاف عن شجاعتنا نحن . لقد ارتـدن عالم الجسد إلى درجـة تجعلهن غريبـات عنا غرابـة حقيقية . كيف يتسنى لي أن أكتب عن كل هــذا ؟ هل ستحضر أم أنها قد اختفت من حيـاتي إلى الأبد ؟ إن السـوريين يتوجهـون إلى فراشهم وهـم يتبادلـون نداءات قصيرة ، كالطيور المهاجرة » .

وتعود . ويتحدثان فيكتب قائلاً :

« أعتقد أني قد اكتشفت تحت السفسطة الريفية الظاهرية والصرامة الذهنية نوعًا من عدم الخبرة بالمجتمع لا بالعالم . لقد أدركت أنني أثرت انتباهها كأجنبي يتمتع بأخلاق طيبة ، فقد سلطت عليّ نظرة خجلة حكيمة ، كنظرة البومة ، من تينك العينين الواسعتين البنيتين بمقلتيهما الزرقاوين زرقة قاتمة وأهدابهما الطويلة التي تبرز روعة إنساني العينين بلمعانهما وصراحتهما » .

من الممكن أن يتصور المرء القلق المؤلم واللهفة التي قرأت بها لأول مرة هذا العرض الخاص بعلاقة مليئة بالألم الشخصي والحيرة بعد أن قرأته مرارًا وتكرارًا حتى أكاد أحفظه عن ظهر قلب . ثم يكتب في مكان آخر يلي هذا المكان بكثير : « لقد كان حبنا كالمنطق الذي يفتقد المقدمات الصحيحة . أعني كان يفتقد إلى الباعث . كان نوعـًا من التملك الذهني الذي أوقع كلانا في حبائله وجعلنا نبحر راغمين مع التيار فوق مياه « مريوط » الضحلة الفاترة كالضفادع التي تضع بيضها ، فريسة لغرائز قائمة على الاسترخاء والحر ... كلا . ليس هذا هو السبيل لعرض الأمر .إنه ليس السبيل العادل عدلاً تامًّا . دعني أحاول مرة أخرى رسم صورة كروكية « لكلوديا » مستخدمـًا تلك الأدوات المهتزة القاصرة . من أين نبدأ ؟

حسنًا : لقد كان ذكاؤها عونًا كبيرًا لها في مواجهة المواقف خلال عشرين عامًا من الحياة الضالة المرتبكة . لم أكن أعرف عن منابتها إلا القليل ، إلا أنها كانت فقيرة . وكان الأثر الذي تركته في نفسي هو صورة امرأة مشغولة بتقديم سلسلة من المناظر الكاريكاتورية الوحشية عن نفسها ـ إلا أن هذا التصرف كان أمرًا عاديًّا يصدر عن أغلب الذين يعيشون في وحدة ، والذين يشعرون بأن ذواتهم الحقيقية لن تجد لها صدى عند الآخرين . وكانت السرعة التي تنتقل بها من جو إلى جو ، ومن رجل إلى رجل ، ومن مكان إلى آخر ، ومن موعد إلى

موعـد ، تصيب الإنسان بالـدوار ، غير أنه كان لتقلبهـا رونق يأسر المرء حقًّا . وكلما ازدادت معـرفتي بها ، كلما قلت قدرتي على التكهـن بما ستقوم بـه من أفعال ، كان الشيء الوحيـد الثابت فيها هو صراعها العنيف للإفـلات من حاجز انفصامها النفسي . إنني كثيرًا ما أتذكـرها وهي تقول : « إنني أعدك يا حبيبي ، بأن الأمر سيكون مختلفًا هذه المرة » .

وفيما بعد عند ما ذهبنا إلى الخارج : عند « الأدلون »[1] حيث تتلاعب حزم دوائر الضوء فـوق الراقصين الإسبـان الذين يلفهم دخـان ألف سيجارة ، أو بجوار مياه « بـوذا » الداكنة ، حيث تتساقط دموعهـا حارة بين أوراق الشجر الميتة المنسابـة في هدوء ، أو ونحن راكبون في سهول « إسبانيـا » المقفرة ، وقد تركت أصـوات حوافر جيادنـا آثارها على الصمت هناك ، أو إلى جـوار شاطئ البحر المتوسط ونحن ممددان فوق صخور مهجورة ـ لم تكن خياناتها هي ما يقلقني على الإطلاق ـــ فعندما يتعلق الأمـر « بجوستين » تغدو مشكلـة اعتداد الرجل بـامتلاكها مشكلة ثـانوية على أي حـال من الأحوال . وسبى عقلي وهم بـاطل بأنه في وسعي اكتشـاف كنه هـذه المرأة ، لكنني أرى الآن أنها لم تكن في الحقيقة امرأة ، كانت تجسيـدًا للمرأة التي لا تعترف بأية روابط داخل المجتمع الذي نعيش فيه . « إنني أبحث في كل مكان لاقتنـاص حياة جديرة بأن تعاش . ربما لو كـان في وسعي أن أموت أو أجن ، لأمـدني ذلك ببؤرة تتجمع فيهـا كل مشاعرى التي لم تجد لها متنفسًا صحيحًا . إن الطبيب الذي أحببته قد أخبرني أنني مصـابة بـالهوس الجنسي السحاقي غير أنـه يا « يعقـوب » لا توجـد أية شراهة أو انغماس مـن جانبي في لـذاتي . إنها مهدرة تمامـًا من هذه النـاحية. مهـدرة يا عـزيـزي مهـدرة . إنك تتحدث عن تقبلي اللـذة في حـزن ، كما يفعل المتطهرون . وحتى في هذا فإنك ظالمي . إنني أتقبل اللذة بطريقة مأساوية ، ولو

---

(١) اسم محل رقص .

شاء أصدقائي الأطباء العثور على كلمة مركبة تستخدم في وصف هذا الكائن الخالي من القلب والذي أبدو مثله ، فعليهم أن يقروا بأن ما افتقده في القلب إنما أعوضه في الروح ، حيث يكمن البلاء » . إنها ، كما ترى ، ليست من نوع التحديدات المميزة والتي تقدر النساء عادة على تحديدها . كانت وكأن عالمها ، يفتقد على نحو ما أحد الأبعاد ، والحب قد تحول داخلها إلى نوع من عبادة الذات. ولقد فهمته في بادئ الأمر خطأ ، إذا اعتبرته أنانية تدمر وتفني صاحبها، فقد بدت شديدة الجهل ـ بأمور الوفاء البسيطة المعروفة والتي تشكل أسس العاطفة بين الرجال والنساء . إن هذا الكلام يبدو كلامًا طنانًا ، ولكن لا تهتم . فإنني أتساءل الآن في دهشة عندما أتذكر الذعر والتمزق الذي احتملته ، إذا ما كنت على صواب أم لا . إنني أفكر في تلك المشاهد الدرامية المرهقة في حجرات النوم المفروشة التي كنا نستأجرها ، و « جوستين » تفتح صنابير المياه لتغرق صوت بكائها ، إنها تسير جيئة وذهابًا ، وقد ضمت ذراعيها تحت إبطيها ، تتمتم لنفسها . كانت تبدو كبرميل قار يحترق بلا لهب وقد وصل إلى حد الانفجار . كانت حالتي الصحية التي تجعلني لا أبالي وأعصابي المتعبة ـ وفوق كل ذلك روحي الأوربية الميالة للدعابة ـــ تبدو في مثل تلك الأوقات مثيرات لها تحملها فوق طاقتها . فإذا عانت ، مثلاً ، من شعور وهمي بالاستهانة بها خلال حفل العشاء فإنها كانت تذرع شريط السجاد أسفل السرير كالنمر الأرقط . وإذا نمت فربما ثار غضبها فتهزني من كتفي صارخة ، « انهض يا « يعقوب » ، إنني أتألم ، ألا تراني ؟ » وربما كسرت شيئًا من الأشياء الموجودة فوق منضدة الزينة عندما كنت أرفض أن أشاركها في هذا اللغز ، حتى تجد مبررًا لدق الجرس . كم وجهًا من وجوه الخادمات الليليات لم أره وقد أصابه الفزع وهو يواجه هذا الشبح المتوحش في رداء السهرة الفضي أو الذهبي ، وهي تقول في أدب يبعث الرعب في النفس : « تكرمي عليّ بتنظيف منضدة الزينة . فقد حطمت شيئًا ما بطريقة سخيفة » . ثم تجلس لتدخن سيجارة بعد أخرى ، ولقد قلت

لها ذات مرة : « إنني أعـرف ما تعانينـه بالضبط وأتـوقع رغبتك في استثارتي حتى أضربك وحتى أعطى لخطايـاك نوعًا من الغفـران ، في كل مرة تخونينني فيها ويأكلك الشعـور بالذنب . إنني في بســاطة ، يا عزيـزتي ، أرفض أن أكون قوادًا لملذاتك . يجب أن تحملي أثقالك بنفسك . إنك تسعين بلا هوادة أن أستعمل معك سوط التعـذيب ، لكنني أشفق عليك » . والحقيقة التي يجب أن أعترف بها أن هذا الكـلام قد جعلها تفكر تفكيرًا عميقـًا للحظة ، وبحركـة لا إرادية شردت يديها تتلمس جلـد ساقيها النـاعم وقد حلقت شعـرهما بعناية شـديدة في ذاك الأصيل ...

« وأخيرًا ، وجدت وقد بـدأت أحس بالضجر منها ، أن استخـدام العواطف على هذا النحو السيء أمـر مرهق للغاية حتى إنني أخذت في إهانتهـا والسخرية منها . فقد ناديتهـا ذات ليلة باليهودية المختلة المزعجـة . فانفجرت تبكي بذلك النشيج الفظيع الأجش الذي كنت أسمعه منها حتى أن التفكير فيه الآن (في ثقله وكثافة شـجاه) مجرد التفكير يوجعني ، وألقت بنفسـها فوق سريرها لترقد وقد تدلت أطرافها وارتخت ، واجتاحتها موجات من التشنج العصبي كدفقات الماء من خرطوم .

« هل كانت تتصرف على هذا النحو في غالب الأحوال ، أم أن ذاكرتي ضاعفت فعالها ؟ ربما حدث هذا الأمر مرة واحدة ، ثم ضللتني أصداؤه . وعلى أي حال فإنه يخيـل إلى في مرات عديـدة أنني أسمع الصوت الـذي تحدثه عنـدما تفتح زجـاجة الأقـراص المنومـة والصوت الخافت الـذي يصدر عن الحبـوب وهي تسقط في الكوب . فكنت أعدها ، حتى وإن كان النعاس يغالبني ، حتى أتأكد من أنها لم تأخذ أكثر مما يجب . حدث هذا بالطبع في فترة متأخرة للغاية من حياتنا الـزوجيـة ، ففي الأيـام الأولي كنت أطلب منهـا أن تأتي إلى سريـري ، فكـانت تطيعني وهي باردة غاضبة مدركة لما تفعل . كنت غبيًّا حتى إنني اعتقدت أنه في وسعي أن أحررهـا مما هي فيه وأن أمنحهـا راحة الجسـد التي كنت أعتقد أن

الطمأنينة العقليـة تعتمد عليها ولكنني كنت مخطئـًا . كانت توجـد في أعماقها عقـدة لم تحل وكانت « جـوستين » تود أن تحل تلك العقـدة التي كانت تفـوق مهارتي كعاشق أو صديق . بالطبع بالطبع . كنت أعرف كل ما يمكن معرفته في ذلك الوقت عن خصائص النفس المصابـة بالهستريا . إلا أنني اعتقدت أن هناك نوعًا آخر من الصفات في وسعي أن أتبينه وراء كـل هذا ، لقد كانت على نحو ما لا تبحث عن الحياة ولكنها كانت تبحث عن إلهام يوحد كل شيء ويعطي للحياة مقصدًا .

« لقد وصفت من قبل كيف التقينا ـ في مرآة « فندق سيسيل » الطويلة ، أمام باب صالة الرقص المفتوح في ليلـة « كرنفال » . الكلمات الأولى التي تحدثناها ، تبادلناها في المرآة بطريقة رمزية للغاية . كانت هناك في رفقة رجل يشبه سمكة الحبار ، كان في انتظارها بينما تفحص هي وجهها الأسمر بعناية . ووقفت أنا لأصلح ربطة عنق غير مألـوفة على شكل « فيونكة » . عندمـا ابتسمت وقالت : «ليس هناك إضاءة كافية على الإطلاق » . كانت تمتلك صراحة طبيعية تستميل الناظـر إليها ، وتبدو كـدرع يحميها من أى خـواطر بالتمادي معهـا . وأجبتها دون تفكير : « ربما كانت كـذلك بالنسبة للسيدات ، غير أننا معشر الـرجال أقل منهن فيما نحتاج إليه » . وابتسمنا ، وعبرتها وأنا في طريقى إلى صالة الرقص . كنت مستعـدًّا للخـروج مـن حيـاتها في المرآة إلى الأبـد وبـدون تفكير . غير أن مصادفـات إحدى تلك الرقصـات الإنجليزية الفظيعـة والتي أعتقد أنها تسمـي «البـول جونس » ، قـد جعلتني فيما بعد أقـف أمامهـا وجهًا لـوجه في رقصـة «فالس» . وتبادلنا بضع كلمات لا رابط بينها ـــ ورقصت بطريقة رديئة ، وهنا يجب أن أعترف بأنه لم يكن لجمالها أى تأثير عليّ . لقد حـدث هذا فيما بعد عند مـا بـدأت حيلتها بـرسم صـور سريعـة سيئـة التحديـد حـول شخصيتي ، وبطعناتها الحادة النافذة ألقت بكفاءتي النقدية في ضباب التشويش ، ناسبة إلى صفات اخترعتهـا هي من وحي اللحظة تحكمها في ذلك رغبـة لا وازع فيها من

ضمير كي تأسر انتباهي . إن النساء يهاجمن الكتاب على الدوام ـ فمنذ اللحظة التي عرفت فيها أنني كاتب عـزمت على تشريحي حتى تشد انتباهي نحـوها . كـان من الممكن أن يـداهن كـل هـذا كـرامتي إلى أقصى الحدود لـو أن بعض ملاحظاتها لم تكن صائبة. إلا أنها كانت حاذقة ، وكنت أنا أضعف من أن أقاوم مثل هذه اللعبـة ـ لعبـة الكمائن الذهنيـة التي تقوم عليها مناوشـات المداعبة والغزل.

« ومن هنا فإنني لا أتذكر شيئًا حتى تلك الليلـة ـ الليلة الصيفية الرائعة في ضوء القمر ـ ونحن في الشرفة المبللة المطلة على البحـر و « جوستين » تضغط راحتها الدافئة على فمي لتـوقفني عن الكـلام وتقول شيئـًا من هـذا القبيل ، «أسرع ، فطسنى ، دعنا ننته منها ـ من الرغبة إلى قمة اللذة » . ويبدو أنها كانت قد نالتني في خيالها . إلا أن الكلمات قيلت بدرجة كبيرة من الإعياء والمذلة ـ من كان في وسعه أن يمتنع عن حبها ؟ » .

« إنه لعبث أن أسرد كل هذا بالكلمات وهي وسيلة غير مستقرة . إنني أتذكر زوايا وحـواف لقاءات عديـدة ، وأرى « جوستين » مركبـة تخفي نهماً جامحًا للمعرفة ، للقـوة من خلال الخبرة الذاتية ، تحت مظهر من العـاطفة . وللأسف فإنني منساق للتفكير في حيرة إذا ما كنت قد حـركت عواطفها على الإطلاق ـ إذ أنني لم أكن بـالنسبة لها غير حقل تجارب تستطيـع أن تعمل فيه . لقـد تعلمت مني الكثير : تعلمت أن تقـرأ وأن تتأمل . أشياء لم تـدركها من قبل . وربما مـا أخذته أنا مأخذ الحب لم يكن غير افتتان . ففي مكان ما ، بين الآلاف المنبوذة من الناس ، والانطبـاعات ، ومـوضوعات الـدراسة ـ كنت أرى نفسي منجرًا مع التيار ، طافيًا ، مـادًا ذراعي . ومن الغريب حقًا أن لقائي الحقيقي بها لم يكن في ثوب العاشق ولكن في ثوب الكاتب . هنا تصافحت أيدينا ـ في هذا العالم الذي لا يتقيد بخلق . عـالم الأحكام المؤجلـة حيث يبدو الفضـول والتساؤل أعظم من النظام ـ النظام المنطقي الـذي وضعه العقل . هنـا حيث ينتظر المرء في صمت ،

ممسكًا أنفاســه وإلا شاب لوح الزجاج غمامة . لقــد سـهرت عليها بهذا النهج . فقد غدوت مجنونًا بحبها .

« كان لها بالطبع أسرار كثيرة فقد كانت ابنــة حقيقية « للموسوية » . وكان على أن أمنع نفسي بشدة من الغيرة أو الـرغبة في اقتحام الجزء الـذي تخفيه من حياتها . ولقد نجحت على وجه التقريب في هذا ، وإن قمت بالتجسس عليها فقد كــان ذلك ، والحق يقال ، من بــاب حب الاستطــلاع لأعرف مــاذا تفعل أو فيما تفكر عنــدما لا نكــون معًا . كــان هناك على سبيل المثــال امرأة في المدينــة كانت تزورهــا في غالب الأحيان ، وكان لهذه المرأة تأثير عميق عليهــا حتى إنني بدأت أرتاب في وجود علاقة محرمة بينهما ، كذلك كان هناك رجل تكتب إليه رسـائل مطولة ، رغم أنه في حدود علمي كان مقيماً بالمدينة . ربما كان طريح الفراش ؟ . ولقد قمت ببعض التحــريات ، إلا أن جــواسيسي كانوا يعــودون إلى على الدوام بمعلومات غير ذات بال . كانت المرأة عرافة ، أرملة متقدمة في السن . واتضح أن الرجل الذي كانت تكتب إليه ـــ ويصر قلمها وهو يجرى على الورق الرخيص ـ طبيب يشغل وظيفة بسيطــة في قنصلية محلية وتحتــل هذه الوظيفــة جزءًا من وقته . كان شــاذًّا من الناحية الجنسية ، إلا أنه لم يكن سلبيــًّا ، وكان له بعض اهتمامات الهواة بــالفلسفة « الهرمزية » التي غــدت الآن شائعة للغايــة . ولقد تركت على نشافتي ذات مرة آثارًا واضحة غاية الوضوح ، واستطعت أن أقراها في المرآة (المرآة مرة أخرى !) : ـ « إن حياتي هناك جرح لا يندمل كما تسميها ، إنني أسعي كي أجعلهــا مليئة بــالناس ، والأحداث ، والأمــراض ، بأى شيء في متناول يدى . إنك على حق عنــدما تقول إن هذا مبرر لحيــاة أفضل ، لحياة أكثر حكمة . ولكني في الــوقت الذي أحترم فيه مبــادئك ومعرفتك أحس أنــه إذا كان علىّ أن أصل إلى علاقة طيبة مع ذاتي ، فعلي أن أعمــل من خلال الصدأ القائم في نفسي وأحرقــه . إن أى إنسـان في وسعــه أن يحل مشكلتي بطريقــة زائفة وذلك بأن يضـعها في حجر قسيس . ولكننــا أبناء « الإسكندرية » نعتــز بأنفسنا أكثر

من ذلك . ونحترم الديـن أكثر من ذلك . إنه لن يكـون عملاً عـادلاً تجاه الرب ، يـاسيدي العـزيز ، فمهما خـذلت غيره (أراك تبتسم) فإنني مصممـة على ألا أخذله كائنًا ما كان » .

« وبدا لى حينـذاك أنه لو كان هـذا الكلام جزءًا من خطاب غـرامي فإنه من نـوع الخطابـات التي لا يخاطب بها المرء إلا قـديسـًا ، ومرة أخـرى ذهلت من البساطة التي تمكنها من التفريق بين أفكار الأنواع المختلفة من البشر ، رغم أن الكتابة غير متقنة ورغم ما بها من أخطاء . وبدأت أراها في ضوء مختلف ، أراها كإنسانة يمكـن أن تحطم نفسها عن طريق مزيـد من شجاعة موجهـة توجيهًا خـاطئًا ، وأن تخسر السعـادة التي ترغبهـا ، مثلنا جميعـًا ، ولا تعيش إلا لكي تحظي بها ، هذه الأفكار كان لها أثرهـا في تعديل حبي لها . وبدأت أحس أحيانًا بنفسي وقد امتـلأت بالتقزز منهـا . ولكن ما أخافني هـو إدراكي السريع الذي أصـابني بالهلع بأنني لا أستطيع العيـش بدونها . وحـاولت ، قمت برحـلات قصيرة بعيدًا عنها . ولكنـي وجدت الحياة بدونها مليئة بضجـر قاتل لا يمكن احتمالـه بحال من الأحـوال . لقد وقعت في حبهـا وملأتني تلك الفكـرة بيأس وتقـزز لا تفسير لهما . بدا الأمـر وكأني قـد أدركت دون وعي مني بأنني قـد قابلت فيها الجانب الشرير من نبـوغي . أن آتي إلى « الإسكندرية » خالي الفؤاد وأن أجد حبـًا كالقـدر ـ كـان كل ذلك ضربة من سـوء الحظ لم يكن في مقدور صـحتي أو أعصـابي احتمالها . وذكـرت نفسي وأنـــا انظـر في المرآة بأنني قـد تجاوزت الأربعين وبأن شعرة بيضـاء أو شعرتين قـد نبتتا في سـوالفي ! لقد فكرت ذات مرة في محاولـة إنهاء هذه العلاقة ، ولكن قـراراتي كانت تنهار مع ابتسامة أو قبلة من « جوستين » ، ومع ذلك فإن الإنسان يحس وهو معها بأنه محاط بصحبة من الخيـالات التي غزت حيـاته ومـلأتها بأصداء جـديدة . إن الشعـور بأن المرء غـارق في المعميـات لا ينتهي بتصرف إرادى مفـاجئ . كنت أحس في بعض الأحيان بـأنها امرأة ، كل قبلة منهـا ضربة تقـرب الإنسان من

قبره . كما حدث مثلاً عندما اكتشفت (ما كنت أعرفه) أنها كانت تخونني بشكل متصل وفي أوقات كنت أعتقد أنني أقرب ما يكون إليها . وبشكل عام لم أحس بشيء مثير للغاية ، كان إحساسي نوعًا من الخدر يغوص بي كذلك الذي يحسه المرء وهو يفارق صديقًا في مستشفى ، ثم يدخل المصعد ويهبط ستة طوابق في صمت ، واقفًا إلى جوار رجل كالآلة يرتدى الزى الرسمي ويتنفس في صوت مسموع . لقد أصابني صمت حجرتي بالصمم . ثم جمعت فكرى فيما بعد ـ بينما كنت أقدح الذهن في هذا الأمر ، حول الحقيقة التي أدركتها وهي أن ما فعلته هي لا يمت بصلة إلىّ . لقد كانت محاولة منها لتحرير نفسها من أجلي كي تعطيني ما تعرف أنه ملك لي . ليس في وسعي أن أقول إن هذا الفكر كان له صدى يفضل السفسطة بأية حال . ومع ذلك فقد بدا أن قلبي يعرف حقيقة هذا وأنه يملي علىّ أن أصمت صمتًا مؤقتًا كانت تستجيب له « جوستين » بدفء جديد وحرارة جديدة وامتنان يضاف إلى الحب . ومرة أخرى أثار هذا تقززي بعض الشيء .

« آه ، لو كنت رأيتها كما كنت أراها أنا حينئذ في لحظات تواضعها ورقتها ، متذكرًا أنها لم تكن أكثر من طفلة ، لما لمتنى في جبني . كانت تبدو في الصباح الباكر ، وهي نائمة بين ذراعي ، وقد تناثر شعرها الباسم ، كمخلوق بدائي رائع أمسك به في عصر تطوره « البليستوسينى » ، لم تكن تشبه أى امرأة عرفتها : إنها في الحقيقة لم تكن تشبه أى امرأة أخرى على الإطلاق . ولقد دهشت فيما بعد عندما كنت أفكر فيها مرة أخرى كما فعلت وكما كنت أفعل خلال تلك السنوات القليلة الماضية ، إذ وجدت أنه رغم حبي لها بكل كياني ورغم إدراكي بأني لن أحب أى واحدة أخرى ـ إلا أنني كنت أخشي إمكانية عودتها إلىّ . لقد تعايشت الفكرتان في عقلي دون أن تحل الواحدة منهما مكان الأخرى . وقلت لنفسي وأنا أفكر بارتياح : « حسنًا لقد أحببت في نهاية الأمر حبًا صادقًا . لقد حققت شيئًا » . وقد أضاف الجانب الآخر من ذاتي « ارحمني

من وخـزات حب معـادة مع « جوستين » ، ولقـد وجـدت أن هذا الاستقطـاب الغامض في المشاعر شيء لم أكن أتوقعه على الإطلاق . وأنه إذا كان هذا هو الحب إذن فقد كان نوعًا من النبات الذي لم أره ألبتة من قبل . ولقد قالت «جوستين» ذات مـرة : « اللعنة على تلك الكلمـة ، التي أود أن ألقي بها إلى الخلف مثلما ألقي «الإليزابيثيون » كما تقـول أنت بالرب . سمها تطـور أو سمها ثورة . ولكن لا تستخدمها معي ألبتة » .

* * *

إن هـذه المقتطفات الأخيرة قـد انتقيتها من القسم المسمي « حيـاة ما بعـد الموت» وهـي محاولـة يقـوم بها المؤلـف لتلخيص وتقييم تلك الأحـداث ويجد «بومبال» أن الكثير من هذه الأحداث تافه وكئيب ، ولكن كيف يمكن لمن يعرف «جوستين» إلا أن يتأثـر بها ؟ كذلك لا يمكن القـول بأن غايـات الكاتب ليست مشحونة بما يشدّ الانتباه . إنه يؤكد ، على سبيل المثال ، أن الناس الحقيقيين لا يمكن أن يوجـدوا إلا في مخيلة فنان لها من القـوة ما يمكنهـا من احتوائهم ثم تشكيلهم . « إن الحيـاة ، وهـي المادة الخام لا تعـاش إلا بصورة كـامنـة حتى ينشرها الفنان في عمله . فهل سيكـون في وسـعي أن أقوم بهذه الخدمة من أجل حب « جوستين » البائسة » . (أقصد بالطبع كلوديا) . « إنني أحلم بكتاب قوي حتى إنه يحتـوى كل عناصرها . إلا أنـه لن يكون من نوع الكتب التي تعـودنا عليها في هذه الأيام . سيوجد في الصفحـة الأولي مثلاً ملخص للرواية في سطور قليلة . وبذا يمكن الاستغناء عن التفصيل الروائي . ثم يتبع ذلك دراماً تحررت من عبء الشكل ، سأطلق كتابي يحلم كما يشاء » .

ولكن المرء بالطبع لا يستطيع أن يهرب في بساطة من النموذج الذي يعتبره مفـروضا عليـه مع أنه في الحقيقـة ينمـو نمواً عضـويًا من داخل العمل ذاتـه ويسيطر عليـه . إن ما يفتقـده عمله ـــ وهذا نقد لكل الأعمال التـي لم ترتق إلى القمة ـ هـو الإحساس بالدرامـا . إنه يحمل في عنف على مادة موضـوعه ، مما

يصيب أسلوبه ببعض من ضراوة « كلوديا » غير المتزنة . وبالتالي يقوم كل شيء على العاطفة ويتساوى في الأهمية لديه : إشارة تصدر عن « كلوديا » بين أشجار « الدفلي » في « النزهة » ، الموقد الذي أحرقت فيه مخطوط روايته عنها ، « ولأيام كانت تنظر إليّ كأنها تحاول قراءة كتابي في وجهي » . الحجرة الصغيرة في شارع « ليبسيوس » بكرسيها الخيزراني الذي « يزيق » ... إنه يقول عن شخصياته « إنها جميعًا مقيدة بالزمن في بعد هو ليس في الواقع ما كنا نبغي أن تكون عليه ـــ ولكن احتياجات العمل هي التي تخلقه ، فالدراما تخلق القيد دائماً ، ولا يكون للمثل أهمية إلا بالقدر الذي يلتزم به » .

غير أننا لو وضعنا تلك التحفظات جانبًا لوجدنا أنه قد عمد إلى نقل صورة غاية في الرقة والدقة عن « الإسكندرية » ، « الإسكندرية » ونسائها . إننا نجد هنا رسومات « لليوني » ، « جابي » ، « وفوسكا » ـــ الرسومات الوردية الفاتحة اللون ، والذهبية ، والسوداء في لون القار . وفي وسع المرء أن يتعرف بسهولة شديدة على بعض الشخصيات في صفحاته . « كليا » والتي ما تزال تعيش في هذا المرسم المرتفع ، عش عصفور الجنة المصنوع من نسيج العنكبوت والأقمشة القديمة ـــ لقد رسمها دون أن يخطئها . غير أن هؤلاء الفتيات الإسكندرانيات لم يتميزن في أغلب أجزاء الكتاب عن غيرهن من النساء في أماكن أخرى إلا بوقائهن الذي يبعث الرعب في النفس وبضجرهن من هذا العالم .

إنه كاتب على جانب من القدرة مكنه من أن يستخرج تلك الصفات الحقيقية لمدينة « السوما » . إن المرء لا يتوقع المزيد من المواهب من دخيل اخترق قشرة «الإسكندرية » الصلبة عن طريق يكاد أن يكون خاطئًا ثم اكتشف نفسه .

أما عن « جوستين » ذاتها ، فهنالك بعض الإشارات القليلة إن كان هناك ثمة إشارات عن الأرناؤوطي في الصفحات المغلقة المعاني بصورة كبيرة في يومياتها . لقد اقتفيت أثر الحرف (ا) هنا وهناك . ولكني غالبًا ما عثرت عليه

في الفقـرات الزاخـرة بالتأمل النفسي الخالص وهـا هي واحدة يمكن أن تبـدو المطابقة فيها مقبولة :

« لقد كانت حجرة (ا) هي أول ما شـدني إليه . كان يبدو لي دائماً أن هناك ضـوضاء تجرى وراء مصـاريع النوافـذ الثقيلة . الكتب تـرقد في كل مكـان ، غلافها مقلوب أو مغطى بورق الـرسم الأبيض ، كأنما لتخفي عناوينها . كومة هائلة من الجرائد المليئة بالثقوب ، وكأن حشدًا من الفيران قد اتخذها ولائم له ، قصاصات (ا) من « الحياة الواقعية » كما كان يسميها ، اقتباسات يحس أنها تبعد كل البعـد عن حياته هـو : كان يجلس إلى جـرائده وكأنه يجلس إلى المائدة وقد ارتدى رداء منزليًا مرقعًا ولبس شبشبًا من القطيفة ، يقص الجرائد بزوج من مقصات الأظافر الثالمة . إنه يشغل بـاله « بالحقيقة » في العالم خارج نطاق عمله بطريقـة مربكة كما لو كـان طفلاً . إنه مكان يمكن أن يسعـد فيه الناس ، وأن يضحكوا ، وأن يتناسلوا » .

إن عددًا قليلاً من تلك الخطوط يشكل كل صـورة مؤلف « عادات » ، ويبدو هذا الأمر كجزء تافه ومخيب للآمال ، لمثل هذا العمل الجاد العامر بالحب ، كما أني لم أستطع العثور على كلمة واحدة عن فراقهما بعد هذا الزواج القصير غير المثمر . غير أنه كان مثيرًا أن ترى من كتابه كيف أصدر نفس الأحكام التي كان عليّ أنا و « نسيم » أن نصـدرها عليها فيما بعـد . لقد كانت قـدرتها على انتزاع امتثالنا لها أمرًا يثير العجب وكأنما كان الرجال يعرفون للحال أنهم أمام امرأة لا يحكم عليها بالمقاييس التي استخدموها حتى الآن عندما يفكرون في النسـاء . لقد قالت « كليًا » عنها ذات مرة (ومن النادر إن لم يكن من المستحيل أن تكون أحكامهـا متسامحة) : « إن البغي الأصيلة هي حبيبـة الرجل الحقيقيـة ـ مثل «جـوستين » ، إنها وحـدها التي تملـك القدرة على أن تجرح الـرجـال . غير أن صديقتنـا بالطبع ليست إلا نسخة ضحلـة من إنتاج القـرن العشرين لمحظيات الماضي العظيمات ، إنها تنتمي دون أن تـدري ، « لـلايس » و « شـاريس »

والباقيــات ... إن دور « جوستين » قد أخـذ منها ، ليضـع المجتمع على كـاهليها عبء الخطيئة حتــى يضـاف إلى ما تعــانيه من متــاعب . إنه لأمــر يثير الشفقة . «فجوستين » ابنة حقيقية « للإسكندرية » .

ولقد بـدا « لكليا» أيضًا أن كتاب « الأرنــاؤوطى » الصغير عن « جوستين » سطحي ومصاب بداء الرغبة في شرح كل شيء . قـالت : « إننا مصابون بمرض الرغبة في احتواء كل شيء في إطار من الاستدلال النفسي أو الفلسفي . ورغم كل شيء لا يمكن أن تبرر أعمالها أو أن تقـدم الأعذار عنهـا . إنها في بسـاطـةوروعة كما هي ، وعلينـا أن نحتملهـا كما نحتمل الخطيئـة الأصيلـة . أمـا أن تقـول ، ياعـزيزى ، إنها مصــابة بالهوس الجنسي السحــاقي أو أن نحللها على طـريقة «فرويد » ، فإننا بذلك ننتزع منها كل مادتها الأسطورية ـ ننتزع الشيء الوحيد الذي تتكون منه عن حق وصدق . إنها تكاد أن تكون إلهة مثل كل أولئك الناس الذين لا يلتـزمون بالقيم الأخلاقيـة . فلو أن عالمنـا كان عالمًا حقيقيًا لـوجدت المعابد التي تهيىء لها ما تنشده من راحــة . معابد ليست كتلك الأديرة الملعونة المليئة بالشبان الكاثوليك الصغار الذين ملأت البثور أجسادهم والذين امتطوا أعضاءهم التناسلية كما يمتطي المرء مقعد الدراجة » .

كانت تفكر في الفصول التي وضعها « الأرناؤوطي » تحت عنوان « الحائل» والتي يعتقـد فيها أنــه قد عثـر على الـدليل الذي يقـوده إلى فهم سر تقلب قلب «جـوستين » . ربما كـانت تلك الفصــول ضحلة كما تقـول « كليـًا » ، غير أنها تستحق الاحترام ، فكل شيء يحتمل أكثر من تفسير واحد . أما أنا فلا اعتقد أنها تفسر لنا تصرفات « جوستين » ، ولكنهـا إلى حد ما تلقي بعض الضوء على تلك التصرفات ـــ على تلك الرحلات الطـويلة التي قامـا بها معًا وقطعا فيهـا أوربا طولاً وعرضـًا . كتب يقول : « كانت في ذروة انفعالها العـاطفي » ويضيف هنا جملة عـرضية (وانفعالها العـاطفي هو أسهل ما في وسعهـا أن تهب) « مانع يحول دون استمتاعها ـ حائل ضخم من المشاعر بدأت أحس وجوده بعد عديد

من الشهور . لقد وقف بيننا كشبح ، وأدركت أو اعتقدت أنني قد أدركت العدو الحقيقي لسعادتنا التي تقُنا لأن نتقاسمها والتي نحس أننا محرومان منها على نحوما . ما هو هذا المانع ؟ » .

« لقد أخبرتني ذات ليلة ونحن راقدان على ذلك السرير الضخم البشع في حجرة مؤجرة ــ حجرة كئيبة مستطيلة لها شكل ونكهة ورائحة فرنسية شرقية غامضة ـ سقفها المصنوع من المصيص مغطي بصور متآكلة للملائكة ونقوش على شكل أوراق العنب . أخبرتني وتركتني أحترق بغيرة جاهدت أن أخفيها ، غيرة من نوع جديد لم أعهده في نفسي من قبل . لقد كانت غايتها رجلاً لم يعد له وجود في حياتها رغم أنه ما زال يحيا . ربما كان ما يسميه أنصار «فرويد » ستار ذاكرة الأحداث التي وقعت لها في صباها المبكر . (لم يكن هناك أدنى افتعال لإضفاء أية قوة على هذا الاعتراف ، فقد كان مصحوبًا بفيضان من الدموع ، ولم أكن قد رأيتها تبكي مثل هذا البكاء من قبل أو من بعد) لقد اغتصبها واحد من أقاربها . إن المرء لا يستطيع أن يمنع نفسه من الابتسام لتفاهة الفكرة . كان من المستحيل أن يقدر المرء عمرها حينما اغتصبت . ومع ذلك ـ فقد اعتقدت أني قد نفذت إلى صميم هذا الحائل : لأنها منذ ذلك الوقت وما تلاه لم يعد هناك ما يشبعها في العشق ما لم تعد في ذهنها خلق تلك الأحداث وتمثيلها . لم نكن نحن عشاقها غير البديل الذهني لهذا الحدث الأول في طفولتها ـ وبذا اتخذ الحب ، كشكل من أشكال ممارسة العادة السرية ، كل ألوان النورستينيا (ضعف الأعصاب) كانت تعاني من تخيل يحتضر لشدة ضعفه ؛ لأنه لم يكن في وسعها أن تمتلك جسد أى رجل امتلاكًا كاملاً . لم يكن في وسعها أن تحوز لنفسها الحب الذي تحس أنها محتاجة إليه ، لأن إشباع نزواتها كان ينبع من الزوايا الغامضة لحياة لم تعد تحياها .

لقد كان هذا أمرًا مثيرًا من الناحية العاطفية ، غير أن ما كان أكثر تسلية هو أنني أحسست بتلك اللطمة الموجهة لكرامتي كرجلِ . وكأنما قد اعترفت لي عن

عمد بخيانتها . ماذا ! أفي كل مرة نامت بين ذراعي لم تجد أى إرضاء لها إلا من خلال تلك الـذكرى ؟ إذن ، وعلى نحو مـا ، لم يكن في وسعي أن أنالها : بل إنني لم أنلها على الإطلاق ، لقد كنت مجرد دمية . وحتى الآن وبينما أكتب هذا فإنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الابتسـام عنـد مـا أتذكـر الصـوت المختنق وأنـا أسألها عمن يكـون الرجل . وأيـن هو (مـاذا كنت آمل أن أفعل ؟ أن أتحداه إلى مبـارزة ؟) . ومع ذلك فقـد كـان هنـاك ، واقفـًا بـالتمام بيني وبينهـا ، بين «جوستين » وشعاع الشمس .

« غير أنني هنـا أيضـًا كنت طليقًا إلى الحد الـذي جعلني ألحظ إلى أى مـدى يتغذي الحب على الغيرة ، لأنها كامرأة بعيدة عن متناولى رغم أنها بين ذراعي ، قـد غدت مشتهـاة ولازمة لي عشر مـرات أكثر من ذى قبل . لقـد كانت ورطـة محزنة لـرجل لم يكن ينتوى أن يقع في الحب ، ولامـرأة لم تكن ترغب إلا في أن تتحرر من فكرة مسيطرة عليها ، وتنطلق لتحب . ومن هنا نبع شيء آخر .

لو استطعت أن أحطم هـذا الحائل لغدا في وسعي أن أنـالها بحق ، أن أنالها كما لم ينلها إنسان آخر من قبل . كـان في وسعي أن أخطو مكان الشبح وأتلقي قبلاتها بحق ، لأنها الآن تتساقط على جثة . يبدو لي ، أنني قد أدركت كل شيء .

إن هذا ليفسر الجولة الكبيرة التي قمنا بها ، وأيدينـا المتشابكة لغة متبادلة ، حتى نتغلب على هذا الشبح بمساعدة العلم . لقد زرنـا معًا صومعة « تشكنيا » المملوءة بأرفف الكتب حيث جلس العالم النفسـاني المشهور يحملق في نماذجه وهو شـاحب اللـون . « بازل » ، «زيوريـخ»، « بادن » ، « باريـس » ـ هـدهدة قضبان الصلب السريعة فوق شرايين أوربا : عصب من الصلب يلتقي ويتفرق عبر الجبال والوديان . ويلتقي المرء . بوجهه في مرايا قطار الشرق السريع المليئة بالصدأ . لقد حملنا مرضها فوق أوربا جيئة وذهابًا كما يحمل طفل في أرجوحة إلى أن بـدأ اليـأس يتسرب إلى نفسي ، بل وحتى بـدأت أتخيـل أن « جـوستين » نفسها ربما تكـون راغبة عن الشفاء . لأنها قـد أضافت إلى ذلك الحائل النفسي

الـلا إرادى حائلاً آخـر ينبع من إرادتها . إنني لا أستطيع أن أفهم لماذا يجب أن يحدث كل هذا ، إلا أنها لن تخبر أحدًا باسمه ، باسم هذا الشبح . اسم يمكن أن يعني بالنسبة لها الآن كل شيء أو لا شيء. ومع ذلك فإنه يـوجد في مكان ما من العـالم وقد أخـذ شعره يتسـاقط ويبيض من متاعب الأعمال والإفـراط في كل شيء. إنـه يضع على إحدى عينيـه عصـابة سـوداء كما يفعل دائماً كلما أصيب بالرمد إن كان في وسعي أن أصفه لك فإنما يرجع ذلك إلى أني قد رأيته بالفعل ذات مرة) . لقد اعتادت « جوستين » أن تصرخ ، « لماذا أخبر الناس باسمه ؟ إنه لا شيء بالنسبة لى الآن - ولم يكن أى شيء في يوم من الأيام . لقد نسى تمامًا تلك الأحداث . ألا ترى أنه ميت بالنسبة لي ؟ وعندما أراه .... » وأحسست كأن حية قد لدغتنى . إذن « فأنت ترينه » . وتراجعت إلى موقع أكثر أمنًا ، « أراه عابرًا في الطريق مرة كل بضع سنوات قليلة . إننا لا نفعل أكثر من الإيماء بالتحية » .

« إذن فهذا المخلـوق ، هذا النمط الدارج من البشر ، مـا زال يتنفس ، ما زال يعيش ! ما أعجب الغيرة ومـا أدناها . غير أن الغيرة النـابعة من خيـال العاشق تنتهى إلى أن تكون أمرًا مثيرًا للسخرية .

ثم حدث ذات يوم في قلب « القاهـرة » ، خلال زحام المرور في منتصف ليلة صيف كان الحر فيها خانقًا أن توقفت سيارة أجرة بجوار « التاكسي » الذي كنا نركبه وشد انتباهي شيء من التعبير الذي كان على وجه « جوستين » فنظرت في إتجاه نظـراتها . ورأت عيناى ، في هـذا الحر الـلاهث الرطـب ، المثقل بالنـدى المتصاعـد من النهر فيصيب المرء بالصـداع والرائحـة النتنة للفاكهـة المتعفنة والياسمين وأجسـاد « السود » التي تسيل عـرقًا ، رأت عيناى الـرجل العادى الجالس في السيـارة الواقفـة إلى جـوارنـا . لم يكن هناك مـا يميـزه عن الألف الآخـرين من رجـال الأعمال القـذرين المشـوهين بهذه المدينـة الفظيعـة غير العصابة السوداء الموجودة على إحدى عينيـه . كان شعره خفيفًا ومنظر وجهه الجانبي حادًّا ، وعينه تشبـه الخرزة : كان يرتدي حلة صيفية رمـادية اللون .

وكان تعبير الحيرة والعـذاب المرتسم على وجه « جـوستين » واضحًا حتى أني صرخت دون أن أدري ، « ما الأمر » ؟ . وعندمـا ارتفعت إشارة المرور وأخذت السيـارة في السير أجـابت وفي عينيهـا يلمع نور غـريب ، فيـه شيء من جـرأة السكارى ، « هـذا هو الـرجل الذي تسعون جميعـًا لمعرفتـه » غير أني كنت قد أدركت الأمر قبل أن تخرج الكلمات من شفتيها فأوقفت السيارة التي نركبها ، وقفزت إلى الشارع كما لـو كنت أعاني كابوسـًا . ورأيت ذيل الضوء الأحمر في مؤخرة التاكسي الـذي يركبه بينما يدخلّ شارع « سليمان بـاشا » ، كان بعيدًا عني للغـاية حتى إني لم أتمكـن من تمييز لـون السيـارة أو رقمها . كـان من المستحيل مطـاردتها ، فقد اشتـد زحـام المرور خلفنا مـرة أخرى . وعـدت إلى التـاكسي أنتفض ولا أنطق شيئًا . إذًا فهـذا هو الـرجل الـذي سعى « فرويـد » لمعرفـة اسمه مستخـدمًا كل المقـدرة الهائلة لأسلـوبه الموضـوعي المحبب إلى النفس . لقـد رقدت « جـوستين » من أجل هذا الـرجل البريء المتوسط العمـر متـوترة ، كل عصب من أعصـابها مشـدود وكأنه على وشك الانفـلات ، بينما صوت « مانياني » الرفيع القاسي يعيد مرة بعد أخرى « أخبريني باسمه ، يجب أن تخبريني باسمه » بينما صـوتها القادم من عالم الرؤى المنسيـة حيث ترقد ذاكـرتها يردد كعـراف من عصر الآلـة « لا أستطيع أن أتذكـر ، لا أستطيع أن أتذكر » .

« وبدا واضحًا لي حينذاك أنها هي التي لا ترغب بشكل إرادي في التغلب على هذا الحائل ، وبالطبع فإن قوة كل الأطباء لن تغريها بذلك . لقد كان الأمر هكذا دون تزييف، إنها ترقد هنا مصابة بالهوس الجنسي السحـاقي كما أكد لي هؤلاء السادة المبجلون . كنت أقتنع في بعض الأحيـان بأنهم على صواب ، وكنت أشك في ذلك أحيـانـًا أخـرى ، ومع ذلك فقـد كان مثيرًا لي أن أرى العـذر الـذي يبرر سلوكهـا وهو أن كل رجل ضاجعته كـان يحمل لها فرصة انعتاق عـواطفها ، انعتاقها من ذلك الانغلاق الخانق حيث لا يتغذى الجنس إلا على شعلات الوهم المنتفخة .

« ربما أخطأنا بالحديث صراحــة في هذا الأمر ، بتناولــه كمشكلة إذ لم يقدم هذا شيئًا إلا أن أعطاها شعورًا بأهميــة ذاتها وأمدها فوق ذلك بحالة من القلق العصبي كـانت لا تعـانيهـا حتى ذلك الحين . لقـد كـانت مبـاشرة في حيـاتها العاطفية ـ كالفأس الساقطة على هدفها . كانت تتقبل القبلات كما تتقبل طبقات عديدة للغاية من الطلاء على شفتيهـا . وفي الحقيقة فإنني أحس بالحيرة عندما أتذكر الجهد الطويل وأنا أنقب عبثًا عن مبرر يمكن أن يجعل خروجها على القيم الخلقية مفهومًا على الأقل إن لم يكن مقبولاً . إنني أدرك الآن كثرة الوقت الذي ضيعته في هذا السبيل ، بدلاً من التمتع بها ، والخروج من تلك المشاغل بفكرة ، « إنها لا تستحق الثقة بقـدر ما هي جميلة . إنها تتقبل الحب في بســاطة ودون تفكير ، كما يتقبل النبات الماء . » وحينئذ كان في وسعي أن أسير وذراعي يتأبط ذراعها قرب القناة العفنة ، أو نبحـر فوق المياه السابحة في الشمس ، أتمتع بها كما هي وأتقبلهـا كما هي . أي قـدرة رائعــة نمتلكهـا نحن الكتـاب كي نحتمل التعـاسة . إننــي لا أعرف إلا أن هـذا الفحص الطـويل الموجع « لجوستين » لم ينجح إلا في أن يجعلها أقل ثقة بـذاتها ، كذلك أكثر ممارســة للخيانة عن وعي ، والأسوأ من كل هـذا أنها بدأت تنظر إليّ كعدو يتربص أقل هفـوة ، أقل كلمة أو إشــارة يمكن أن تفضحهــا ، وضاعفت يقظتهـا للـدفاع عـن نفسها ، وأخـذت تتهمني بأنني أغار غيرة غير محتملـة . ربما كانت على صواب . إنني أتذكـرها وهي تقول : « إنك تعيش الآن وسط علاقاتي العاطفية الخيالية ، لقد كنت غبية عندمـا صارحتك بكل شيء ، عنـدما كنت صريحة معك إلى هـذا الحد . انظر إلى الطـريقة التي تسألنــي بها الآن . إنك تكرر نفس الأسئلــة منـذ عدة أيـام . ثم تنقض عليَّ لأقل تنــاقض في كلامي . وأنــت تعرف أنني لا أحكي نفس القصــة بنفس الطريقة مرتين . فهل يعني هذا أنني أكذب ؟ » .

« ولم يثر ، هـذا القول منهـا حذري فضـاعفت محاولاتي لاختراق الستار الذي اعتقدت أن غريمي يقف خلفه ، وعصـابة سوداء فوق إحدى عينيه . كنت

ما أزال أراسـل « مانياني » وأحـاول تجميع أكبر قدر ممكن من الأدلـة والتي ربما كانت تسـاعده في تفسير هذا اللغـز ، ولكن بلا جـدوى . فمن في وسعه أن يجد طريقـًا في ذلك الدغل الكثيف الـذي تكونـه بواعث الخطيئـة والذي يشكل نفسية الإنسان ـ حتى عندما يكـون صاحب المشكلة راغبًا في التعاون ؟ كم كنا لهونا معـًا لو كانت « جوستين » تنعم بـالقدرة على الملاحظة ، بـدلاً من الوقت الذي ضيعناه في بحوث لا طائل تحتها فيما تحب وما تكره . إنني أتذكر رسالة كاملـة بنيتها على اعتراف منهـا بأنها لم تكن تقرأ الكلمات « واشنجطن د . ك » الموجودة فوق أى خطاب إلا وتحس بالتقـزز والاشمئزاز . إنه لأمر آسف عليه الآن أشد الأسف فقـد ضيعت هذا الوقت بينما كـان على أن أستمتع بحبها كما تستحق . ولابد أن بعض هـذه الشكوك قد أصـابت « مانياني » العجـوز أيضًا فإنني أتذكـره وقد كتب إلىَّ قـائلاً : يجب ألا تنسى يا عزيـزي الصغير أن هذا العلم الوليـد الذي نعمل به ، والذي يبـدو مليئًا بالمعجزات والآمـال ، قد قام في أحسن الأحوال على غالبية من القواعد المزعزعة ، مثله في ذلك مثل علم التنجيم . ومع ذلك فإن تلـك الأسماء الهامـة التي نطلقهـا على الأشيـاء مثل « **الهوس الجنسي السحاقي** » ربما يعتبر صيغة أخرى ، إن شئت ، للعذرية ، أما بالنسبة « جوستين » فإنها ربما لم تقع في الحب على الإطلاق . وربما جاء يوم تلتقى فيه برجل تتساقط أمـامه كل تلك الأوهام المرهقة وتنتهي إلى أن تكون بـريئة مرة أخرى . يجب عليـك ألا تستبعد هذه الفكـرة ، بالطبع لم يكن يحاول إيـلامي ـ لأنها كانت فكرة لا أبالى بالاعتراف بها لنفسي . غير أنها نفذت إلى أعماقي عندما قرأتها في خطاب هذا الرجل العجوز الحكيم » .

* * *

لم أكن قـد قرأت تلك الصفحـات من كتاب « الأرنـاؤوطى » حتى قبل ذلك الأصيل في « برج العرب » عنـدما تقرر مستقبل علاقتنا بدخـول عنصر جديد . إنني لا أجرؤ على استخدام كلمة الحب ، خشيـة أن أسمع بخيالي تلك الضحكة

الخشنة العذبة ! ضحكة يمكن أن يكون كاتب اليوميات قد ردد صداها في مكان ما . وللحقيقة فقد وجدت أنه قد حلل موضوعه تحليلاً يخلب الألباب ، ووجدت أن علاقتنا كانت صدى يتردد عن قرب للعلاقة التي تمتع هو بها مع «جوستين» ، حتى إنني أحس في بعض الأحيان وكأني شخصية من شخصيات « عادات » . وفضلاً عن ذلك ، فها أنذا ، أحاول أن أقوم بنفس الشيء معها مستخدمًا الكتابة ـ رغم أنى لا أمتلك مقدرته ولا أزعم لنفسي أى ادعاءات تعني أنني فنان . إنني أود أن أضع الأشياء في بساطة وكما هي ، دون تنسيق أو تنميق ـ يجب أن تغطى المواد المستخدمة في صورة « جوستين » بخطوط ترسم في أمانة ما تعانيه من تعاسة .

لم نلتق لفترة قصيرة بعد حادث الشاطئ ، فقد أصيب كلانا بدوامة من التردد ـ أو على الأقل كنت أنا كذلك . واستدعى « نسيم» إلى « القاهرة »لأمور تتعلق بالعمل ، ورغم أن « جوستين » ، حسبما أعرف ، كانت في المنزل بمفردها، إلا أنني عجزت عن أن أحمل نفسي على زيارة المرسم . وبينما كنت عابرًا ذات مرة سمعت عزف البيانو وكاد أن يحملني الإغراء على دق الجرس . فقد كانت صورتها وهي جالسة إلى البيانو الأسود بملامحها المحددة واضحة في خيالي . ومرة أخرى بينما كنت أسير ـ فيما بعد ـ قرب الحديقة رأيت شخص ما ـ لابد أنه كان « جوستين » ـ يسير قرب بركة الزنابق ، يظلل شمعة براحة يده . ووقفت مترددًا للحظة أمام البوابة الكبيرة حائرًا أأدق الجرس أم لا أدقه . وكانت « ميليسا » قد انتهزتها فرصة لزيارة صديقة لها في الصعيد . كان الصيف يحث الخطى ، والحر يكتم أنفاس المدينة وأنا أتوجه للاستحمام كلما سمح وقتي بذلك ، متخذًا ذلك الترام الصغير الذي يشبه العلبة ، وسيلتي في الانتقال إلى الشواطئ المزدحمة .

ثم حدث ذات يوم بينما كنت راقدًا على سريري أعاني من ارتفاع في درجة الحرارة بسبب جرعة من الشمس أكثر مما أحتمل أن دخلت « جوستين » في

هذا الهدوء الرطب لشقتي الصغيرة ، مرتدية ثوبًا وحذاء أبيض ، وتحمل تحت إبطها حقيبة يدها وبشكيرًا ملفوفًا ؛ وقد تألق في سرعة آسرة ، بهاء ، جلدها وشعرها السمراوان من خلال كل هذا اللون الأبيض . وعندما تكلمت كان صوتها فظًا مهتزًا . وبدا للحظة كأنها كانت سكرى ـ ربما كانت بالفعل كذلك. وأخرجت إحدى يديها وأسندتها إلى المدفأة وهي تقول : « إنني أود أن أضع حدًا لكل هذا بأكبر سرعة ممكنة . إنني أعتقد أننا قد تمادينا إلى الحد الذي يصعب فيه النكوص » . أما بالنسبة لي فقد شعرت بنوع رهيب من انعدام الشهوة يستنفد طاقتي وآلام مبرحة في الجسد والعقل تمنعني من أن أقول شيئًا أو أفكر في شيء . لم يكن في وسعي أن أتصور مضاجعتها ، فالنسيج العاطفي الذي نسجه كل منا حول الآخر ـ كان على نحو ما ـ يقف حائلاً بيننا : نسيج غير مرئي من قيم الوفاء ، والآراء ، والتردد ، الذي لم يكن لدى الجرأة لألقي به جانبًا . وعندما خطت للأمام خطوة قلت في صوت واهن : « إن هذا السرير فظيع وكريه الرائحة . لقد كنت أسكر . حاولت أن أمتع نفسي بنفسي لكنني فشلت ـ لقد ظللت أفكر فيك » . وأحسست بنفسي وقد شحب لوني بينما أنا راقد ساكن فوق الوسائد ، وفجأة أحسست بالصمت المخيم على الشقة الصغيرة ، وقد مزقته قطرات من صنبور يرشح الماء في أحد الأركان . ونهقت سيارة أجرة على بعد ، ومن الميناء جاء صوت الصفارة في زفرة واحدة سوداء، كزئير حيوان خرافي مكتوم . وأحسست للتو أننا بمفردنا تمامًا .

كانت الغرفة بكل ما فيها تخص « ميليسا » . منضدة الزينة التي تثير الرثاء وقد ازدحمت بعلب المساحيق الفارغة والصور : الستارة الرشيقة تتنفس في رقة كشراع سفينة في هواء العصر الخانق . كم رقدنا هنا أنا و « ميليسا » كل في أحضان الآخر نرقب التأرجحات البطيئة لتلك القطعة الشفافة من الكتان الزاهي . وتحركت « جوستين » بجسدها العاري القاسي عبر كل هذا ، كأنما كانت تتحرك عبر صورة المحبوب وقد احتوتها دمعة كبيرة . ولابد أن أكون

أعمى حتى لا ألحظ كيف امتزج بالحزن عـزمها على أن تنال ما تريـد . ورقدنا لفترة طويلـة ، ينظر كـل منا في عين الآخر ، وقـد تلامسـت أجسادنـا ، لا نكاد نتبادل إلا الشعور الحيواني بالضجر والذي يبعثه فينا ذلك الأصيل المتلاشي . وعندما ضممتها في رقة بين ذراعي لم أستطع أن أمتنع عن التفكير حينئذ كيف أننا لا نسيطر على أجسـادنا إلا قليلاً . وفكرت في كلمات « الأرنـاؤوطى » وهو يقـول : « لقد اتضح لى حينـذاك ، أن هذه الفتـاة قـد سلبتني كل متانـة خلقي بطريقة مخيفة ، إنني أحس كأن رأسي قد جز شعرها . غير أن الفرنسيين ، كما فكرت ، يتألمون دون شك عندما يواجهـون شيئًا لا يستطيعون الرجوع فيه إلى أحكـام مسبقة ، ويعـود ذلك لما جبلـوا عليـه من التردد الـذي لا نهاية لـه بين السعـادة والأسي . لقـد فطروا على البراعـة الـوقتيـة وحب الفنـون ، لكنهم لم يفطروا على المجابهة الدائمة للأمور ، إنهم يفتقدون إلى تلك اللمسة البسيطة من الخشونـة والتي تغلف العقل « الأنجلوسا كسـوني » . وقلت لنفسي : « حسنًا ، دعها تسير بى إلى حيث تشـاء ، فإنها ستجدنى نـدًّا لها . وفي النهايـة لن يكون هناك مكـان للأحزان » . ثم فكرت في « نسيم » ، الـذي كان يبدو وكأنه يـرقبنا (رغم أنى لم أكن أعـرف ذلك) من خلال تلسكـوب ضخم مقلوب ، كـان يرى صورنـا الصغيرة بعيدًا هناك على أفق آمـاله ومشاريعـه . كنت متلهفًا على ألا يتألم .

غير أنها كانـت قد أقفلت عينيهـا ـ إنهما الآن ناعمتـان متألقتان كـأنما قد صقلهما الصمت الذي يجثم كثيفًا على كل ما حولنا . وغدت أصابعها المرتعشة ثـابتة مستريحة فـوق كتفي . واستدرنـا نحـو بعضنا البعض كضلفتي بـاب تنغلقـان على الماضى ، وتمنعـان كل شيء من الـدخـول ، وأحسست بقبـلاتها التلقائية القلبية الهانئة وقد أخذت تشكل الظلام حولنا وكأنها لمسات متلاحقة من اللون ، وقـالت بعد أن انتهينـا من المضاجعة ورقـدنا مـرة أخرى يقظين ، «إنني دائماً رديئة للغاية في المرة الأولى ، لماذا يحدث ذلك » ؟ .

« ربما يرجع ذلك إلى ما عليه الأعصاب في حال . فأنا أيضًا كذلك » .

« إنك تخشاني بعض الشيء » .

وعندئذ نهضت على مرفقي وكأني قد استيقظت فجأة وقلت لها : « ولكن ماذا سنستفيد يا « جوستين » من كل هذا ؟ إذا كان هذا ... » غير أن رعبًا شديدًا تملكها الآن فوضعت راحتها على فمي وهي تقول : « بحق السماء لا تقدم أى تبريرات وإلا عرفت بأننا على خطأ . لا شيء في استطاعته أن يبرر ما فعلناه . لا شيء . ومع ذلك فلم يكن هناك مفر من أن يحدث الأمر هكذا » . وغادرت الفراش وتوجهت إلى منضدة الزينة وقد صفت عليها الصور وعلب المساحيق ، وكنست كل ما عليها بضربة واحدة كضربة مخلب النمر . وقالت « هذا ما أفعله أنا « بنسيم » ، وما تفعله أنت « بميليسا » إذ من الدناءة أن نحاول وندعى غير ذلك » . لقد اتفق هذا إلى حد كبير مع ما هيأنى « الأرناؤوطى » لتوقعه منها فلم أقل شيئًا ، واستدارت وأخذت تقبلني في ألم نهم إلى أن بدا كتفاى المحترقان من الشمس ينبضان بالألم حتى اغرورقت عيناى بالدموع . فقالت في رقة وحزن : « آه ، إنك تبكى . كم أود لو بكيت . فقد فقدت القدرة على ذلك » .

إنني أتذكر وأنا أحدث نفسي وقد أمسكت بها أتذوق دفء وحلاوة جسدها المالح من ماء البحر ـ فقد كان لحلمتي أذنيها مذاق مالح ـ أتذكر وأنا أقول لنفسي : « إن كل قبلة مني ستقربها من « نسيم » ، ولكنها تجعلني أكثر بعدًا عن « ميليسا » . إلا أن الأمر الغريب حقًّا هو أنه لم ينتابني أى شعور بالقنوط أو الألم ، ولابد أنها أيضًا من ناحيتها كانت تفكر بنفس النهج إذ قالت فجأة : « إن « بلتازار » يقول بأن هؤلاء الذين جبلوا على الخيانة كجزء من طبيعتهم ـ مثلى ومثلك ـ إنما هم « قباليون » حقيقيون . إنه يقول إننا أموات نعيش حياتنا كالأشياء المنسية التي تتجمع على حافة الجحيم . ومع ذلك فإن الأحياء لا يستطيعون الاستغناء عنها . إننا نمدهم بالرغبة في أن ينمو ، وأن يمارسوا مزيدًا من التجربة » .

حاولت أن أقـول لنفسي كم كان كل هذا غبـاء - إنها قصة زنا مبتـذلة من أرخص تفـاهات المدينـة : ولا تستحق حيلاً عـاطفية أو أدبيـة . ومع ذلك ففي مكان آخر ، في أعماق نفسي ، كان يبدو أنني أدرك أن التجربة التي أقدمت عليها سيكون لها الخاتمة الخالدة لدرس تعلمته ، وقلت لها في حنق : « إنك جادة أكثر مما يجب » . فقد كنت مغرورًا ولا أحب أن أشعر بأن هناك من ينتزعني خارج أعماقي . وأدارت « جوستين » عينيها الكبيرتين نحـوي . وقالت في رقة وكأنها تخاطب نفسها : « أوه كـلا ، إنها لحماقة مني أن أنشر كل هـذا الأذى كما أفعل ولا أدرك بأن هذا هـو دوري في الحياة . إنني بهذه الطريقـة وحدها ، بمعـرفة مـاذا أفعل ، يمكنني أن أتفـوق على نفسي ليس من السهل أن أحقق ذاتي .. إنني أتوق إلى أن أكون مسئولة عن نفسي . أرجوك ألا تشك في قولي هذا » .

ونمنا ، ولم يوقظني إلا صرير مفتاح « حميـد » وهو يدور في القفل وقيامه بأعماله المسائية المعتادة . كان متطيرًا بصورة غير عـادية ، رغم أنه كان متدينًا وكانت الحصيرة الصغيرة التي يصلى عليها ملفوفة وموضوعة في متناول يده على شرفة المطبخ . كان كما قال عنه « بومبال » « تركبه الجن » . كان يخيل إليه أن هنـاك جنيـًا في كـل ركن من أركـان الشقـة . كم تعبـت من سماع تمتمتـه «دستور - دستور » ، وهو يلقي بفضلات الطعـام في بالوعة المطبخ - فهنا يقيم جنى مهيب يجب التوسل إلى غفرانه . كان الحمام أيضًا مسكونًا بالجن . وكان في وسعي دائماً أن أكتشف « حميد » عندما يستخدم دورة المياه الخارجية ، إذ أنه كلما جلس على كرسى المرحاض انطلـق من بين شفتيه في صـوت مبحوح ابتهال لا إرادى « دستوركم يا أسيـادى » ، وهذا الابتهال يجعل الجنى مسالمًا وإلا سحبه إلى شبكـة المجارى . وأنا الآن أسمعـه يتمتم لنفسه في خفـوت وهو يحك أرضية المطبخ بشبشبـه القديم المصنـوع من اللباد في صوت يشبـه حية «البواء » .

أيقظت « جـوستين » من تهويمة قلقـة وتحسست عينـاى ، فمها وعينيهـا

وشعرها الناعم بذلك الفضول المعذب الذي كان يشكل على الدوام أكثر العناصر في شهوتي . وقلت لها : « يجب أن تغادر هذا المكان فسيحضر « بومبال » من القنصلية بعد وقت قليل » .

إنني أتذكر الفتور الذي ارتدينا به ملابسنا خلسة ، وكيف أخذنا طريقنا إلى السلم المعتم المؤدى إلى الطريق صامتين صمت شركاء جريمة . لم نجرؤ على أن نشبك ذراعينا ، غير أن أيدينا كانت تلتقي بطريقة عرضية بينما كنا نسير ، وكأنها لم تنفض عنها سحر الأصيل ولا في وسعها احتمال الفراق . وانفصلنا كذلك صامتين ، عند الميدان الصغير بأشجاره الجافة والتي أحرقتها الشمس فجعلتها في لون القهوة ، انفصلنا ونحن نتبادل نظرة واحدة ـ وكأننا نبغى أن يحتل كل واحد منا وإلى الأبد مكانًا في عقل الآخر .

كان الأمر يبدو وكأن المدينة قد تحطمت عليّ ، وأنا أمشي فيها دون غاية كما يمشي الناجون بعد زلزال في مدينتهم ، حيرى إذ يجدون أن كل ما تعودوا عليه قد تغير . وأحسست بالصمم على نحو غريب ولم أعد أتذكر شيئًا إلا أنني قد هرعت بعد ذلك بوقت طويل إلى « بورسواردن » و « بومبال » في البار ، وأن الأول تلا علينا بعض أبيات من قصيدة « المدينة » المشهورة للشاعر الشيخ ، وأنها قد أمدتنى بقوة جديدة ــ وكأن القصيدة قد صيغت حديثًا : رغم أنني كنت أعرف الأبيات كلها . وعندما قال « بومبال » إنك الليلة غارق في الأفكار ،. فما الأمر ؟ . وددت لو أجبته بكلمات « عمرو » وهو يموت : أحس كما لو كانت السماء تكاد تنطبق على الأرض ، وأنا بينهما ، أتنفس من ثقب إبرة » .

الجــزء الثـاني

أن يكتب الإنســان كل هــذا ولا يتحـــدث بشيء عن « بلتــازار » إنما هــو في الحقيقــة إغفال وإهمال ، « فبلتــازار » على نحو مــا واحــد من مفاتيح المدينــة .
المفتــاح : نعم ، لقد تقبلتــه كما كــان في تلك الأيام ، وأحـس الآن بأنه لابـد من تقييمه في ذاكرتى من جديد . كــان هناك الكثير الذي لم أفهمه حينذاك ، والكثير الذي تعلمته منــذ ذلك الوقت . إنني أتذكر على وجــه الخصوص تلك الأمسيات التي لا تنتهى والتي كنا نقضيها في مقهى « الأقطار » نلعب الطاولة بينما يدخن « بلتــازار » في غليونــه الطــويل تبغ « الــلاكــاديف » المفضل لــديه . وإذا كــان «منمجيان » هو أرشيــف المدينة فإن « بلتازار » هو الشيطــان الأفلاطوني، أى إنــه الوسيط بين آلـهتهــا ورجــالها . إنني أدرك ، كما يبــدو ، أن هذا الأمــر غير واضح .

إنني أرى رجلاً طـويل القامة يرتــدي قبعة سوداء ذات حافــة رفيعة . وقد أطلق عليه « بومبال » اسم « العنزة النباتية » . إنه رفيع ، محني القامة قليلاً ، له صوت عميق ذو نقيق ، شــديد الجمال خاصــة عندما يقتبس أو يتلــو الشعر . وهو لا ينظر إليك مباشرة عندما يتحدث معك ـ وتلك خاصية لاحظت وجودها عند عدد كبير من المصابين بالشذوذ الجنسي . وهي عنده لا تدل على أنه المفعول به ، الأمر الذي لا يحس بالخجل منه ، ولكنه يحس إزاءه باللا مبالاة الحقيقية ، كانت عينــاه الصفراوان الشبيهتــان بعين الماعز هما عينى منــوم مغناطيسى . وهو يعفيك عنــدما لا ينظر إليك مــن نظرة قاسيــة إلى الحد الذي يجعلك تقضي الليل متكدرًا . إن الكيفيــة التي تتعلق بها يداه الهائلتــا البشاعة إلى جـذعه تثير الحيرة . كنت أتوق منذ ذلك الحين لــو قطعتهما وألقيت بهما إلى البحر . وكانت تنمو تحت ذقنه خصلــة واحدة من الشعر الغامق ، تشبــه تلك التي يراها المرء أحيانًا على ظلف تمثال صنم منحوت .

كم من المرات وجدت نفسي ، خلال تلك النزهـات الطويلة التي كنا نقوم بها قرب ميـاه القناة الراكـدة التي تشبه القطيفة ، أتسـاءل في حيرة عن الميزة التي يتمتع بها والتي شدتني إليـه . كان هذا قبل أن أعرف أى شيء عن « القـابال » . ورغم أن « بلتازار » يقرأ كثيرًا إلا أن حديثـه لم يكن مثقلاً بهذا النوع من المواد الــذي يـدعــو السـامع إلى الاعتقــاد بأنــه كثير الاطـلاع والقــراءة : مثل «بورسواردان» . إنه يحب الشعر والأمثال والعلم والسفسطة . غير أن لمسة من النـزق والقـدرة على التمييـز تكمن وراء تفكيره . ومـع ذلك فتحت ذلك النـزق يوجد شيء آخر ـ يوجد صدى يعطي لفكره وزنًا وثقلاً . كانت الحكم والأمثال تجرى في عروقـه ، وكانت تمنحـه في بعض الأحيان لمسـة عراف صغير . إنني أري الآن أنه كـان واحدًا من هؤلاء النـاس القلائل الـذين عثروا لأنفسهم على فلسفة ما وشغلـوا حياتهم بمحاولة ممارستها في الحيـاة ، وأعتقد أن هذه هي الصفة التي لم ترد إلى أصلها والتي كانت تعطى لحديثه تلك النبرة القاطعة .

كـان يقضى ، بـوصفـه طبيبـًا ، الجانـب الأكبر من وقت عملـه في عيـادة الأمراض التناسلية الحكومية (ولقد قال ذات مرة بطريقة جافة : « إنني أعيش في قلب حيـاة المدينة . في جهـازها البـولى التناسلى : إنـه نوع من الأمـاكن التي تجعل المرء يحس بـالعقل والاتزان ») . بـالإضافة إلى ذلـك فهو أيضًا الـرجل الذي لم يؤثر شذوذه بصورة ما على رجولة عقله الفطرية . إنه ليس واحدًا من المتطهرين ولا هو عكس ذلك . فكثيرًا مـا دخلت حجرته في شارع « لبسيس » ـ الحجرة ذات الكرسي الخيرزاني الذي يزيق ـــ لأجده يضاجع أحد البحارة . لم يكن يبرر تصرفه في مثل تلك الحالة ولا يشير إلى رفيق فراشه . كان يستدير في بعض الأحيان ، بينما يـرتدي ملابســه ؛ ثم يحشر الغطاء في حنان حـول جسد زميله النائم ، إنني آخذ تلك التصرفـات الطبيعية مأخذ التصرفات التي تستحق أن المديح .

إنـه مـزيج غـريب ، فقد سمعـت صوتـه في بعض الأحيـان وهـو ينتفض بالعاطفـة بينما يشير إلى بعض وجهات نظر « القابـال » التي يسعى كى تكون مفهومـة للمجموعة التي يقوم على تـدريسها . ومع ذلك فقد تنهـد ذات مرة في حسرة عندما تحدث في حماس عن بعض الملاحظات التي كان قد أبداها من قبل وقال بتلك النبرة المتشككة التي تتميز بها الإسكندرية والتي تنطوى بصورة ما على ولاء وثقة لا جدال فيهما للروحـانيات : « إننا جميعًا نسعى حتى نصل إلى أسباب معقولة لإيماننـا بالمستحيل » . وفي مرة أخرى قال بعد منـاقشة طويلة ومرهقـة مع « جوستين » حول الوراثـة والوسط : « آه ! يا عزيـزتى ، ماذا في وسعنا أن نقـول عن معرفتنا الفعليـة بالإنسـان ، بعد كل العمل الذي قـام به الفلاسفة على روحه والأطباء على جسده ؟ إنه ، بعد أن يقال كل شيء ويفعل كل شيء ، مجرد ممر للسوائل والأشياء الصلبة ، مجرد أنبوبة من اللحم » .

كـان زميل دراسـة وصديقـًا للشـاعـر الشيخ . إنه يتكلم عنـه في حـرارة وبطريقة تصل إلى الأعماق حتى إن كل ما يقـوله كان يحرك مشاعري : « إنني أعتقد في بعض الأحيان بأنني قد تعلمت من دراسته أكثر مما تعلمت من دراسة الفلسفة ، إن مساواته الرائعة بين السخرية والرقة كان من الممكن أن تضعه في مصاف القديسين لو أنه كان رجـلاً متدينًا . ولكن المشيئة الإلهية لم تجعل منه غير شاعر وفي أغلب الأوقـات شاعر حزين ، غير أن المرء يحس وهـو معه بأنه يمسك بكل دقيقـة تمر عـابـرة ليقلبها رأسـًا على عقب حتى يكشف جـانبهـا السعيد. كان يستهلك في الحقيقة ذاته ، ذاته الداخلية كي يحيا . إن أغلب الناس تتمدد وتـدع الحياة تلعـب فوقهـا كدفقـات دش فاتـرة . ولقد عـارض فرض ديكارت : «أنا أفكر إذًا فأنا موجود » بفـرض من عنده جاء فيه كما اعتقد شيئًا كهذا : « أنا أتخيل إذًا فأنا منتم وحر » .

ولقد قال « بلتازار » عن نفســه ذات مرة في ضجر ، « إنني يهودي ، بكل ما في اليهودية من رغبة دمويـة والتعطش للقدرة على القياس المنطقي . إنها الدليل

إلى نقاط الضعف العديدة في تفكيري ، والتي أتعلم كيف أوازنها مع بقية نفسي ـ وذلك بشكل رئيسي عن طريق « القابال » .

* * *

إنني أتذكر لقائي به أيضًا ذات ليلة شتوية باردة ، بينما كان يسير على الكورنيش ـ وقد غسلته الأمطار ، يتفادى الاندفاعات الفجائية للمياه المالحة عبر حواجزها . وتحت قبعته السوداء جمجمة تطن بذكريات « أزمير » و«السبورادس » حيث تكمن طفولته . وتحتها أيضًا كانت توجد تلك الإشعاعات التي تلازم الحقيقة والتي حاول أن ينقلها إلىّ فيما بعد في إنجليزية لا بأس بها باعتبار أنها لغة مكتسبة بالنسبة إليه . حقًّا لقد التقينا من قبل ، ولكنه لقاء وقف عند حدود الرؤية ، كان من الممكن أن يعبر كل منا الآخر دون أن نتبادل غير إيماءة ، لولا أن هياجه جعله يوقفنى ويمسك بذراعى قائلاً : « آه، في استطاعتك أن تساعدنى » . ثم صرخ وهو يمسك بى من ذراعى قائلاً : «أرجوك ، ساعدنى » . ومال وجهه الشاحب بعينيه اللامعتين الشبيهتين بعيني الماعز نحوى في عتمة المساء .

كانت أولى المصابيح الشاحبة المبتلة قد بدت تضفى توترًا وتصلبًا على المنظر الخلفي للإسكندرية والذي يشبه الورق المبتل : ضفة البحر وصفوف المقاهي الواقعة عليها ، وقد ابتلعها رذاذ يتوهج بضياء فسفورى ملطخ ومرتعش ، وهبت الريح نحو الجنوب الساكن . وقبعت مريوط متجمدة وسط نبات الغاب وكأنها أبو الهول رابضا . كان يبحث ، كما قال ، عن مفتاح ساعته ـ ساعة الجيب الذهبية الجميلة التي صنعت في ميونيخ . وفكرت فيما بعد ، إنه يخفي خلف العجلة المرتسمة على ملامحه المعنى الرمزي الذي تحمله له هذه الساعة : المعنى الذي يدل على الزمن الذي لا تقيده قيود والذي ينساب خلال جسده وجسدي ، لسنين عديدة وتبينه الآن تلك الساعة التاريخية . «ميونيخ » « زغرب » « الكارباثيون » . كانت الساعة لأبيه ، يهودي طويل القامة يرتدي

الفراء ، ويركب الزحافة . لقد قطع بولندا وهو راقد بين ذراعي أمه ، لا يعرف غير أن المجوهرات التي ترتديها في تلك الأماكن التي ينيرها الثلج كانت ثلجية الملمس ، لقد « تكتكت » الساعة في رقة وهي على جسد أبيه كما «تتكتك » الآن في رقة وهي على جسده ، وكأن الزمن يختمر في كل منهما . كانت تدار بمفتاح صغير على هيئة « عنخ » رمز الحياة عند المصريين القدماء ، كان يحتفظ به مربوطًا إلى حلقة مفاتيحه بقطعة من شريط أسود . وقال لي في صوت أجش « إن اليوم في الإسكندرية هو يوم السبت ». قالها وكأن الزمن هنا شيء مختلف، وكأنه على صواب أيضًا . « إن لم أجد المفتاح فسوف تتوقف الساعة» . وسحب الساعة فى رقة من جيب الصديري المبطن بالحرير لأراها في آخر ومضات العتمة المنداة بالمطر ، « ما زال أمامي حتى مساء الإثنين ، ثم تتوقف » . كان من العبث أن يفتح الغطاء الذهبي الرقيق دون المفتاح وأن تتعرى أحشاء الزمن النابض وهي تتحرك ، « لقد بحثت الأرض ثلاث مرات لابد أنه قد سقط مني فيما بين المقهى والمستشفى » .

كنت أرغب مسرورًا في معاونته . غير أن المساء كان يهبط في سرعة فاضطررنا لوقف البحث بعد أن قطعنا مسافة قصيرة نبحث في الفتحات التي بين الأشجار . قلت له : « بالتأكيد ، يمكنك الحصول على مفتاح آخر » . فأجاب وقد نفد صبره : « نعم بالطبع ، ولكنك لا تفهم ـ لقد كان هذا المفتاح يخص تلك الساعة . لقد كان جزءًا منها » .

وذهبنا ، كما أتذكر ، إلى مقهى على الشاطئ وجلسنا يملؤنا شعور باليأس وأمامنا قهوة سوداء بينما راح هو يتحدث عن ساعته التاريخية في صوت كالنقيق . قال أثناء ذلك الحديث : أعتقد أنك تعرف « جوستين » لقد تحدثت إلىّ عنك في حرارة . إنها سوف تأتي بك إلى « القابال » . وسألته : وما هو «القابال»؟ فقال وهو يكاد يكون خجلاً : إننا ندرس « القبالة » : إننا صورة مصغرة لمحفل ماسوني . ولقد قالت لى إنك تعرف بعض الشيء عن « القابال »

وأنك سوف تعجب به » . ولقد أثار هـذا الأمر دهشتي لأنني ، حسبما أتذكر لم أذكـر « لجوستين » على الإطـلاق الخط الدراسي الـذي أسير عليـه ـــ فيما بين نوبات الخمـول والقرف الطويلة . وحسبما أتـذكر فإن الحقيبة الصغيرة التي تحتـوي على الكتب « الهرمزيـة » وكتب أخـرى من نفس النـوع كانت مغلقـة وموجودة دائماً تحت سريري . وعلى أى حال فإنني لم أقل شيئًا . ثم انتقل هو الآن إلى الكلام عن « نسيم » فقال ، « إنه أكثرنا سعادة على نحو ما ، إذ لا توجد فكرة مسبقة عما يبتغيـه في مقابل حبه ، وأن يحب الإنسان بمثل هـذه الطريقة غير المغـرضة سلفـًا لشيء يجب تعليمـه لغـالبية النـاس بعـد سن الخمسين . فالأطفال يتمتعون بهذا النوع من الحب وكذلك « نسيم » إنني جاد فيما أقول».

« وهل كنت على معرفة « بالأرناؤوطى » الكاتب ؟ » .

« نعم ، كاتب « عادات » .

« حدثني عنه » .

« لقد أقحم نفسه علينا ، غير أنه لم ير المدينـة الروحية الكامنة تحت المدينة الدنيويـة . لقد كان كاتبـًا موهوبًا وحسـاسًا ولكنه كان « فـرنسيًّا » أكثر من الفرنسيين . وكانت « جوستين » صغيرة للغاية حتى إنه لم ينل منها غير الأذى. لقد كـان سيء الحظ . ولو أنـه وجد أخـرى أكبر منها قليـلاً ـ فكل نسـائنا كما تعرف « جـوستين » مختلفة الأنماط ـ لا ستطـاع ـ لن أقول أن يكتب بطـريقة أفضل ، فكتابه جيد الصياغة ، ولكنه كـان قد وجد في كتابته العزم الذي يجعله عملاً فنيًّا أكثر اصالة » .

وتـوقف يسحب نفسًا طـويلاً قبل أن يضيف في بطء : « أنت تـرى أنه قـد تجنب في كتابـه هذا التعرض لعدد من المسـائل التي تخص « جوستين » والتي يعرف أنها حقيقيـة ، غير أنه تجاهلها لأغراض فنيـة بحتة ـ كحادثـة طفلتها . إنني أظن أنه اعتقد بأن لها طعماً ميلو دراميًّا » .

« أية طفلة هذه ؟ » .

« كـان لجوستين طفلــة ، لا أدرى إبنــة من كـانـت . وذات يـوم اختطفت واختفت. كانت تبلغ من العمر ستة أعوام ، إن مثل هذه الأمور تحدث كثيرًا كما تعرف . ثم سمعت فيما بعـد أن البعض قد رآهـا أو تعرف عليها ، فبـدأت بحثًا لاهوادة فيـه خلال الحى العـربي لكل مدينـة ، خلال كل منـزل سيء السمعة ، حيث إنك تعـرف ما يحدث لـلأطفال الذين بـلا أبوين . إن « الأرنـاؤوطي » لم يذكـر هذا على الإطـلاق ، رغم أنه كثيرًا ما سـاعدها وهـي تلاحق كل خيط أو دليل، ولابد أنه قد رأى كيف أسهم فقدان طفلتها هذا في تعاستـها » .

« من أحبت « جوستين » قبل « الأرناؤوطي » ؟ » .

« ليس في وسعي أن أتـذكر ، فـالكثيرون من عشـاق « جوستين » يظلـون أصـدقاء لها ، ولكن في وسعك أن تقـول كما أعتقد إن أصـدقاءهـا الحقيقين لم يكونوا على الإطلاق عشاقًا لها . إن أهل المدينة على استعداد دائم للقيل والقال» .

غير أنني كنت أفكر في فقرة جاءت في كتاب « عادات » حيث تأتي «جوستين» مع عشيق لها عند المؤلف : كتب « الأرنـاؤوطي » يقول : « كـانت تحتضن هذا الرجل ، عشيقهـا ، أمامي في حـرارة ، وتقبله في فمه وعينيـه ، ووجنتيه ، حتى يده، ووقفت لا أدري مـاذا أفعل . ثم لمعت في خاطرى على نحـو مثير فكرة أنها كانت في الحقيقة تقبلني أنا في خيالها » .

وقال « بلتـازار » في هدوء : « الحمد لله إنني قـد أعفيت من اهتمام بالحب لا لزوم لـه . فاللوطي يفلت على الأقل من الصراع المخيف الذي يـواجهه المرء كي يمنح نفسه لشخص آخر . إذ عندما يضـاجع المرء واحدًا من نوعه فإنه يحتفظ وهو يستمتع بالتجربة بحريـة ذلك الجزء من عقله الذي يشغله « أفلاطون » ، أو الاهتمام بـالحدائق ، أو الحسـاب التفاضلي . لقـد تـرك الجنس الآن ودخل الخيال ، ولهذا شقى « الأرناؤوطي » كثيراً مع « جوستين » ، لأنها افترست كل ما كان يود المحافظة عليه منفصـلا ـ طبيعته الفنية إن شئت . إنه بعد كل شيء أشبه « بأنطـونيو » صغير وهي « كيلـوباترة » . وفي وسعـك أن تقرأ كل شيء

عنهـا في « شكسبير » . وعنـدئذ يمكنك أن تفهم ، بقـدر مـا يخص هـذا الأمـر «الإسكندريـة » ، لماذا تعرف هـذه المدينة ، بالمدينـة التى يضاجع النـاس فيها أرحامهم ــ أعني أن عبادة « سيرابيس » قد تـأسست هنا . فإن هذا الـذبول في القلب والانفلات في العشق جعل المرء ينقلب على أخته ، إن العاشق يرى صورته في أسرته مثل « ناريس » ، ولا مخرج هناك من هذه الورطة » .

لم يكن كل هـذا مفهومـاً لدى بصـورة كـاملة ، ومع ذلك فقـد أحسست إحساسا مبهماً بـوجود نوع من المطابقة بين العناصرر التي استخـدمها لربط الموضوع ، وبالتأكيـد فقد بدا الكثير ـ مما قاله ـــ لا يفسر ، والتي قرأت لأول مرة بخط يدها النابض بالحيوية ، هذا الاقتباس من « لافورج » .

« ليس لديَّ فتـاة صغيرة يمكن أن تتذوقني ، أي والله ، ممرضة . ممـرضة تعاودني لمجـرد حب التمريض ، ولا تعطي قبلاتها للمحتضرين ، إلا لمن كـانوا على حافة النهاية » .

وكتبت تحتها : « كثيرا ما استشهد (١) بها . وأخيراً اكتشفت بالصدفة أنها مأخوذة عن « لافورج ».. » .

وسألني « بلتـازار » فجأة ، « هل انتهيـت من حب « ميليسـا » لك ؟ إنني لا أعرفها ، لقد رأيتها فقط . سامحنى . فقد آذيت مشاعرك » .

في هـذا الوقت بـدأت أدرك كم كـانت تعانى « ميليسـا » ، غير أنها لم تنبس بكلمة لوم واحدة ، كذلك لم تتكلم عن « جوستين » قط . غير أنها كانت منطفئة ، وغدا لونها ـ لون جسدها ذاته ـ لونًا تمجه النفس . وبدا أمرًا متناقضًا للغاية ، إذ كنت أحس حينذاك بأنني أحبها أكثر من أى وقت مضـى ، رغم أنني كنت أجد صعوبة بالغة في مضاجعتها دون أبـذل جهدًا . كان ينخر فيَّ اضراب في المشاعر وشعـور بـالخيبـة لم أحس بـه من قبل ، ممـا جعلني أغضب معهـا في بعض الأحيان .

كانت أحاسيسي معها تختلف اختلافـًا تامًّا عن أحاسيسي مع « جوستين » ،

التي كانت تعـاني اضطرابًا بين أفكـارها ومقـاصدها يكـاد يماثل الاضطراب الذي أعـانيه ، والتي قـالت لي : « إنني أتساءل من الـذي اخترع قلب الإنسـان ؟ أخبرني ثم أرني المكان الذي شنق فيه » .

* * *

أما عن « القـابال » نفسـها ، فماذا يمكـن أن يقال عنها ؟ إن « الإسكنـدرية » مدينـة الملل والطوائف الـدينية . لقـد قذفت المدينـة بداعـر من رجال الـدين ـ «كاربـوكراتس » و « أنطـونيو » ـ مقـابل كل ناسك . داعـر قد أعـد ليغرق في الحسيـات بعمق وصـــدق كما يغـرق في العقل أي راهب في الصحـــراء . قـال «بلتـازار » ذات مرة : « إنك تتكلم بـاستهـانـة عن الإيمان بعدة أديـان . ولكن ينبغي عليك أن تدرك حتى تتمكن من العمل هنا ـ وأنا إذ أتكلم الآن فإنما أتكلم كـرجل متـدين إلى حـد الهوس لا كفيلســوف ـــ إنـه يجب على المرء أن يحاول التوفيق بين النقيضين من العـادة والسلوك اللـذين لا يرجعـان إلى الاستعداد الذهني للمواطنين ، ولكن إلى الأرض التي يعيشون عليها ، إلى الهواء والطبيعة . أقصد الحسيـة إلى أقصي مداها والتقشف الـذهني إلى أقصي مداه . إن المؤرخين يتنـاولون الإيمان بعـدة أديـان على أنها حصيلة مـزيج من المبـادئ الفكريـة المتصارعـة ، وهو تفسير لا يعطي تحديدًا كـاملاً للمشكلـة . إنها ليست قضية أجناس ولغات مختلطة . إنها لخاصية قـومية أن يسعى سكان « الإسكندرية » للتوفيق بين أعمق خـاصتين نفسانيتين يعون ويدركون وجـودهما . وذلك هو السبب في أننا متهوســون ومتطرفون . وذلك هو السبب أيضـًا في أننا العشاق الذين لا نظير لنا » .

ليس هذا المكـان بالمكان المناسب لمحـاولة كتابـة ما أعرفه عن « القـابال » ، حتى لو كنـت عازمًا على محاولـة تعريف « الأرضيـة غير المتينة لتلك المعـرفة بالأسرار الروحية » . والتي لا يستطيعها أحد من أتباع « هرمس » الطامحين ـ

لأن لمثل تلك الشذرات من الإلهام ، جذورها الممتدة إلى أسرار تلك الفلسفة . إنها خبرات فجة لا يمكن أن يشارك فيها غير المطلعين .
لقد تعرضت لمثل تلك الأمور في « باريس » من قبل ، وكنت على اعتقاد بأنني قد أجد فيها طريقًا يمكن أن يقودني إلى فهم أعمق لنفسي — النفس التي تبدو كمجموعة هائلة من الشهوات والنزوات المشوشة والتي لا شكل لها . واعتبرت كل هذا الحقل من الدراسة شيئًا منتجًا يعود بالفائدة على أعماقي كرجل ، رغم أن تشككًا طبيعيًا وغريزيًا قد جعلني غير مقيد إلى أية ملة دينية - ولقد درست قرابة عام على يدى « مصطفى » ، وهو رجل صوفي كنت أجلس في شرفة منزله الخشبية المتداعية كل مساء أستمع إليه وهو يتحدث في صوته الرقيق الذي يشبه نسيج العنكبوت . وكنت قد شربت الشربات مع حكيم تركى مسلم .
ولهذا سرت إلى جوار « جوستين » يحتويني شعور بالألفة خلال التواءات الشوارع التي تشبه جحر الأرانب والتي تتوج قلعة « كوم الدكة » ، أحاول بنصف عقلي أن أتخيل كيف بدا هذا المكان عندما كان حديقة مقدسة للأوثان ، وقد نحتت كل الرابية البنية الأحجار على هيئة ثمرة الصنوبر . إن ضيق الشوارع هنا يعطي المرء إحساسًا بالألفة رغم أنه لم يكن على جانبها شيء غير مساكن كجحور الأرانب الدودية الشكل ومقاه صغيرة مظلمة تضاء بمصابيح الزيت المرتعشة . وقد غمر هذا المكان الصغير من المدينة جو غريب من الطمأنينة ، منحها بعضًا من جو قرى الدلتا . وهناك أسفل عند الميدان البنى - البنفسجي غير المنتظم والقريب من محطة السكة الحديدية والذي بدا مهملاً في الغسق المتلاشي ، تجمعت جمهرات صغيرة من الأعراب حول مجموعات المتبارين الذين يلعبون العصا ، وقد كتمت صرخاتهم الحادة في الغسق الذاوى .
وإلى الجنوب كانت تلمع صفحة « مريوط » القاتمة . وسارت « جوستين » بسرعتها المعتادة في صمت ، وقد نفد صبرها لأنى كنت أتلكأ وألقى بناظرى خلال الأبواب على مناظر الحياة العائلية التي بدت (وهي مضاءة كمسارح العرائس) مليئة بمغزى درامي هائل .

كانت جمعية « القابال » تجتمع في هذا الوقت فيما يشبه كوخًا خشبيًا مهملاً من أكواخ الحراسة ، بنى عند الحوائط الترابية لسد قريب للغاية من عمود « بومبى » ، وأعتقد أن حساسية البوليس السقيمة للاجتماعات السياسية هي التي أملت اختيار مكان كهذا المكان . كان على المرء أن يعبر الخنادق والحواجز الموحشة التي أقامها علماء الآثار وأن يتبع ممرًا موحلاً عبر البوابة الحجرية ، ثم ينحرف بصورة حادة في زاوية قائمة فيدخل هذا الكوخ الكبير الخالى من الطلاء والذي كانت إحدى حوائطه جزءًا من سد ترابي وأرضيته من التراب المقوى بالطفلة . كان مضاء بقوة من الداخل بمصباحين بتروليين ومؤثثًا بعدد من الكراسي المصنوعة من الأغصان المجدولة .

كان الجمع مكونًا من حوالى عشرين شخصًا قادمين من أنحاء المدينة المختلفة . وقد لاحظت في شيء من الدهشة وجود « كابوديستريا » في أحد الأركان بقامته النحيلة وهيئته التي يبدو عليها الضجر . وكان « نسيم » ، بالطبع ، هناك . غير أن عدد الذين يمثلون الأقسام الأكثر ثراء والأكثر تعليماً في المدينة حينئذ كان قليلاً للغاية . كان هناك على سبيل المثال ـ ساعاتى متقدم في السن كنت أعرفه جيدًا بالعيان ـ رجل حلو الشمائل فضي الشعر كانت تبدو لى سماته الصارمة وكأنها تحتاج إلى كمان يوضع أسفلها حتى تغدو معبرة . عدد قليل من السيدات المتقدمات في السن واللواتى لا داعى لوصفهن ـ كيميائيًا ـ وجلس « بلتازار » أمامهم على كرسى منخفض وقد رقدت راحتاه القبيحتان في حجره . وعرفته في الحال في صورة جديدة كلية عن ذلك المقيم في قهوة «الأقطار » والذي لعبت معه الطاولة ذات مرة . ومرت بضع دقائق في ثرثرة متفرقة بينما أعضاء جمعية « القابال » في انتظار من لم يحضر بعد من الأعضاء. ثم وقف الساعاتى العجوز واقترح أن يفتتح « بلتازار » أعمال الجلسة واتكأ صديقى إلى الخلف في مقعده ، وأغلق عينيه وابتدأ يتكلم بذلك الصوت الغليظ الذي يشبه النقيق والذي أخذت تتجمع فيه عذوبة غير عادية .

وتكلم ، كما أتذكـر ، عن ينابيع النفس وقدرتها على إدراك نظام فطـرى قائم في الكون يكمن تحت « التحكم الـواضح للظاهرة وفقدانها لكيـانها » . إن عمليات تدريب المخ يمكن أن تمكن الناس من اختراق حجاب الحقيقة واكتشاف أشكال من التوافق بين المكان والزمـان تتطابق مع التركيب الداخلي لنفوسـهم . غير أن دراسة « القابال » كـانت علماً ودينًا معًا . وكان كل هذا مألوفـًا للغاية بالطبع . غير أنه خلال المسـائل التي كان يعرضـها « بلتازار » كـانت تخرج منه شذرات من الفكر غير عادية على صورة حكم رسميـة تظل تلح على العقل طويلاً بعد أن يغـادر المرء مجلسه . إنني أتـذكـره يقول على سبيل المثـال : « لم تفعل أى من الديانات أكثـر من المنع والحرمان وإضافة قائمة طـويلة من المحرمات . إلا أن المحرمات تخلق الرغبة التي أرادت الأديان علاجها . إننا أعضاء هذا « القابال » نقول « إنغمس ولكـن انتق » . إننا نطوع كل شيء حتى المنفعـة كى نجعل كمال الإنسان نـدًّا لكمال الكون ـ إننـا نعمد إلى التحطيم الدقيق للعقل بـانغماسه في المتعة » .

كانت جمعيـة « القابـال » تقوم في تكوينهـا على حلقة داخليـة من الأعضاء المطلعين على كل شيء (لو سمع « بلتازار » هذه الكلمـة لأصابه الفزع ولكني لا أعرف كيف أعبر عنهـا بكلمة أخرى) وحلقـة خارجيـة من الدراسين وإلى تلك الحلقة ينتمي « نسيم » و « جـوستين » كانت الحلقة الـداخلية تتألف من اثنى عشر عضـوًا منتشرين بصـورة واسعة على طـول البحر الأبيض المتـوسط ـ في «بيروت » و « يافا » و « تـونس » وهكذا . وفي كل مكان كان يـوجد معهد علمي صغير مكون من الـدراسين الذين كانوا يتعلمون استعمال الحسـاب الغريب ، حساب التفاضل والتكامل ـ العاطفي الذي وضعته جمعية « القابال » عن فكرة الإلـه . وكان أعضـاء الحلقة الـداخليـة من الجمعية يتبـادلون المراسـلات مع بعضـهم البعض كثيرًا ، مستخدمين في ذلك الطريقة القديمـة الغريبة في الكتابة ، والمعروفـة بالخطوط المتعـاقبة في اتجاهات متضـادة ، والتي يمكن القول أنها

كتابة تقرأ من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين في أسطر متبادلة . إلا أن أبجدية الحروف المستخدمة كانت رموزًا لحالات عقلية وروحية . لقد قلت ما فيه الكفاية .

في تلك الأمسيات الأولى جلست « جوستين » بيننا ، وقد شبكت ذراعيها في رقة بذراعينا ، تستمع في تواضع وتركيز مؤثر . وكانت عينا المحاضر في بعض الأحيان تستقران عليها للحظة في ألفة ومودة . هل أدركت حينئذ — أو هل اكتشفت فيما بعد — أنه ربما كان « بلتازار » هو صديقها الوحيد وبالطبع الشخص الوحيد الذي تضع فيه ثقتها في المدينة ؟ إنني لا أتذكر . كانت تقول «لقد كان « بلتازار »هو الشخص الوحيد الذي في وسعي أن أخبره بكل شيء ، لم يكن يفعل شيئًا إلا أن يضحك . ولكنه كان يساعدني بصورة ما على أن أطرد الفراغ الذي أحسه في كل ما أفعل » . وإلى « بلتازار » كانت تكتب تلك الرسائل الطويلة المعذبة والتي أثارت اهتمام عقل « أرناؤوطي » الفضولي . لقد سجلت في يومياتها أنهما قد فازا ذات ليلة قمرية بالدخول إلى المتحف حيث جلسا مدة ساعة بين التماثيل « العمياء كالكوابيس » تستمع إليه وهو يتكلم . قال أشياء كثيرة أثرت فيها حينذاك ولكنها اختفت فيما بعد من عقلها عندما حاولت كتابتها . ومع ذلك فإنها تتذكره وهو يقول في صوت هادئ متأمل شيئًا ما عن « هؤلاء الذين كتب عليهم من بيننا أن يسلموا أجسادنا إلى الغيلان » . ولقد اخترقت تلك الفكرة « جوستين » حتى النخاع على أساس أنها تومئ إلى نوع الحياة التي تحياها . أما بالنسبة « نسيم» فإنني أتذكره وهو يخبرني بأن «بلتازار » قد قال له في جفاء ذات مرة عند ما كان يعاني من أجل « جوستين » عذابًا عقليًا شديدًا ، « كل غيور على زوجته فاسق » .

ثم أضاف بعد ذلك قائلاً : « إنني لا أتكلم الآن باعتباري شخصًا عاديًا ولكنني أتكلم بصفتي عضوًا في « القابال » . إن الحب العاطفي الحاد إنما هو نوع من الزنا أيضًا حتى لو كان من رجل لزوجته » .

* * *

محطة « الإسكندرية » الرئيسية : في منتصف الليل . ندى ثقيل كالموت . وضجة العجلات وهي تشق أرصفة الشوارع الموحلة الزلقة ، برك جعلها الضوء الفوسفوري صفراء اللون ، وممرات من الظلام كالدموع في واجهة مسرح كئيبة مبنية بالطوب . ورجال البوليس في الظلام . وأنا واقف إزاء حائط طوبي ملوث لأقبلها قبلة الوداع إنها ستذهب لأسبوع ، ولكني أستطيع أن أرى، في رعبي ونعاسي أنها لن تعود أبدًا . لقد ملأتني بالخواء قبلتها الناعمة المليئة بالعزم وعيناها اللامعتان . وتأتي من عند الرصيف المظلم أصوات قرقعة مؤخرات البنادق وطقطقة الجنود البنغاليين . قوات هندية على صورة فرق صغيرة منقولة إلى « القاهرة » في مهام روتينية خاصة . ولم أحس بأن «ميليسا» تتركني حقًّا إلا عند ما أخذ القطار يتحرك ، وعند ما أخذ الشبح الواقف بالنافذة ، القائم في الظلام ، يفلت يدى ، أخذت أحس بكل ما جحدته بطريقة قاسية لا رحمة فيها ـــ وجرة القطار الطويلة نحو الضياء الفضي تذكرني بحركة سلسلة ظهرها الأبيض وهي تتقلب في الفراش . وأنادى «ميليسا » غير أن زفير القطار المدوي يمحو كل صوت . وبدأت القاطرة تميل وتنحني وتنزلق وتأخذ المحطة في طي الإعلانات واحدًا بعد الآخر ثم تكومها في الظلام بسرعة تشبه سرعة الشخص المكلف بتغير المشاهد في المسرح . ووقفت وكأني قد تركت وحيدًا على قمة جبل جليد عائم . وإلى جواري وقف جندي من « السيخ » يحمل بندقية وقد سد فوهتها بوردة . وهيكل القطار الذي يشبه الظلال ينساب على قضبان الصلب في الظلام ، وللمرة الأخيرة يميل القطار ثم يتدفق داخل نفق وكأنه قد تحول إلى سائل .

وأسير ذلك المساء خلال « محرم بك » ، أرقب القمر تغطيه السحب ، ينهشنى قلق لا يوصف .

خلف السحب ضوء ساطع ، وفي الساعة الرابعة رزاز خالص رفيع كالإبر وقد تصلبت الزهور المكسيكية في حديقة القنصلية ، وعلى أعضاء التذكير حطت

قطرات ماء فضية . لا طيور تغني في الفجر وريح خفيفة تجعل أشجار النخيل تميل بأعناقها تطقطق طقطقة متزنة خفيفة جافة . وللمطر فوق « مريوط » صوت رائع صامت .

الساعة الخامسة . أتنقل في حجرتها ، أتفحص الحاجيات الخالية من الحياة بتركيز عميق . علب المساحيق الفارغة . أدوية إزالة الشعر من عند «سارديس». رائحة الساتان والجلد . الرائحة البشعة لفضيحة توشك أن تقع ...

إنني أكتب هذه السطور في ظروف مختلفة تمام الاختلاف ، أكتبها هنا ، تحت شجرة الزيتون هذه ، في بركة الضوء التي يلقي بها مصباح زيتي ، وقد انقضت عدة شهور منذ تلك الليلة . إنني أكتب وأعيش مرة أخرى تلك الليلة التي تحتل مكانها في الذخيرة الهائلة لذكريات المدينة . وفي مكان آخر ، في حجرة مكتب واسعة وقد تدلت على منافذها ستائر سمراء نحاسية اللون كانت «جوستين » تنقل إلى يومياتها حكم « هيراكليتس » الفظيعة . إن الكتاب يرقد الآن إلى جواري . وعلى إحدى صفحاته تكتب : « من العسير أن يحارب المرء رغبة قلبه . فمهما كانت تلك الرغبة ، فإنها تبتاعها على حساب الروح » . وأسفل الصفحة على الهامش : « السائرون — ليلاً ، المجوس ، والمطلعون على الأسرار » .

هل فاجأني « منمجيان » في ذلك الوقت بأن همس في أذني تلك الكلمات : «هل تعرف ، أن « كوهين » يموت . كان تاجر الفراء قد اختفى عن الأنظار منذ شهور مضت . وكانت « ميليسا » قد سمعت أنه بالمستشفى يعاني من تسمم بولي . إلا أن المدار الذي وصفناه ذات مرة عن الفتاة كان قد تغير ، وكان الكاليد وسكوب « المنظار الملون » قد مال مرة أخرى وغاب « كوهين » عن الأنظار كشظية مختفية من الزجاج الملون . والآن فإنه يموت . ولم أقل شيئًا وأنا أجلس أتمعن ذكريات تلك الأيام المبكرة ـ اللقاءات في زوايا الشوارع والبارات . خلال الصمت الطويل الذي أعقب كلمات « منمجيان » الذي جز شعري تمامًا

بموسى حلاقة ، وأخذ في رش رأسي بعطـر ورق الغار المنقوع في الروم . وتنهد تنهيدة قصيرة وقال ، « كان يسأل عن فتاتك « ميليسا » .

وقلت له : « سـأخبرها بالأمـر » . وأوما الـرجل الأرشيف برأسـه ونظرة لزجة تـآمرية في عينيه . ثم قـال وهو يمسك بأنفاسه : « أى مـرض فظيع هذا المرض . إنه كـريه الـرائحة . إنهم يكشطون لـه لسانـه بسكين طبي . تفوه » . ووجه رزار بصاقه إلى أعلى نحو السقف كأنه يزيل ما علق بالذاكرة من عفونة : وكأن الرائحة قد غزت الدكان .

كانت « ميليسا » تـرقد فوق الكنبة في ثوبها المنزلى وقـد أدارت وجهها نحو الحائط . واعتقدت في أول الأمر أنها نائمة ، ولكن ما إن وصلت حتى استدارت وجلست . وأخبرتها بأنبـاء « منمجيان » فقـالت : « إنني أعرف بـالأمر ، فقـد أرسلوا إليّ الخبر من المستشفي ولكن ماذا في وسعى أن أفعل ؟ إنني لا أستطيع الذهـاب ورؤيته . إنه لا يعني شيئـًا بالنسبة لي . لم يكن كـذلك ألبتة ، ولم يكن كذلك أبدًا . » ثم نهضت وسارت بطـول الحجرة وأضافت في غضب يوشك أن يكون بكـاء : « إن له زوجة وأطفـالاً ، ماذا يفعلـون به ؟ » وجلست وواجهتني مـرة أخرى ذكـرى ذلك الكلب الأليف من كلاب البحـر وهو يحملق بحـزن في كأس خمر آدمية . وأعتقـد أن « ميليسا » قد أخذت صمتي مأخـذ النقد الموجه إليها لأنـها جاءت إليّ وهزتنى في رفق من كتفي ، وتساءلت : « ولكن ما العمل إذا كـان يموت بـالفعل ؟ » . كان السـؤال مـوجهًا إليَّ بنفس القـدر الموجه إليهـا . فانفجرت تبكى فجأة وركعت وقد وضعت رأسها على ركبتي : « أوه ، إنه لأمر مقزز للغاية ، أرجوك ألا تجبرني على الذهاب » .

« بالتأكيد كلا » .

« ولكن إن كنت ترى ضرورة ذهابي فسأذهب » .

ولم أقل شيئًا . كان « كـوهين » على نحو ما قد مات ودفن بـالفعل بالنسبة إلينا . كان قد فقـد مكانه في تاريخنا . وبدا لي أن بـذل أى جهد عاطفي عليه إنما

هو شيء لا جدوى منه . لم يكن لهذا علاقة بـالرجل الحقيقي الراقد وسط بقايا جسده الراحل في غرفة بيضاء نظيفة بالمستشفي . لقد غدا بالنسبة إلينا مجرد شخصيـة تـاريخيـة . ومع ذلك فإنـه مـا زال هنا يحاول في عنـاد أن يـؤكـد شخصيته ، يحاول العودة إلى حياتنا من عنـد نقطة أخرى في محيطها . ما الذي في وسع « ميليسا » أن تعطيه له الآن ؟ وما الذي تستطيع أن تحرمه منه ؟ .

وقلت لها : « هل تـرغبين في ذهابي إليـه ؟ » ولقـد واتتني هذه الفكـرة غير المعقولة فجأة ، في وسعى أن أدرس حبي أنا ونهايتـه ، في موت « كوهين » . لقد أرعبني أن يستغيث إنسان أوشـك على النهاية بحبيب قـديم فلا ينـال منه غير صرخة اشمئـزاز . لقد انقضى الزمـان الذي كان في وسع الـرجل العجوز أن يوقظ حنان حبيبتي أو حتى مجرد إثارة اهتمامها ، فقد حلت بها نوائب جديدة مقابل مـاضيها الـذي ذبلت فيه نوائبهـا القديمـة وتعفنت . وربما خلال فترة قصيرة ، إذا ما حـدث واستنجدت بي أواستنجـدت أنا بها ، فهل يعـود أيٌ من عند الآخر بصرخة تعبر عن الفراغ والتقزز ؟ وأدركت حينئذ حقيقة الحب كله : أدركت أنـه شيء مطلق يأخذ كل شيء أو يخسر كل شيء . أمـا المشـاعـر الأخرى كالحنان والـرقة وغيرهما ، فإنها لا توجدإلا عنـد الخطوط الحدية وتنتمي إلى تـراكيب المجتمع ومـا تعـود عليه . إلا أن « إفـروديت » ذاتها ـــ « إفـروديت » الصارمـة القاسيـة ـ إنما هي وثنيـة . إنها لا تنتقي عقولنـا وغرائزنـا ولكنها تنتقي عظامنـا . لقد أفزعني أن أفكـر في أن هذا العجـوز في مثل تلك اللحظة من حياته ، كان عاجزًا على أن ينال لحظة حنان إكرامًا لذكرى أى شيء قاله أو فعله: حنان من المرأة التي هي في أعماقها أكثر البشر حنانًا ورقة .

أن يُنسي الإنسان على هـذا النحو كان معنـاه أن يموت ميتـة الكلاب . وقلت لها: « سـأذهب لأراه من أجلك » ، بالرغم من أن قلبي كان ينتفض تقززًا من هذا المشـهـد ، غير أن « ميليسا » كـانت قد نـامت ورأسها الفـاحم على ركبتيَّ كلما كدرها شيء ما تلوذ بعالم النـوم البرىء ، تنزلق إليه في يسر وسهولة كغزال أو

طفل . ووضعت يدىَّ داخل « الكيمونو » الحائل اللون ودلكت ضلوعها البارزة وجبينها في رقة . وتحركت وهي نصف نائمة وتمتمت شيئًا ما في صوت خافت عند مـا تركتني أرفعهـا وأحملها في رقة مـرة أخرى إلى الكنبـة . وتأملتها لمدة طويلة وهي نائمة .

حل الظلام وكـان سكان المدينة يتـدافعون ، كما يتدافع غـرس من أعشاب البحـر ، نحـو المقاهـي المضاءة في أعلى المدينـة . وتـوجهت إلى « بـاسـترودى » وطلبت كأسًا مضاعفًا من الويسكـي شربته في بطء وأنا أمعن الفكر . ثم أخذت تاكسيًا واتجهت به إلى المستشفى .

تبعت المـرضـة المنـوط بها العمل خـلال الممـرات الطـويلـة الخضراء الخاليـة ممـا يميـزهـا والتي تنضح جـدرانها المطليـة بالـزيت جوًّا مـن الرطـوبة . وكـانت المصابيح البيضاء الشبيهـة بالأبصـال والتي يشع منها الضوء فتحـدد طريقنا تنغمس في الظلام كحشرات منتفخة مضيئة .

كانـوا قد وضعـوه في الغرفـة الصغيرة ذات السرير الـواحد الـذي تحجبه الستائر والتي كانت ، كما علمت فيما بعد من « منمجيان » ، محجوزة للحالات الخطرة والتي لا يتوقع لها أن تعيش طويلاً . لم يـرني في بادئ الأمر ، فقد كان يراقـب في إعياء ممـزوج بالدهشـة المرضـة بينما كانت تـرتب لـه وسائده . وأدهشني تعبير وجهه المتسيـد المتأمل الحذر ، الذي يحملق من فـوق المرتبة ، فقد غدا نحيلاً إلى حد يجعل التعرف عليـه أمرًا صعبًا . غار اللحم من على عظام وجنتيه معريًا الأنف الطويلة المعقوفة بعض الشيء حتى الجذور ، مظهرًا بروز المنخرين كنقرتين . وقد أعطى هذا للفم والفكين تعبيرًا فـرحًا لابد أنه كان يميز وجهه في صبـاه المبكر . كـانت عيناه محتقنتين من أثـر الحمى ، وشعره داكن خشن يظلل رقبته وحلقه ، غير أن خطوط وجهه العارية كانت نقية نقاء خطوط وجـه رجل في الثلاثين . واختفت للحـال صورتـه التي احتفظت بها طويـلاً في ذاكرتي ــ صورة قنفـذ يقطر عرقـًا ، صورة عجل بحـر أليف . وحلت محلها

صورة هـذا الوجـه الجديد ، هـذا الرجل الجديـد الذي يبـدو مثل ـ واحـد من وحوش سفر الـرؤيا . ووقفت برهبة طـويلة أرقب في دهشة شخصيـة غريبة عني وهي تتلقى رعايـة الممرضات ، بـإعياء ذاهل يختص به الملـوك وحدهم . وهمست الممرضة المنوط بها العمل في أذني : « لقد أحسنت بالحضور . إن أحدًا لن يحضر ويـراه . كان يهذي في بعض الأحيـان . ثم يفيق ويطلب النـاس . هل أنت أحد أقاربه ؟ » .

وقلت لها . « إنني شريكه في العمل » .

« سيفيده أن يرى وجهًا يعرفه » .

غير أني كنت أتساءل إذا ما كان سيعـرفني ؟ فلو أنى تغيرت نصف ما تغير لغدا كلانـا غريبًا تمام الغربة عـن الآخر . كان يرقد الآن على ظهـره ، وأنفاسه تصفـر بطريقـة فظة خـلال ذلك الأنف الطويل الـذي يشبه أنف الثعلب وقـد استرخى على وجهـه كنحت شـامخ في مقـدمـة سفينـة مهجـورة . وأزعجتـه همساتنا إذ استـدار نحوى فوجه إليّ نظـرة غائمة وإن كانت نقيـة متأملة بدت وكأنها نظرة طائر كبير من الطيور الجارحـة . غير أنه لم يتعرف عليّ إلا عندما تحركت بضع خطوات إلى جوار الفراش . ومرة واحدة فاضت عيناه بالضياء ـ مزيج غريب من المذلة والكبرياء الجريحة ، والخوف البرىء . وأدار رأسه نحو الحائط . وأدليت في اقتضاب برسالتي كلها في جملة واحدة . قلت ، إن «ميليسا» غائبـة ، وأنني قد أبـرقت لها لتعود بأسرع مـا في استطاعتهـا . وفي تلك الأثناء حضرت لأرى إن كان في وسعي أن أسـاعد على أى وجه من الوجـوه . واهتزت كتفـاه وخيل إليّ أن أنينًا لا إراديـًّا على وشك أن ينفجر من بين شفتيـه ، إلا أن ضحكة سـاخرة فظـة لا مبالية خـالية من النغم انطلقت للحـال مكان الأنين . وكأنها تسخر من جيفـة نكتة مائتة بـالية بالغـة العفن لا تستطيع أن تثير فيه شيئًا أكثر من فتحة فمه الشاحبة المقورة في خديه المشدودين .

قال : « إنني أعرف أنها هنا » وامتدت إحدى يديه في سرعة فوق الغطاء كفأر خائف تتلمس يـدي : « إنني أشكرك للطفك » . وبهذا بـدا فجأة وكأنه قـد أخذ يهدأ رغم أنه أبقي وجهـه بعيدًا عني . وقال في بطء وكأنه يجمع شتـات نفسه حتى يعطي للجملة معناها المحدد : « لقد أردت ، أردت أن أسوى حسابي معها بشرف ، لقد عاملتها بطريقة سيئة ، سيئة للغاية . إلا أنها بالطبع لم تلحظ ذلك ، إنها ساذجـة للغايـة ، غير أنها طيبة ، فتاة طيبـة » . كان غـريبًا أن يسمع المرء جملة « فتاة طيبـة » من شفتي واحد من « الإسكندرية » وقد نطقت بـالإضافة إلى ذلك بلجهة متكسرة ممطوطـة منغمة مألوفة لهؤلاء الـذين تلقوا تعليمهم في هذا المكان . ثم أضـاف ، وهو يبذل جهدًا واضحـًا ، ويناضل في مواجهة مقاومة داخلية هائلة : « لقد خدعتها فيما يختص بمعطفهـا . لقد كان مصنوعًا من جلد عجل البحر حقًّا كذلك كانت العثة قـد غزته . فعملت على أن تعاد خياطته . لماذا كان على أن أفعل شيئًا كهـذا ؟ وعندما كانت مريضـة لم أكن أعطيها مالاً حتى تذهب إلى الطبيب . أشياء بسيطة ، ولكنهـا ثقيلة العبء » . وتزاحمت الدموع في عينيه وضـاق حلقه وكأنه قد غص بجسـامة تلك الأفكار . وابتلع ريقـه بجهد قـاس وقال : « لم تكن تلك الأفعـال جـزءًا من شخصيتي . سل أيًّا من رجـال الأعمال الذين يعرفونني . سل أىَّ إنسان » .

غير أن الارتباك بدأ يسيطر عليه ، فقادني وهو يمسكني في رقة من يدى إلى غابة أوهامه الكثيفة ، حيث كان يسير خلالها بقدم ثابته ومعرفة راسخة حتى إنني وجـدت نفسي أكـاد أسـاير تلك الأوهـام أيضـًا . وشكلت أوراق أشجـار مجهولـة كانت تمر على وجهه في سرعة قـوسًا فوق رأسـه ، بينما أرصفة من الحصي تحدد طريق العجـلات المطاطية لنقالـة مليئة بأجسام معدنيـة وأخرى قاتمة ، تتحدث عـن حافة الجحيم ، وعواء كـريه تتخلله عبارات زاجـرة باللغة العـربية . وكـان الألم أيضـًا قـد بدأ يبلغ عقلـه وإدراكه ويجسـد له الأوهـام . وتحولت أطـراف السريـر البيضـاء الصلبة إلى قـوالب من القـرميـد الملـون ،

وتحولت الـورقة البيـانية البيضــاء الخاصـــة بدرجـة الحرارة إلى وجه بحـــار أبيض.

كانــا يسبحان يـدًا في يد هــو و « ميليسا » ، عبر ميـاه « مريـوط » الضـحلة الحمــراء كــالـدم ، نحــو الأكــواخ الطينيـــة المزدحمة بــلا نظــام حيث وقفت «راكوتيـس» ذات مرة . وأعاد سرد أحــاديثهما بدقـة شديـدة حتى أنني رغم ضآلة نصيب حبيبتي من الحديـث ، استطعت أن أسمع صوتها الرصـين ، وأن أستنتج أسئلتها من الإجابات التي قدمهــا لها . كانت تحاول في استماتة إقناعه بالـزواج منها ، وهو يلف ويـدور لا يرغب في فقد جمال شخصهـا ، وبالمثل لا يرغب في توريط نفسه . لقد شدتني أمــانته الغريبة التي كان يعيد بها سرد كل تلك المناقشــة . والتي كان من الواضـــح أنها تحتل في ذاكرته مكــان واحدة من أعظم التجارب التي مــر بها في حياته . لم يكــن يعرف حينذاك كم كــان يحبها ، وكــان عليّ أنــا أن أعلمه هــذا الـدرس . ومن النــاحية الأخــرى كيف حـدث أن «ميليســا » لم تحدثني على الإطــلاق عن رغبتهــا في الـزواج ، لم تكشف لي على الإطلاق عن أعماق ضعفها وإرهــاقها كما فعلت معه ؟ لقد جرحني هــذا جرحًا عميقًا . لقد طعن كبريائي فكرة أنها قد أظهرت له جانبًا من طبيعتها في حين أنها احتفظت به خافيًا عني .

وتغير المشهد الآن مرة أخرى ووقعت قدماه على طـريق أكثر وضوحًا . لقد بدا الأمر وكأننا قد عثرنا في هذا الدغل الشاسـع من اللامعقول على أماكن خالية يسيطر عليها العقل السليم حيث استطاع أن ينفض عنه أوهامه الشاعرية . هنا تكلم عن « ميليسا » وهو يفيض بالمشـاعر وإن كانت مشاعر رصينة ، كزوج أو كملك . لقد بــدا الآن والجسد يموت وكأن كل مكــونات نفسه الـداخلية والتي احتجزت طويلاً خلف أكاذيب حياة مــورست بطريقة خاطئة ، قد انفجرت عبر السدود وفــاضت تغطي أقرب الأجزاء مــن وعيه . لم تكن « ميليسا » وحـدها التي تكلم عنها ـ فقد تكلم عن زوجته ـ وكان في بعض الأحيان يخلط اسميهما .

كذلك كـان هنا اسم ثالث ، « ربيكـا » ، كان ينطقـه بتحفظ أعمق ، بأسي عاطفي أكثر من الآخريين . وأخذت الاسم على أنه اسم ابنته الصغيرة ، لأن الأطفال هم الذين يوجهون الطلقة الأخيرة القـاضية وسط كل تلك التعاملات الفظيعة التي يقوم بها القلب .

وبينما أجلس إلى جـواره أحس نبضنا يـدق في انسجام وأصغى إليـه وهو يحدثني عن محبـوبتي بهدوء جـديـد مهيب ، لم يسعني إلا أن أرى الكثير من السجايا التي يتمتع بها هذا الرجل والتي كان من الممكن أن تحبها « ميليسا » . أى صدفة غريبة جعلتها تخطئ الرجل الحقيقي ؟ لقد بدا لى الآن منافسًا خطيرًا لم أكن متنبهـًا لقدراته ، بعيـدًا كل البعد عن ذلـك الشيء الذي يوضع مـوضع الازدراء كما كنت أنظر إليـه على الدوام ، وواتتني فكـرة دنيئة حتى أني أخجل من كتابتهـا . لقد شعـرت بالسرور لأن « ميليسا » لم تحضر لتراه وهـو يموت وإلا لرأته كما رأيته أنا الآن ، وربما اكتشفته مرة أخرى في غمار الصدمة . ولقد وجدت نفسي بسبب واحـد من تلك التناقضـات الوهميـة التي يسبح فيها الحب منتشيًا ، أحس الغيرة منه وهو يموت أكثر ممـا أحسست بها خلال حياته. لقد كانت تلك الأفكار أفكـارًا فظيعة بالنسبة لا مرئً عانى من الحب طـويلاً وكان من مريديه الظرفاء . ولكني عرفت فيها مرة أخرى وجه « إفروديت » الصارم اللامبالي البدائي .

وعرفت من خـلاله على نحو مـا ، من صدى صـوته وهو ينطق بـاسمها ، نضجًا كنت أفتقده ، لأنه قد تغلب على حبه لها دون أن يدمره أو يصيبه بالضرر . لقد تركـه ينضج كما يجب أن ينضج كل حب إلى صداقة متفانيـة تذوب فيها شخصيته . إنه لم يطلب أن يراها خوفًا من الموت أو لحاجته إليها كي تواسيه ، ولكنـه أراد أن يقدم لها من خـزائن رجل يحتضر ، من خزائنـه التي لا تفني ، عطية أخيرة .

كان معطف السمور الفاخر يرقد ملفـوفًا في ورق رقيق للغاية فوق الكرسي

عند نهايــة الفراش ، وكان في وسعي أن أدرك من نظرة واحــدة أنه لم يكن من نوع الهدايا التي تقــدم إلى « ميليسا » ، فقد كان حريــًا به أن يثير الاضطراب في صوان مــلابسـها الضيــق الرث ، متفوقـًا بحسنه على كـل ما لــديها . وقال في سعادة : « لقد كنت وأناحى أحس على الــدوام بالقلق فيما يختص بالمال . ولكن عندما تحتضر فإنــك تجد نفسك فجأة رجلاً ذا مال . » لقد كــاد أن يكون قادرًا على الابتهاج لأول مرة في حياته . غير أن المرض كان يربض هناك كعليل صبور ونذير لا يرحم .

كان يمر بين الحين والآخر بفترة قصيرة من النوم القلق والظلام يطن حول أذني المتعبتين مثل خليــة نحل . كــان الــوقت متأخــرًا ورغم ذلك لم أستطع أن أحمل نفسي على تركــه . وأحضرت لي ممرضــة ممن يناط بهن العمل كــوبًا من القهــوة وتحدثنــا في همس . لقــد كان مــريحًا لي أن أسمعهــا تتكلم ، فــالمرض بالنسبة لها لم يكن غير مهنة أجادتها وموقفها منه هو موقف الأجير الذي ينال أجره عن كل يوم يعمل فيه . قالت في صوتها البارد : « لقد هجر زوجته وطفلته من أجل امــرأة مــا . والآن لا ترغــب زوجته ولا المرأة التي كــانت عشيقتــه في رؤيته. حسنــًا » . وهزت كتفيهــا إن تلك المشاعــر المعقدة من الــوفاء لا تثير في نفسـها أى إحسـاس بالشفقة ، فقد كانت لا ترى فيها إلا نقاط ضعف لا تستحق منهــا غير الازدراء . وسألتها : « لماذا لا تحضر الطفلــة ؟ ألم يطلب رؤيتهــا ؟ » ولكنها سلكت سنتها الأمامية بظفر أصبعها الصغير وقالت : « نعم لقد طلبها ، ولكنه لا يود أن يفزعها بأن يجعلها تــراه وهو مريض . إنك تدرك أن هذا الأمر لا يسعد طفلــة . » والتقطت رشاشــة وأخذت تبــخ في تراخ شيئًا مــن المطهر في الهواء فوقنا ، مما ذكرنى بشكل قاطــع « بمنمجيان » . ثم أضافت قائلة : « لقد تأخر الوقت ، فهل ستمضي الليل هنا ؟ » .

كنت على وشك أن أتحرك غير أن النائم استيقظ وقبض على يدي مرة أخرى وقــال في صوت عميق ممــزق لكنــه يدل على ســلامــة العقل ، وكأنه قــد سمع

العبارات الأخيرة من حديثنا . « لا تذهب . ابق قليلاً . هناك شيء آخر كنت أفكر فيه ويجب أن أصارحك به » . واستدار نحو الممرضة وهو يقول في هدوء ولكن في وضــوح « اذهبي » فسوّت الفــراش وتــركتنا وحــدنــا مرة أخــرى . وأطلق تنهيدة عميقــة تبدو للمــرء ، إن لم يكن مراقبـًا وجهه ، وكأنها تنهيـدة ارتياح وسعادة . وقــال : « ستجد ملابسي في الدولاب » . كــان هناك بدلتان غــامقتان وأخرجت حسبما أشار صديرية واحدة منهما ، وأخذت أصابعي تتحسس ما في جيوبها حتى عثرت على خاتمين : « لقد عزمت على أن أتقدم أطلب الزواج من « ميليســا » إن رغبت الآن . لهذا السبب أرسلت إليها . ومع ذلك فما فــائدتى ؟ إسمي مثــلاً ؟ » وابتسم ابتســامــة غــامضــة وهــو ينظــر إلى السقف . «والخاتمان...» وأمسك بهما بين أصــابعــه في رقــة وتبجيل كما يمسك المرء بقربان المنــاولة المقدس : « إنهما الخاتمان اللذان اشترتهما « ميليســا » لنفسها منذ زمن طــويل . ولهذا يجب أن تأخذهما . فــربما ... » ونظر إليَّ نظرة طــويلة بعينين متألمتين متســائلتين . وقال : « ولكن كــلا . إنك لن تتزوجهــا . ما الــذي يضطرك إلى ذلك ؟ ولا يهمك خذهما والمعطف إليها » .

ووضعت الخاتمين في جيب معطفي العلــوي ولم أقل أى شيء . وتنهد مــرة أخرى ولدهشتي أخذ يغني ، في صوت واهن يكاد أن يكون خافتًا كصوت قزم صغير ، يتلو أبياتـًا قليلة من أغنية شائعــة إسمها « محال » . والتي كانت ذات يوم الأغنيــة التي جنت بها « الإسكندرية » ، والتــي كانت « ميليسا » مــا تزال ترقص على أنغــامها في الكباريه . وقــال لي : « اصغ إلى الموسيقي . » وفكرت في الحال في « أنطونيو » وهو يحتضر في قصيدة « كافافي » ـ قصيدة لم يقرأها على الإطلاق ، ولن يقرأها ألبتة . وزعقت الصفارات فجأة عند الميناء كنجوم تعاني الألم . ثم سمعت هذا القــزم مرة أخرى يغني في رقــة عن الحزن والسعادة ، لم يكن يغني « لميليسا » ولكنه كان يغني « لربيكــا » . وما أشد اختلاف هذا الغناء عن غناء جــوقة المرتلين العظيم الممزق للقلب الــذي سمعه « أنطونيو » ـــ الثراء

الذي تتمتع به حدة الأوتار والأصوات التي انطلقت في الشارع المظلم ـ آخر ما تمنح « الإسكندرية » لهؤلاء الذين اختارتهم نماذج يعبرون عنها . إن كل إنسان يغادر هذا العالم على أنغام موسيقاه الخاصة ، وفكرت وتذكرت وأنا أحس بالخجل والألم الحركات غير المتقنة التي كانت تقوم بها « ميليسا » وهي ترقص .

كان قد انساق الآن إلى حافة النوم وقدرت أن الوقت قد حان كي أتركه وأنصرف . فأخذت المعطف ووضعته في درج الدولاب السفلي قبل أن أخرج على أطراف أصابعي وأستدعي الممرضة المنوط بها العمل . والتي قالت « إن الوقت متأخر للغاية » فقلت لها « سأحضر في الصباح » . وكنت أعنى ما أقول .

وبينما أسير على مهل إلى منزلي عبر الشارع المظلم الذي تصطف الأشجار على جانبيه أتذوق ريح الميناء المالحة الطعم ، تذكرت « جوستين » وهي تقول في صوت أجش بينما ترقد في السرير : « إننا نستخدم بعضنا البعض كمعاول نهدم بها هؤلاء الذين نحبهم حبًا حقيقيًا » .

* * *

كثيرًا ما قيل لنا إن التاريخ محايد ، إلا أننا نأخذ ما يصدر عنه من تقتير أو وفرة مأخذ الأمر الذي تدبره قوة ما ، إننا في الحقيقة لا نصغي أبدًا ....

وها أنذا الآن أسير على شبه الجزيرة المكفهرة تلك ، التي تشبه ورقة مسطحة ، وتمتد كأصابع اليد (حيث تطقطق أمطار الشتاء بين الصخور في صوت كصوت القش) أسير وأنا متصلب متيبس تلفنى الرياح قرب شاطئ يخنقه أنين الإسفنج أبحث عن معني للنموذج .

وأعتقد كشاعر للوجدان التاريخي أنني مضطر إلى رؤية الطبيعة كحقل تسوده الرغبة الإنسانية ـ حقل قد مزق إلى مزارع وكفور ، وحرث لتقام عليه المدن . منظر عام شخبطته توقيعات الرجال والعصور . ومع ذلك فقد بدأت أعتقد الآن ، أن الرغبة قد آلت إلى الإنسان من الموقع الذي يعتمد عليه في تزويد

وتأكيد إرادتـه على مكانه في الأرض ، سـواء كان مستأجرًا لفـدادين مثمرة أو لغـابـة مجدبة . إنني لا أرى الآن أثـر ضربـاتـه الإرادية فـوق الطبيعـة (كما اعتقـدت) ولكني أرى النمو الـذي لا يقاوم ، لنظـريات الطبيعـة التلقائيـة غير المحدودة عن التباين والألم من خـلال هذا الإنسان . لقد اختـارت الطبيعة هذا المكان المسكين المتشعب نموذجًا لها . ولذا يبـدو من التفاهة بمكان أن يقول أى رجل كما سمعت « بلتازار » يقـول ذات مرة « إن رسالة : « القـابال » ، إذا كان لها ثمة رسـالـة ، هي أن تشرف الوظيفة حتى إن قدر الأكل والإفـراز يرتفع إلى مرتبة الفنون » ، وسـترى في كل هذا ازدهارًا للشك الكامل الذي سيقوض إرادة البقاء . إن الحب وحـده هو الذي في وسعـه أن يمد الإنسان بسنـد لفترة أطول قليلاً .

إنني أعتقد ، أيضًا ، أن شيئًا كهذا كان يجول بخاطر « الأرناؤوطي » عندما كتب : « لقـد انتهى البشر كحـالات نفسيـة تطـرح أمـام الكـاتب . إن النفس الإنسـانية المعـاصرة قد انفجـرت في ظل الأبحاث التي يقـوم بها هؤلاء الـذين يفسرون ما غمض من الأمور فماذا بقي الآن للكاتب ؟ » .

لعل إدراكي لهذا الأمر هـو الذي حدا بى إلى اختيار تلك البقعـة الحالية كي أقضي بها السنوات القليلة القادمة ـ في هذا اللسان الذي حرقته الشمس في جزر بحر « إيجة » . إن هـذه الجزيرة المحـاطة بالتـاريخ من كل جانب هي وحـدها الخاليـة من كل مرجع تـاريخي . إنها لم تـذكر ألبتـة في تواريخ الجنس الـذي ننتمي إليه . إن ماضيهـا قد رد إليها من خلال المكان ـ لا عبر الـزمان ـ حيث لا توجـد بها معابد ولا حـدائق ولا مدرجات تفسد الأفكـار بمقارناتها الـزائفة . صف من القوارب الملونة ، وميناء فوق التلال ، ومدينة صغيرة جعلها الإهمال جرداء .

هذا كل ما هنـاك . وسفينة تجارية تمر بها مرة كل شهر خـلال طريقها إلى «أزمير» .

وتتسلق عـواصف البحر ، في تلك الأمسيـات الشتويـة ، صخور السـاحل الوعرة وتغـزو أحراش الوديان الهائلة التي لا يرعـاها أحد حيث أسير أتحدث فجأة بلغة عاميـة برية وأنا أدفع وأزيح جانبـا تلك الأشجار ذات الفروع التي تشبه قلاع السفينة .

إنني أسير هنا ترافقني تلك الإيحاءات التي تثير الحسد لماض لا يستطيع أن يشاركني فيه أحد . وحتى الزمن نفسه لا يستطيع أن يحرمنى منه . إن شعري مثبت إلى الخلف فـوق رأسي ، وراحة يـدي تحمي من قـوة الـريح بقايـا التبغ المشتعل في غليونى . وقد رصعت السماء من فوق بصفوف متماثلة من النجوم المتلألئة . ونجم « قلب العقرب » ينساب هناك وقد غلفه الرزاز .... إنني أهجر - وأنا أحس بالبهجة - أصدقاء وكتبـا في متناول اليد ، غرفًا مضاءة ، مداقئ بنيت لتقام حولها المناقشات - كل رغبة العقل المتمدين - إنني أفعل ذلك الشيء وأنا لا أندم عليه ولكن أحار له فقط .

وأرى في هذا الاختيار أيضًا شيئًا عرضيـًا ولدته بواعث أجد نفسي مضطرًا لاعتبارهـا شيئًا خارج نطاق مـا جبلت عليه . ومع ذلك ، فإنه لأمر غـريب حقًا إنني هنا فقط استطعت أخيرًا أن أدخل من جديد وأن أستـوطن مرة أخرى ، أنا وأصدقائي ، المدينة التي لا تندثـر وأن أصوغهم في نسيج متماسك كالفولاذ في الكتابات التي سوف تدوم نصف عمـر المدينة . أو هذا ما أتمناه . هنا على الأقل أستطيع أن أرى تاريخهم وتاريخ المدينة كشيء واحد وكظاهرة واحدة .

غير أن أغرب مـا في الأمر : أنني مديـن بهذه الانطلاقة « لبـورسواردن » - آخر شخص كـان على أن أعتبره مصدرًا محتمـلاً من مصادر الخير . ففي ذلك اللقاء الأخير ، مثلاً ، في الفندق في حجرة النـوم القبيحة الغالية والتي كان ينتقل إليهـا كلما عاد « بـومبال » من إجـازته .... لم أدرك في رائحـة الحجرة العفنـة الثقيلة رائحـة انتحار وشيك الـوقوع ، وأنى لي أن أدرك ذلك ؟ كنت أعـرف أنه تعس ، حتى لو لم يكن كذلك . فقد كان مضطرًا لأن يتظاهر بالتعاسة . إنه لأمر

متوقع ، من جميع فنـاني هذا العصر أن ينموا ـ على سبيل الموضـة ـ شيئًا من التعاسـة في نفوسـهم . ولكـونه « انجلو سـاكسـونيًا » فقـد كانت بـه لمسة من الضعف والإشفاق العاطفي الشديد على ذاته ، مما حدا به كي يشرب قليلاً . لقد كان في الليلة متوحشًا وغبيـًا وسريع الخاطر على التوالي . وأذكر أنه بينما كنت أستمع إليه خطـر ببالى ذلك الخاطر فجأة : « هنا إنسـان أهمل أحاسيسه بينما كان ينمى موهبتـه ، ولـم يحدث هذا الأمر عرضـًا ، ولكنـه حدث عن قصد وعن عمد ، فقد كان التعبير عما بنفسه خليقًا بأن يضعه في تناقص مع العالم ، أو أن وحـدتـه كـانت تهدد عقلـه وإدراكـه . لم يكن في مقـدوره احتمال حـرمـانـه واستبعاده ، وهو ما زال على قيد الحيـاة ، من قاعات الشهرة والتمايز . وتحت كل هذا كان يعاني على الدوام مـن إدراك لا يكاد يحتمل بخسته الذهنية . والآن لقـد بلغ مجرى حياتـه مرحلـة مثيرة : أعني النساء الجميـلات ، اللواتي كـان يحس دائماً ، شأنه في ذلـك شأن ريفي هياب ، أنهن بعيـدات المنال ، وهن الآن سعيدات بأن يراهن الناس في صحبته . إنهن يلبسن في حضرته مسوح عرائس الشعر الساهيات قليلاً واللائى يعـانين من الإمساك . ويرضي غرورهن إن هو أمسك على مشهد من النـاس بيد مـوضوعة في قفـاز لمدة أطول ممـا يسمح به العرف . ولابد أن كل هذا كان في البدء بلسماً لغرور رجل يعاني الوحدة ، ولكنه عمق في النهايـة شعوره بـالقلق والخطر . لقد بـدأت حريتـه التي اكتسبها عن طريق نجـاحه المالي المتـواضع تبعث بالضجر في نفسـه ، لقد أخـذ يحس أكثر فأكثـر بحاجتـه إلى العظمة الحقيقية بينما كـان اسمه ينتفخ كـل يوم كـلافتة مقززة . لقـد أدرك أن الناس يسيرون الآن في الشوارع مع الاسم الـذي اشتهر وليس مع الـرجل الذي يحمل هـذا الاسم . إنهم لم يعودوا ـ مـع أن كل أعماله إنما كتبها لتجذب الانتباه إلى الشخصية التي تعاني الوحدة وتتألم والتي أحس أنه يعبر عنها . لقد غطاه اسمـه كشاهد القبر . والآن تأتى الفكرة المرعبة : ربما لم يعد هناك أحد ليراه الناس ؟ ومع ذلك فمن يكون هو ؟ .

إنني لست فخورًا بتلك الأفكار ، فهي تفضح الحسد الذي يحسه كل فاشل إزاء كل ناجح . غير أن الضغينة غالبًا ما ترى بوضوح كذلك الوضوح الذي يرى به البر والإحسان . وفي الحقيقة فقد عبرت خاطرى وفي خط متواز لتلك الأفكار كلمات « كليا » التي استخدمتها ذات مرة في وصفه ، والتي لسبب ما أتذكرها الآن وأمعن الفكر فيها : « إنه منفر في بعض النواحى . ويكمن جزء من ذلك السر في تجهمه الطبيعي إذ يوجد في موهبته بذرة من الخجل ترجع إلى انزوائه . وللخجل قوانين : إذ ليس في استطاعتك أن تهب ذاتك بطريقة مأساوية، إلا لأولئك الذين يفهمون أقل مما يفهم الجميع . لأن تَفَهُّم إنسان يتطلب إظهار الشفقة على ما في هذا الإنسان من ضعف الارادة . ومن هنا فإن النساء اللواتي يحبهن والرسائل التي يكتبها إليهن ، إنما تقوم في عقله مقام الرموز لهؤلاء اللواتي يعتقد أنه يرغب فيهن ، ويستحقهن على أى حال من الأحوال ـ يا صديقي العزيز » .

وتنقطع عبارات « كليا » دائماً في منتصفها وتنتهى بتلك الابتسامة الساحرة المليئة بالرقة ـ « هل أنا مسئول عن حراسة أخى ؟ » .

(إن أهم ما أحتاج إليه هو تسجيل التجارب ، لا بالترتيب الذي وقعت به ـ لأن ذلك هو التاريخ ـ ولكن بالترتيب الذي غدت فيه لأول مرة ذات دلالة بالنسبة إلىّ) .

ماذا إذن ، كان حافز « بورسواردن » كي يترك لي خمسمائة جنيه بشرط واحد هو أن أنفقها مع « ميليسا » ؟ واعتقدت أنه ربما أحبها هو نفسه ، ولكن بعد تفكير عميق انتهيت إلى أنه لم يحبها هي ، ولكنه أحب حبي لها . وأنه بالنسبة لجميع فضائلي لم يكن يحسدني إلا لقدرتي على الاستجابة بحرارة لتودد الآخرين الأمر الذي كان يعرف قدر ه ، حتى لعله تمناه ، غير أنه سيكون محرومًا منه إلى الأبد لأنه يشمئز من نفسه . والحقيقة أن هذا الشيء بذاته كان

لطمة موجهة إلى كبريائي ، فقد كنت أحب منه أن يبدي إعجابه - إن لم يكن بالعمل الذي أنجزته - فعلى الأقل بما يكشف عنه هذا العمل من أمل يرجى لمستقبل أعمالى الأدبية . ما أغبانا - وما أضيق أفقنا ، إننا مجرد أباطيل تسعى على أقدام .

لم نكن قد التقينا لأسابيع ، فإن أحدًا منا لم يكن يتردد عادة على مسكن الآخر ، وعندما حدث أن التقينا تم ذلك في المرحاض المصنوع من الصفيح في الميدان الرئيسي إلى جوار محطة الترام ، كان ذلك بعد أن حل الظلام ، وكان من الممكن ألا يرى أحدنا الآخر ، لولا أن غمرت المصابيح الأمامية لإحدى السيارات هذا المكان الكريه الرائحة صدفة بضوء أبيض كالرزاز . وقال وقد تعرف على : « آه » ، قالها دون اتزان وبعد تفكير ، فقد كان مخمورًا (وكان قبل ذلك بعدة أسابيع قد ترك لي في وصيته خمسمائة جنيه ، وهذا يعنى أنه قد حكم على وقيمنى - رغم أن هذا الحكم لم يكن ليبلغنى إلا عندما يذهب إلى القبر) .

كان المطر يقرض السقف المصنوع من الصفيح فوقنا . وتقت للذهاب إلى منزلي ، فقد قضيت يومًا مرهقًا ، لكني تريثت في ضعف ، وقد عاقني عن الذهاب ما أحسه على الدوام من آداب المجاملة نحو هؤلاء الذين لا أكن لهم حبًّا. وحدد الجسد المترنح بعض الشيء ملامحه أمامي في الظلام . وقال في لهجة عاطفية واضحة : « دعنى أستودع فيك سر حرفة الروائي . فأنا ناجح وأنت فاشل . إن الجواب أيها العجوز ، هو الجنس والكثير من الجنس » . ورفع رأسه وذقنه وهو يقول أو يلقى بطريقة خطابية ، بكلمة « الجنس » : وأمال رقبته الضامرة كما تفعل الدجاجة عند الشرب وقضم الكلمة وهو ينبح كصول يدرب الجنود . وقال مكررًا بطريقة أكثر طبيعية : « سياط الحب ولكن تذكر » ، ثم جعل صوته يهبط إلى تمتمة كمن يهمس سرًّا خاصًّا . « عليك بالبقاء متحفظًا حتى التزمت . فتقاليد الجدة الخالدة كفيلة بأن تنقذك ، عليك أن تظل متحفظًا تعاني الألم . حاول وابدو كأنك تعاني انقباضًا ، فذلك عنوان النخبة الممتازة في

المجتمع . أما عن الأنخاب الوقحة ، والتصرفات القبيحة ما كان منها طبيعيًا أو هزليًا ، فهى أمور لا يسمح بها . لقد كانت هذه أعمال لا غبار عليها أيام «شوسر » و « اليصابات » إلا أنها لا ترفع من قدر المرء في هذه الأيام ــ كن متزمتًا وتلفع بثياب الوقار كشيخ من شيوخ الكنيسة » . وأدار نحوي في نفس اللحظة التي نفض فيها عن نفسه كل دخيلته وجهًا تشكل فحاكى غطاء الزرار . كان مشدودًا ضيقًا غريب المنظر . وشكرته غير أنه أزاح شكري جانبًا بطريقة ملكية . وقال : « كل هذا مجانًا بلا مقابل » . ثم أمسك بى من يدى وقادنى إلى الخارج ، إلى الشارع المظلم . وسرنا نحو وسط المدينة كعبدين ، ككاتبين تربطهما الزمالة ، يثقل كلاً منا إحساس مختلف بالفشل . كان يتحدث بثقة إلى نفسه في تمتمة لم أستطع تبينها عن أمور تهمه . وعندما استدرنا نسير في «شارع الراهبات » توقف أمام باب مضاء هو باب منزل سيىء السمعة وقال : «يقول « بودلير » إن المضاجعة هي موال الرعاع ، ولكنها للأسف لم تعد كذلك ! إذ أن الجنس يموت . وبعد قرن آخر سنترقد ولسان كل منا في فم الآخر ، في صمت وبلا وجد كفاكهة البحر . حقًا ! سيحدث هذا ما في ذلك شك » . ثم استشهد بالمثل العربي الذي يستخدمه كالشيء المميز لثلاثيته . « الدنيا زى الخيارة ــ النهاردة في إيدك وبكرة في .... » وتابعنا بعدئذ خطانا نتقدم نحو الفندق الذي يقطنه « كابو جلمبو » وهو يكرر في سعادة ظاهرة قوله « ما في ذلك شك . » لما في جرسه من نعومة متفجرة . كان شاحبًا هزيلاً ، وقد طالت ذقنه ، غير أنه كان يتمتع بمعنويات طيبة بعد هذه النزهة ، والتجأنا إلى زجاجة من الجن كان يحتفظ بها في « الكومودينو » إلى جوار سريره . وأشرت إلى الحقيبتين المنتفختين والقائمتين إلى جوار منضدة الزينة وقد تم ربطهما بالأحزمة ، وكان معطفه الواقي من المطر ملقى فوق أحد الكراسي وقد حشي بالصحف ، كذلك بيجامته ، ومعجون الأسنان .... إلخ . فقال إنه كان يعتزم اللحاق بقطار المساء إلى « غزة » . كان يود أن يستجم وأن يزور « بترا » .

وكانـت ترقد فـوق رخام منضـدة الزينــة ، مسودات آخـر رواية كتبهـا وقد صـححت ولفت وكتب عليها العنوان . وعرفت في مسلكـه الفظ واكتآبه الإرهاق الذي يلاحق الفنان عندما يصل بواحدة من أعماله إلى نهايتها . تلك هي لحظات الهبوط النفسي عند ما تبدأ هواجس الانتحار في الانتعاش من جديد .

إنني لا أستطيع لسوء الحظ أن أستعيد إلا القليل من المنـاقشة الفعلية التي دارت بيننا ، رغم أني كثيرًا ما أحاول استعادتها كـاملة . وإذا عدنا إلى الماضى ، فإنني أجد كون هذا اللقاء هو اللقـاء الأخير قد أحاطه بأهمية لا يستحقها دون شك . فإن « بورسواردن » لم يكف عن الوجود كهدف من أهداف هذا الكتاب ، لقـد انتقل كما سننتقل جميعـًا إلى المرآة الـزئبقية العـاكسـة التي هي ذكـرى أصدقائنـا ، حيث نترك وراءنا أمراضنـا ، وأفعالنا الشريرة ، وأوكـار رغباتنا التي تشبـه أعشـاش الـزنابير ، والتي مـازالت تـؤتي الخير أو الشر في العـالم الحقيقي . ومع ذلك فإن وجود الموت يزيد من حنكتنا ـ وتلك هي وظيفته : إنه يسـاعد على إبعاد الفكر في كل ما يجد على الزمن . ومع ذلك ففي تلك اللحظة كان كلانا يقف على بعد متساو من الموت ـ أو هـذا ما ظننته . ولربما كان يزدهر في أعماقـه حينذاك شيء من التصميم الصـامت على الموت ـــ ما المشكلـة ؟ ليس في وسعي أن أحدد . إذ ليس خافيًا أن أى فنان يرغب في إنهاء حياة قد استنفدها ـ (ففي كتـابه الأخير تصرخ إحـدى الشخصيـات : « لسنوات كـان على المرء أن يحتمل الشعور بأن الناس لا تعبأ به ، لا تبالى به مبالاة حقيقية ، ثم يدرك المرء ذات يوم بـانزعاج متزايـد ، أن الله هو الذي لا يعبأ وأن الأمر لا يقف عنـد هذا الحد ولكنه لا يعبأ به على أى حال من الأحوال) .

غير أن هذا الجانب يذكرني بجزء صغير من ذلك الحديث المخمور فقد تكلم في هزء وسخريـة عن « بلتازار » ، وعن انشغاله بأمور الـدين ، عن « القابال » (التي كان قد سمع باسمها فقط) واستمعت إليه دون أن أقاطعه وأخذ صوته يهبط بالتـدريج كساعـة حائط قهـرها ثقل الثواني . وانتصـب ليصب لنفسه

كأسًا وقال : « إن المرء يحتاج إلى قـدر هائل من الجهل حتى يقرب الله . واعتقد أنى كنت أعرف على الدوام أكثر مما يجب » .

إن تلك الشذرات تثير الغيظ في عقلى اليقظ في مثل تلك الأمسيات ، وأنا أسير في ظـلام الشتاء ، إلى أن أعـود في النهايـة إلى طقطقـة نيران خشب الزيتـون في المدفأة المقوسـة القديمة الطـراز ، التي ترقـد إلى جوارها « جـوستين » الطفلة نائمة في سريرها الهزاز المصنوع من خشب الصنوبر الذكى الرائحة .

إلى أى مدى أستطيع الادعاء بأني أعرفه ؟ إنني أدرك أن كل امرئً في وسعه أن يدعى معرفـة جانب من شخصيتنا كجزء من خبرته . إننا نـدير لكل إنسان وجهًا مخـتلفـًا من وجوهنـا التي تشبه المنشور . ولقـد وجدت نفسي مـرة بعد أخرى مفـاجأ بمشاهدات تـذكرني بهذه الفكرة . كما حـدث مثلاً عندمـا قالت «جوستين » عن « بومبال » : « إنه واحد من أعظم فرسان الجنس » . رغم أنه لم يبـد لى على الإطلاق مفترسـًا سـلابـًا . لم يكن غير مفـرط في ذاته إلى حـد يثير الضحك والسخريـة . كنت أرى فيه شخصًا مسليـًا ومؤثرًا ، خليقـًا بأن يكرم بعض الشيء لقدرتـه الفطرية على السخـرية . غير أنها لابد وقـد رأت فيه القط الكبير الناعم .

وأما بالنسبة « لبورسواردن » ، فإنني أتذكر ، أيضًا ، أنه شد قامته في نفس الوقت الذي كنا نتحدث فيه عن الجهل الديني ولمح صورته الشاحبة المنعكسة في المرآة . فرفع الكأس إلى شفتيه ، وأدار رأســه ، ثم ألقى بملء فيه من الشراب على انعكاس صـورته اللامع . ستظـل تلك الصورة باقيـة واضحة في رأسي ، انعكاس متميع لصـورة تلك الحجرة القذرة الباهظـة الإيجار والتي تبدو الآن مكانًا مناسبًا تمامًا للمشهد الذي حدث فيما بعد في تلك الليلة ذاتها .

* * *

« محل زغلول » ـ أوان فضية وحمائم موضوعة في الأقفاص . كهف كالقبو رصت على جـانبيه بـراميل سوداء وقـد اختنق بـدخان السمك المقلي ورائحـة

«الريتزيناتو » . رسالة قد شخبطت على طرف جريدة . هنا سكبت الخمر على معطفها ، وقد لمست نهديها دون قصد بينما كنت أحاول مساعدتها في إصلاح الضرر . لم تصدر ولا كلمة واحدة عن أى منا . بينما « بورسواردن» ما زال يتكلم في تألق عن « الإسكندرية » ومكتبتها التي احترقت . وفي الحجرة التي فوقنا يصرخ فقير مصاب بالتهاب سحائي .

يجيءُ اليوم ، على غير انتظار ، مطر ربيعي غير طبيعي ، يجمد غبار المدينة وحبوب لقاح أزهارها ، يدق سقف المرسم الزجاجي حيث يجلس « نسيم » عاكفًا على الرسم التخطيطي لوجه زوجته . لقد أمسك بها لحظة كانت تجلس تغني أمام النار وبين يديها جيتار ، وقد لفت عنقها بوشاح منقط ، وقد مالت برأسها . ويتداخل ضجيج صوتها في مؤخرة رأسه كآثار صوت هزة أرضية تندفع متراجعة . وينصب المطر فوق الحدائق صب نبال هائلة حيث تميل أشجار النخيل إلى الوراء وقد توترت ، أسطورة الأمواج الصفر الهامات تهاجم الفراعنة .

وتمتلئُ المدينة في الليل بأصوات جديدة ، أصوات شد الريح وضغطها ، حتى تحس وكأن المدينة قد غدت سفينة ، أخشابها القديمة تئن وتزيق مع كل هجمة يقوم بها الطقس .

هذا هو الطقس الذي يعشقه « سكوبي » . إنه يرقد على فراشه يدلك منظاره المكبر في حب ، ملقيًا بنظرة مشتاقة إلى الحائط الطيني الأصم ، الذي يحجب عنه منظر البحر .

إن « سكوبي » يناهز السبعين من عمره ولكنه ما زال يخشى الموت ، والشيء االوحيد الذي يخافه هو أن يستيقظ ذات صباح فيجد نفسه ميتًا ـ اللفتنانت كوماندر « سكوبي » الضابط بالإمبراطورية البريطانية . ولذا تهزه بشدة صيحات السقائين كل صباح تحت نافذته قبل الفجر فتوقظه ، إنه يقول : إنه يظل للحظة لا يتجاسر على فتح عينيه ، فيبقيهما مغلقتين تمامًا (خشية أن

تفتحا على مضيف سماوي أو على الملائكة وهم يترنمـون) ويتحسس حامل ـ الفطائر الموجود إلى جانب سريره حتى يمسك بغليـونه . إنه محشو على الدوام منذ الليلة السابقة وقد وضعت إلى جواره علبة ثقاب مفتوحة . ويستعيد رباطة جأشـه وإبصاره مع أول نفس من أنفـاس الدخـان . فيتنفس في عمق مسرورًا لتأكده أنه مـا زال على قيد الحياة مرة أخرى . فيبتسم . ويتفـرس فيما حوله . ويسحب فروة الخروف التي يستخـدمها كغطـاء حتى أذنيه وينشـد للصباح أغنيته القصيرة أغنية الشكر على انتصاره في صوت يطقطق كرقائق الصفيح : « اسكت أيها الطفل الصغير ، دع أمك تتكلم » . ويتلون خداه المترججان كخدي نافخ البـوق باللون الوردي من الجهد الذي يبذله . ويكتشف عنـدما يتنبه إلى نفسه أنـه يعاني من الصداع الـذي لا مفر منـه . ولسانه يـؤلمه من خمر الليلة الماضية . غير أن منظر يوم آخر من أيام الحياة يساوى الكثير لديه في مقابل تلك المضايقات التافهة . ويغنى « أسكت أيها الطفل الصغير » وهكذا . ثم يتوقف عن الغناء ليدس طاقم أسنانه في فمه . إنـه يضـع أصابعه المجعدة على صدره يعزى نفسه بصـوت قلبه وهو يعمل ، محافظًا على دورتـه الدموية المرتجفة في ذلك الجهاز المكون من الأوردة ، والذي لا يعوض قصوره (لست أدرى إن كان هذا حقًّا أم من نسج الخيال) إلا جرعات يوميـة قاتلة من البراندى. لذا فهو فخور بقلبه . ولو حدث أن زرته وهو في الفـراش فكن على يقين بأنه غالبًا ما سيقبض على راحتك قبضة فك حيوان صلب صـلابة القرن ويسألك أن تحس نبضـه . « إنه قوى كقلب ثور ، ماذا ؟ « يتكتك » بطريقة ظريفة » . هكذا يتحدث عن قلبه ، رغم البراندي . وحتى تجاريـه بعض الشيء فإنك تدس يدك داخل سترة نـومه الرخيصة وأنت تبلع ريقك لتختبر ضربات الحياة ، القليلة ، الحزينة ، الضعيفة النائية ـــ والتي تشبه دقات قلب جنين في شهره السابع . ثم يـزرر بيجامته في إعزاز ويطلق صيحتـه التي يقلد فيها زئير الحيوان الذي يتمتـع بصحة جيدة . ويقول : « وأقوم واثبًا من فراشي كالأسد ». وتلك واحدة أخرى من مأثوراته .

إنك لن تتعرف على سحـر هذا الرجل تعـرفًا كـاملاً ، حتى تراه بـالفعل ، وقد انحنى ظهره من الرومـاتيزم ، خارجًا يزحف كحطام إنســان من بين بطاطينه القطنية الخشنـة ، إن عظامه لا تلين بمقدار يجعلـه قادرًا على أن يقف منتصب القامة إلا في أكثـر شهور العام دفئًا ، وهـو يتمشى في عصارى أيام الصيف في الحديقة ، وطـاسة رأسه الصغيرة تتـوهج كشمس صغيرة ، وغليونـه مسدد نحو السماء ، وقد أطبق فكيه في تقطيبة عنيفة كمن يتمتع بصحة فاجرة.

إن أسطورة المدينـة لا تكتمل دون « سكوبى » ، وستفتقد « الإسكنـدرية » شخصيته عنـدما يتدلى ، في النهايـة ، جسده الذي جففتـه الشمس ، وقد لف في علم المملكة المتحدة ، في المقبرة الضحلـة التي تنتظره في جبانة الـروم الكاثوليك قرب شريط الترام .

إن راتب التقاعـد الضئيل الذي يتقاضـاه من البحريـة لا يكاد يكفي إيجار الحجـرة الوحيـدة التي يسكن فيهـا في المنطقة القـذرة الفقيرة المزدحمة خلف «شارع التتويج » والتي تحتلها الصراصير ، ولكنـه يغطي النقص الذي يعانيه براتب تقاعد ممـاثل يتقاضاه من الحكومة المصرية . فهـو يحمل بالإضافة إلى ذلك لقب « بمبـاشي » بقـوة البوليـس وهو لقب يثير في النفس الكبريـاء ، وقـد رسمت لـه « كليـا » صـورة رائعة وهـو في زى رجل البـوليس والطـربـوش القرمزي على رأسه ، وقد رقدت منشته الهائلة السميكة سمك ذيل الحصان في رشاقة على ركبتيه العظميتين .

إن « كليا » هي التي تمده بـالتبغ وأنا أمده بالإعجـاب والصحبة والبراندي إذا كانت حالة الجو تسمح بذلك . وقد أخذنا على عاتقنا أنا و « كليا » أن نتناوب الإشـادة بصحته . ونقـوم بإنهاضه عندما يضرب صـدره بقوة زائدة في غمرة حماسه لإثبات قـوته . ليس « لسكوبي » أصل ينسب إليه ـــ إذ يتجمع ماضيه كمادة أسطـوريـة حقيقية عبر دستـة من القـارات . كما أن حـاضره غنى بما

يتخيلـه عن صحته حتى أنـه لا يطلب المزيـد ـ إلا رحلـة يقـوم بها أحيانـًا إلى «القاهرة » خلال شـهر « رمضــان » عندما يغلق مكتبه حيث يفترض أن تتوقف كل الجرائم بسبب الصيام .

الشباب أمرد وكـذلك مرحلة الطفولـة الثانية . ويشد « سكـوبى » في حنان بقايا لحية كانت ذات يوم وسيمة كثة تشبـه الطوربيد ـ ولكنه يشدها في رقة ، ودلال ، خوفًا من أن يقتلعها كلها ويترك وجهـه عاريًا تمام العرى . إنه يتشبث بالحياة تشبث نوع من الأصداف بالصخور ، نوع لا يظهر عليه تأثير البحر كل عام إلا في صورة طفيفة للغايـة . يبدو وكأن جسده يتضاءل ، يتقلص ، بمرور فصول الشتاء ، وسرعــان ما ستغدو جمجمته في حجم جمجمـة الطفل . سيمر عام آخـر أو عامان ، وبعدهــا سنكون قادرين على أن نحشر جمجمتـه في قنينة وأن نخللهـا هنــاك محتفظين بها إلى الأبـد . إن التجاعيـد تترك على مـر الأيــام بصمات أشد عمقًا . ويبدو وجهه بدون أسنان كوجه قرد من العصور القديمة. وتوجـد فوق لحيته الهزيلة وجنتــاه الحمراوان في لون التوت المعـروفتان على سبيل التدليل بيسار السفينة ويمينها ، وهما تشعان دفئًا في جميع الأجواء .

ولقــد تردد « سكـوبى » كثيرًا على عنبر الاستبدال ، ففي عــام ١٩٠٠ نقلت سقطـة من على الصــاري فكـه من مـوضعـه وتحطم عظم الجمجمـة المحيط بالتجويف الأمــامي . ويسلك طاقم أسنانه الصناعية عنـدما يتكلم سلوك سلم متحـرك . إنــه ينتقل إلى أعلى ويدور داخـل جمجمته في حلـزون هـزاز . كما لا تستقر ابتســامته على حــال ، إذ من الممكن أن تظهر من أى مكــان مثلها في ذلك مثل ابتسامـة القط « شيشير » . وفي عام ١٨٨٤ بصبص بعينيه لـزوجة رجل آخر (كما يقـول هو) ففقد واحـدة منهما . والمفروض أن أحـدًا لا يعرف بهذا الأمر غير « كليـا » ، إلا أن استبدال العين التالفـة بعين صناعيـة لم تكن عملية متقنة . إذ عندما يكون هادئًا يصعب مــلاحظة عينه الصناعية ، غير أن التفاوت بين العينين يبدو واضحًا عنـدما يكون نشطًا . كـذلك توجد هنـاك مشكلة فنية

صغيرة ، وهي أن عينه الطبيعية تكاد تكون على الدوام حمراء كالدم . ولقد لاحظت منذ اللحظة الأولى عندما دعاني لرؤية رسم بالغاب بعنوان « أيها الحارس ، ماذا عن الليل ؟ » بينما وقف في ركن الحجرة ممسكًا في يده بمبولة قديمة ، لاحظت أن عينه اليمنى تتحرك أبطأ قليلاً من عينه اليسرى . وبدت حينذاك وكأنها تقليد مكبر لعين النسر المحنطة التي تطل متجهمة كئيبة من تجويف في المكتبة العامة . على أن عينه الصناعية وليست الطبيعة هي التي تنبض بعنف في الشتاء بطريقة لا تحتمل وتجعله عبوسًا بذيء اللسان لا يهدأ حتى يلقى بقليل من البراندي في معدته .

ويشبه « سكوبي » بعض الحيوانات البدائية عندما يكون هناك ضباب ومطر ، إنه يحمل معه شيئًا من الطقس الإنجليزي ، ولا يسعده شيء قدر استطاعته الجلوس في الشتاء إلى نار صغيرة ، يتحدث ، تنسال ذكرياته واحدة بعد الأخرى من ذهنه الذي يشبه آلة تالفة حتى يختلط الأمر عليه فلا يتبين أيها تخصه هو . وأرى من خلفه أمواج الأطلنطي الطويلة الرمادية تطوى المحيط ، وتحيط بذكرياته تحاصرها ، تخنقها في الرزاز ، تعميه فلا يرى . وهو عندما يتحدث ، وكأن وسائل الاتصال ضعيفة بالفعل ، والجو غير موات للإرسال . لقد تجمد الرجال العشرة الذين ركبوا النهر في « داوسون » وماتوا . هبط الشتاء عليهم كالمطرقة ، وأصابهم الويسكي والذهب والقتل بفقدان الإحساس ـ إنها حرب تشبه الحرب الصليبية ، إنها تجرى في الشمال في بلاد الأخشاب . في ذلك الوقت سقط أخوه في شلالات أوغندا ، لقد رآه في حلمه ، رأى جسده الصغير للغاية وهو يسقط كذبابة وللحال داعبته مخالب المياه الصفراء. كلا : لقد حدث ذلك فيما بعد عندما كان يحاول جاهدًا أن يتذكر متى حدث هذا الأمر بالضبط ، وقد أسقط رأسه المصقولة بين راحتيه ، غير أن الأمواج الرمادية تتداخل وتحمي التيارات العالية الحاجز القائم بينه وبين ذاكرته دون عناء . لذا كانت تصلنى كلمة العاصفة بدلاً من كلمة القرصان وتبدو جمجمته وكأنها قد

امتصت واعتصرت حتى لم يبق منهـا غير فـاصل رقيق من الجلـد يفصل بين ابتسامتـه وابتسامـة الجمجمة المختفية أسفل الجلـد . خذ بـالك من جمجمته بمعـالمها الـواضحـة : الفروع العظميـة داخل أصـابعـه الشمعية : القضبـان الشحمية التي تسند قصبتي ساقيه المرتعشتين .... إن « سكوبى » العجوز كما لاحظت « كليا » ، يشبـه بحق آله .. صغيرة قديمة تستخـدم في إجراء التجارب وقد تـركت من القرن الماضـى ، شيء ودود يثير العـواطف مثله في ذلك مثل أول صـاروخ ناري أخترعه « ستيفنسـون » .

إنه يعيش كنـاسك في الطابق الأعلى المنحـدر بعض الشيء . و « ناسك » تلك واحدة أخـرى من مـأثوراتـه ، إنه يطقطق ـــ عندما ينطق بها ـــ أصابعـه وهو يضغطها بطريقة فظة إلى خده ، تـاركًا عينه الدوارة تشير إلى كل ما انغمس فيه سرًّا من علاقات نســائية ، إنه يتصرف على هذا النحو من أجل خـاطر « كليا » ، ففي حضرة « سيدة كاملة » مثلها يحس بضرورة التلون بالشكل الذي يستره ، وسرعان ما يلقي هذا القناع جانبًا لحظة أن تغادر . غير أن الحقيقة أكثر مدعاة للحزن . إنه يعترف لي في صوت خفيض : « لقـد قمت على الوجه الأكمل ، بعمل ضابط الكشافـة في فرقة « هاكني » . كـان ذلك بعد أن سرحت بسبب ضعفي . غير أنه كـان عليَّ أن أبقى خارج « إنجلترا » أيها الصبي العجـوز . كان الضغط هناك أكثر مما أحتمل . كنت أتوقع كل أسبوع أن أرى عنوانًا رئيسيًا في جريدة نيوز أوف ذى ورلـد « أخبار العالم » يقـول ، شاب آخر يقع ضحيـة النزوات القذرة لضابط الكشافة .

لم تكن الأمـور في « هاكني » تهمنى كثيرًا . كـان صبيتي مهرة في صنـاعة الأدوات الخشبية بطـريقة يـدوية . كانـوا ، كما تعودت أن أدعـوهم ، صغارًا يتمتعون بالأناقـة والرشاقة . ولقد سجن ضابط الكشـافة الذي كان من قبلى عشرين عامـًا . وهذا أمر كـاف يثير الريب في نفسي . فمثل تلك الأشياء تـدعوك للتفكير . وكيفما كان الأمر فإنني لم أستطع الاستقرار في « هاكنى » . خد بالك ،

تذكـر لقد تخطيت الآن كل شيء ، إلا أنني أحب أن أكـون هادئ البال ـــ كما هو الحال الآن بالضبط . وعلى نحو ما فـإن المرء لم يعد يحس بالحرية في إنجلترا ، انظر الطريقة التي يخلعون بها القساوسة ، رجال الدين المحترمين . لقد اعتدت أن أرقد يقظًا أفكر في قلق .

وأخيرًا غادرت إنجلترا إلى الخارج بصفتي « حامل بـوق » خاص . فقد كان «توبى مانرينج » ، وهو ابن عضو في البرلمان ، يبحث عن ذريعة للسفر . فقالوا إنه يجب أن يكـون لديه حـامل بوق كان يـريد الالتحـاق بالبحريـة . هذه هي الطريقـة التي حضرت بها إلى هنا . وللحال رأيت أن الحيـاة هنا ظريفـة سهلة وبلا قيود .

وحصلت للفور على وظيفـة في فرقة مكـافحة الرذيلة تحت قيـادة « نمرود باشا » . وها أنذا أيها الولد العزيـز ، لا أشكو كما ترى . وماذا أرى عندما انظر من شرق هـذه الدلتـا الخصبة إلى غـر بها ؟ السمر الصغـار الملائكيين يغطون الأرض ميلا بعد ميل » .

كانت الحكومـة المصرية، بكرمها النمـوذجي الخيالي والذي تغدقـه تبذيرًا شرقيًا على أى أجنبي يبدي قليلاً من الود والصداقة ، قد قدمت له سبيلاً للعيش في « الإسكندريـة » . ويقال إن الـرذيلة قد بلغـت بعد تعيينه في فـرقة مكـافحة الرذيلـة حدًا هائلاً ، حتى وجد أنـه من الضروري ترقيته ونقله ، غير أنـه كان يؤكـد على الدوام أن نقلـه للعمل بفرع البـوليس الخاص بدائرة المبـاحث كان تـرقية يستحقهـا ـ وأنـا من نـاحيتي لم تكن لـدى الشجاعـة لأغيظه في هـذا الموضوع . لم يكن عمله شاقًا .

فهو يعمل لمدة ساعتين في حجرة آيلة للسقوط في الجزء العلوي من المدينة ، تحوطه البراغيث التي تقفز من خشب مكتبه المتعفن القـديم الطراز . إنه يتغذى غذاء متواضعًا في « اللوتيشيا » ، ويشـتري لنفسـه إذا ما سمحت نقوده بالشراء تفاحة وزجاجة من البراندي لوجبة المساء . إنه يقضي عصاري الصيف الطويلة

القاسية في النوم ، وتصفح الجرائد التي يستعيرها من بائع جرائد يوناني يكن له الـود ، (وبينما يقرأ يرق النبض في أعلى جمجمتـه ويهدأ) . إن بلوغ الكمال هو كل شيء في الحياة .

ويكشف تأثيث غـرفتـه الصغيرة عن روح عـالية القـدرة على الاختيـار ، فالأشياء القليلة التي تزين حياة الناسك تحمل رائحته الخاصة على نحو حاد ، وكأنها معًا تشكل شخصية مالكها . ولهذا السبب تعطي الصورة التي رسمتها له « كليـا » إحساسـًا بالشمول ، فقـد رسمت في خلفيتها كل ممتلكـات الرجل العجوز : مثلاً ، الصليب الصغير الذي تغطيه القذراة والمعلق فوق الحائط خلف السرير ، مع أنه قد مضت بضع سنوات منـذ تلقى « سكوبي » مواساة كنيسة الـروم المقدسـة وتعـزيـاتها له لمواجهـة الشيخـوخة ولمواجهـة تلك المثـالب الشخصية التي غدت الآن طبيعـة ثانية له . وبالقرب من الصليب تـوجد هناك صورة صغيرة ملـونة « للمونـاليزا » والتي كانت ابتسامتهـا الغامضة تـذكر «سكوبي » بأمه (أمـا من ناحيتى فإن الابتسامـة الشهيرة تبدو لي على الدوام ابتسامـة إمرأة تناولت غذاءهـا لتوها بعيدًا عن زوجهـا) . ومع ذلك فإن هذه أيضًا قد دمجت نفسهـا على نحو ما في وجود « سكوبى » ، وأقامت معـه علاقة خاصة وسرية . وكأن « موناليزا » التي تخصه لا تشبه أية واحدة أخرى ، إنها هاربة من « ليوناردو » .

ثم هناك بـالتأكيد حامل الكعك الذي يستخـدمه « ككومودينـو » ، وحقيبة كتب ودرج للكتـابة في نفس الـوقت . ولقد منحتـه « كليا » كل مـا يستحق من معاملة حانية ، فرسمته بأمانة دقيقة . ويتكون هذا الحامل من أربع طبقات كل منها محاطة بحافة مائلـة ضيقة غير أنها أنيقة . لقد اشتراه بتسعة بنسات من شارع « بوستون » عام ١٩١١ ، ولف معه حول العالم مرتين . إن « سكوبى » سيساعـدك بنفسه على أن تعجـب به دون أن يتعمد ذلـك أو يبدو عليـه أى أثر للمزاح . سيقول لك وهو يتناول قطعة من القماش ينفض بها التراب عنه : « إنه

شيء صغير جذاب أليس كذلك ؟ » وسيشرح لك في عناية أن الطبقة العليا قد صممت خصيصًا من أجل الخبز المحمر المدهون بالزبد ، والطبقة الوسطى من أجل الفطائر ، والسفلى من أجل « نوعين من الكعك » . ومع ذلك فإنها الآن تفى بأغراض أخرى . فعلى الرف العلوى يرقد المنظار المكبر والبوصلة والإنجيل ، وعلى الرف الأوسط توجد مراسلاته التي تتكون من ظروف خطابات معاش التقاعد ، وعلى الرف الأسفل ترقد في وقار مهيب مبولة يشير إليها دائماً باعتبار أنها « المتاع المنقول الموروث » ، والتي تقترن بها قصة غامضة سوف يستودعني إياها يومًا ما .

ويضيء حجرته مصباح كهربى ضعيف ، وحزمة من شعلات الزيت القائمة في مشكاة والموضوعة على « زلعة » فخارية مليئة بماء الشرب البارد . ويطل شباك حجرته الوحيد الخالى من الستائر على حائط طيني قاتم تساقطت قشرته كما أنه يحجب كل شيء . إنه يذكرني وهو راقد في السرير ووميض أنوار الليل الباهتة في لون الدخان تنعكس على زجاج بوصلته ـ يذكرني وهو راقد في السرير بعد منتصف الليل والبراندي ينبض في جمجمته بكعكة زواج قديمة ، في انتظار من ينحني فوقها ويطفئ شمعاتها .

إن آخر تعليقاته في الليل ، بعد أن يضعه المرء في السرير ويطمئن عليه ويحشر حوله الغطاء عدا عبارته السوقية « قبلني في عنف » والتي يصحبها على الدوام بطرقعة وغمزة من خده ـ إن آخر تعليقاته أن يقول بطريقة أكثر جدية : « أصدقني القول ، هل أبدو في حدود عمري ؟ » .

وفي صراحة فإن « سكوبى » يبدو مناسبًا لجميع الأعمار ، إنه أسن من ميلاد المأساة وأصبى من الموت الأثينى . ولد في فلك « نوح » حصيلة لقاء وقران عابر بين الدب والنعامة ، ولد قبل ميعاده من صيحة السأم التي تشبه قباع الخنزير والتي أطلقها قاع السفينة وهو يحط على « جبل أرارات » . وقد خرج « سكوبي » من الرحم على كرسي ذى عجلات إطاراتها من المطاط ،

مرتديـًا قماطًا من جلد الغزال ولفة من الصوف الأحمر . يغطى أصـابع قدميه القابضة ألمع زوج من الأحذية ذات الـرقبة المرنة الجوانب . يحمل في يده إنجيل العائلة المهترئ وقد كتب على صفحته الأولى « يشوع صموئيل سكوبى ١٨٧٠. أكرم أباك وأمك » . وقد أضيفت إلى تلك الممتلكات عينان كقمرين ميتين ، تقوس واضح في العمود الفقرى لهذا القرصان ، وحاسة ذوق للسفن القديمة . لم يكن ما يجري في عروقه دمًا ولكن ماء أخضر مالح ، من قاع البحر . مشيته دحرجة بطيئـة عسيرة تطحن ما تحتهـا كقديـس يسير في الجليل . حديثـه رطانـة الماء الأخضر وقـد غسل في خمسة محيطـات ـ دكـان أنتيكات مليئـًا بالخرعيـلات المهذبة منتفشًا بالمزاول ، أجهـزة ملكية ، البروبنيتينات وأجهزة قياس الضـغط الجوي . عندمـا يغني ، وهو غـالبًا ما يفعل ذلك فإنـه يغني بنفس النبرات التي كان إلـه البحر العجوز يغنى بها . وكقـديس من الأولياء فإنـه يترك قطعة من لحمه في كل مكان من العـالم ، في « زنجبار » « كولومبو » ، « تـوجولاند » ، وفي «ووفو » : الشذرات الصغيرة . المتسـاقطة والتي كان ينثرهـا منذ زمن طويل ، كقرون قديمة ، وأزرار أكمام القمصـان ، الأسنان والشعر .... والآن يتركه المد المنحسر عاليًا وجافًّا فوق أمواج الزمن التي تنطلق في سرعة ، « يشوع » المفلس رجل الأنواء ، ساكن الجزيرة ، الناسك .

* * *

إن « كليا » ، « كليـا » الرقيقة المحبوبـة والتي لا يمكن معرفة مـا في أعماقها هي أعظم صـديق « لسكـوبى » ، إنها تقضى الكثير من وقتهـا مع القـرصـان العجوز ، تهجر مرسمها الذي يشبه عش العنكبوت لتصنع له الشاى وتستمتع بالإصغـاء إلى ذلك المونولوج الذي لا ينتهـى عن حياة تقهقرت منذ أمـد بعيد ، فقدت دافعها الجوهرى ، لتعيش عوضـًا عن ذلك في متاهات الذاكرة .

أما عن « كليا » نفسها : إنني أتساءل إذا ما كان خيالي وحده هو الذي يجعل رسم صورتها يبـدو لى وكأنه أمر عسير للغـاية ؟ إنني أفكر فيهـا كثيرًا جدًّا ـ

ومع ذلك فإنني أرى كم راوغت في كل ماكتبت من التعرض لها بشكل مباشر . ربما تكمن الصعوبة هنا : في أنه لا توجد كما يبدو علاقة سهلة بين عاداتها ومزاجها الحقيقي . وإن كان على أن أصف بنيان حياتها الخارجي — وهي البسيطة إلى حد يجرد المرء من غضبه ، فهى رشيقة تتحكم في ذاتها — فهنالك خطر حقيقي في أن تبدو إما كراهبة أخلت مجال النزوات الإنسانية كله ليحل محله استغراق في البحث عن ذاتها التي لا تعرف الخوف . وإما كعذراء خاب أملها وانطوت على نفسها ، وقد حرمت نفسها من العالم بسبب نوع من الخلل العقلي أو بسبب جرح قديم لا يرجى له التئام .

إن كل شيء يحوط شخصها ذهبي في لون العسل ؛ دافئ النغم ، شعرها الأشقر المقصوص والمسوى بطريقة مجعدة تتركه ينساب قليلاً على ظهرها وقد عقصته عند أسفل العنق ، مما يبرز الوجه الصادق لعروس الشعر الصغيرة بعينيها الرماديتين الخضراوين المبتسمتين . إن في يديها المطبوعتين على الهدوء حذقًا وجمالاً لا يمكن للمرء أن يلحظهما إلا عند يراها وهي تعمل ، ربما وهي تمسك بفرشاة الرسم أو وهي تجبر ساق عصفور مكسورة بجبيرة مصنوعة من عيدان الكبريت .

إنني أستطيع القول إنها قد صبت ، وهي ما تزال دافئة ، في جسد الرشاقة صبية : أى في جسد ولد بلا غرائز ولا شهوات . أن تحوز الجمال الرائع ، وتملك ما يكفى من المال لتبنى حياة مستقلة وأن تكون حاذقة ، تلك هي العوامل التي أغرت الحساد وضعاف النفوس إلى اعتبارها محظوظة دون وجه حق . غير أن من ينتقدونها ويراقبونها يتساءلون عن السبب الذي من أجله حرمت نفسها من الزواج ؟

إنها تعيش حياة متواضعة رغم أنها ليست حياة بائسة ، تقطن في مرسم مريح يوجد في أعلى طابق بالبناء ، مؤسس بسرير حديدى صغير وعدد قليل من كراسي الشاطئ البالية والتي تنقل بكاملها إلى كابينتها الصغيرة في « سيدى

بشر » . أما الشيء الكمالى الوحيد لديها ، فهو حمام مبلط بالقيشانى البراق ، وضعت في أحد أركانه موقدًا صغيرًا لتغطيه بأى طبيخ تحس ميلا نحو طهيه لنفسها ، ومكتبة تدل أرضها المكتظة على أنها لا تبخل عليها بشيء .

إنها تعيش بلا عشاق ولا روابط عائلية ، بلا أحقاد ولا حيوانات مدللة ، مركزة كل اهتمامها على ما تقوم به من أعمال الرسم التي تأخذها مأخذ الجد ، غير أنها لا تبالغ في تلك الجدية . وهي محظوظة أيضًا في عملها ، فتلك اللوحات الجسورة الظريفة تشع لطفًا ومرحًا . إنها مليئة بروح المداعبة ـ إنها كأطفال محبوبين غاية الحب .

ولكنني أرى أنني قد تكلمت عنها سخفًا . باعتبار أنها « تحرم نفسها من الزواج » . كم سيثير هذا القول غضبها ، إنني أتذكرها وهي تقول ذات مرة : «إذا أردت أن نظل صديقين فعليك ألا تفكر أو تتكلم عنى كامرأة تحرم نفسها من أى شيء في الحياة . إن وحدتى لا تجردنى من أى شيء ، كما أنى لست مؤهلة لأى شيء غير ما أنا عليه . إنني أودك أن ترى مقدار نجاحي ولا تتخيلني مليئة بأنواع الفشل الداخلية . أما عن الحب ذاته ـ يا صديقى العزيز ـ فلقد أخبرتك من ذى قبل بأنه لا يعنيني إلا قليلاً جدًا ـ ويعنيني الرجال بدرجة أقل من ذلك . إن التجارب القليلة ، وفي الحقيقة التجربة الوحيدة ، التي أثرت في نفسي كانت تجربة مارستها مع امرأة . ومازلت أعيش في سعادة تلك العلاقة التي أنجزت على الوجه الأكمل ، وأى بديل جسدى لهذا الذي أحسه يبدو لي اليوم سوقيًا وفارغًا إلى درجة بشعة . ولكن لا تظن أنني أعانى أى مظهر من مظاهر الموضة الحديثة عن القلوب المحطمة . كلا . إنني أحس على نحو يثير الضحك بأن حبنا قد ربح حقًّا بخلاصه من المحبوب ، إذ يبدو الأمر وكأن الجسد كان يقف بصورة ما في طريق النمو الحقيقي للحب ، في طريق استيعابه وإدراكه لذاته . هل يبدو قولى هذا مفجعًا ؟ » وضحكت .

كنا ، كما أتذكر ، نسير في الخريف على الكورنيش الذي غسلته الأمطار تحت سماء معتمة هلالية ملبدة بالغيوم ، عندما وضعت ذراعها في ذراعي بطريقة ودودة ، بينما أخذت تتكلم ، وابتسمت لى في حنان حتى أن العابر بنا لا يلام إذا ما ظن أننا عاشقان .

وتابعت حديثها : « إن هناك شيئًا آخر قد تكتشفه من تلقاء نفسك ، شيئًا عن الحب ـ لا أقول معيبًا ، فالعيب يرقد في أعماقنا نحن ، ولكنه شيء أخطأنا فهم طبيعته . فحبك الذي تحسه الآن ، مثلاً ، نحو « جوستين » ليس حبًا مختلفًا لشيء مختلف ، إنه نفس الحب الذي تكنه « لميليسا » : يحاول التعبير عن نفسه خلال « جوستين » . والحب شيء ثابت بقدر هائل وليس مخصصًا لكل منا ، إلا جزء منه ، نصيب ما . إنه قادر على الظهور في صور لا نهاية لها والارتباط بأناس لا حصر لهم . إلا أن كميته محدودة ويمكن استهلاكه ، فيغدو بضاعة بائرة ويذبل قبل أن يؤتى مفعوله الحقيقي . إن غاية الحب ترقد في مكان ما في أعمق أجزاء النفس حيث يمكن التعرف عليها باسم حب الذات ، تلك الأرض التي قام عليها نوع من سلامة النفس ، إنني لا أعنى بذلك الأنانية أو النرجسية » .

لقد كانت مثل تلك الأحاديث هي التي قربتني في بادئ الأمر من « كليا » . أحاديث كانت تستمر في بعض الأحيان حتى الهزيع الأخير من الليل ـ أحاديث علمتني بأنه في وسعي أن أعتمد على القوة التي استمدتها هي من التأمل ومعرفة الإنسان بذاته . إن صداقتنا قد جعلتنا قادرين على أن نتبادل أفكارنا وآراءنا الخاصة ، وأن تأثيرها على كل منا بطريقة كان يستحيل اللجوء إليها لو كنا أكثر ارتباطًا بقيود تفرق ، وياله من تناقض ظاهرى ، بصورة أعمق مما تجمع . رغم أن الوهم البشرى يمنعنا من تصديق ذلك . إنني أتذكرها تقول ذات مرة عندما نوهت لها عن تلك الحقيقة : « إنه لحق أنني أقرب من بعض النواحى ، أقرب إليك من كل من « ميليسا » و « جوستين » . أنت تعرف أن حب

الجـزء الثالث

كانت ريــاح الخماسين في ذلك الربيع الثاني لوجـودى في « الإسكندرية » ، أسوأ مما عـرفتها من قبل أو من بعد . فقد تلـونت سماء الصحراء قبل شروق الشمس باللون البنى الـذي يشبه لون ثياب خشنـة منشاة ، ثم أخذت تعتم في بطء وهي تنتفخ ككدمة وتحدد على الأقل ملامح السحب ، غـانيات عملاقة من اللون الأصفـر ، تكومت من الدلتا مثل كثبـان من الرماد تحت بركـان . المدينة أحكمت إغلاق منافذها ، وكأنها تـواجه ريحًا عاصفة . لفحات قليلة من الهواء ومثلها من مطـر ثقيل هي نذر الظـلام الذي يمحو ضـوء السماء . والآن يغزو الرمل كل شيء دون أن يُرى في ظلام الحجرات الموصدة النوافذ ويظهر كما ، لو كـان بفعل السحـر ، في الملابس المصـانـة منذ أمـد بعيـد ، في الكتب والصــور وملاعق الشاى ، في أقفال الأبواب وتحت الأظافر . الهواء القاسي اللاهث ييبس أغشية الحلـوق والأنوف ، ويجعل العينين تدمعان بصـورة متصلة . سحب في لون الـدم الجاف تقطع الشوارع كـالنبوءات ، وتستقـر الرمـال في البحر كما يستقر مسحوق في خصلات شعر مستعـاربال . أقلام الحبر غَصَّت ، والشفاه جفت ــ وكومـة بيضاء رقيقـة وكأنما هي ثلج حديث التكـوين تغطى اردواز النوافـذ البندقية الطراز . والفلـوكة التي تشبه الأطياف تعبر القنـاة تبحر بها غيـلان معصـوبة الـرؤوس . ومن حين لآخـر تهبط من السماء مبـاشرة ريح تطرقع تثير المدينة كلها فتـدور وتدور حتى يخيل للمرء أن كل شيء ، الأشجار والمنـائر ، النصب التذكـارية والنـاس ، قـد وقعت في قاع دوامـة هائلـة وأنها سترجع في رفق في النهـاية إلى الصحـراء التي نبت منهـا الجميع عائدين مـرة أخرى إلى أرض الكثبان المجهولة التي نحتتها الأمواج ...

لا أستطيع أن أنكـر أن كـلانـا تملكه في ذلك الـوقت إرهـاق روحى جعلنـا

يائسين طائشين ، نتعجل انكشاف أمرنا . فالإثم يهرع دائماً نحو تتمته ، نحو جزائه : فهنالك فقط تكمن راحته . وسيطرت على حماقة « جوستين » التي كانت تفوق حماقتي رغبة خفية في التكفير ، أو ربما انتاب كلانا ونحن مقيدين ذراعًا وساقًا إلى بعضنا البعض شعورًا مبهماً بأن هزة ما يمكن أن تعيد كلانا إلى صوابه ـ كانت تلك الأيام مليئة بالنذر والتحذيرات التي كان يقتات عليها قلقنا .

أخبرني « حميد » الأعور ذات يوم أن زائرًا غامضًا أخبره أن يسهر على حماية سيده ، حيث إن شخصية عالية المكانة تتهدده بخطر كبير . وكان وصفه للرجل ينطبق على « سليم » ، سكرتير « نسيم » : إلا أنه ينطبق كذلك على أيّ من الـ ٥٠,٠٠٠ الذين يسكنون الإقليم . وفي تلك الأثناء كان موقف « نسيم » حيالى قد تغير ، أو بالأحرى قد عمق إلى عذوبة غامرة يشوبها القلق . لقد ألقى بتحفظه السابق جانبًا . وأخذ عندما يتكلم إليّ يستخدم عبارات تودد غير مألوفة . كان يمسكنى من كمي في محبة . وأحيانًا بينما نتكلم كان يتورد وجهه من الخجل فجأة : أو تغرورق عيناه بالدموع فيدير رأسه ليخفيها . وكانت «جوستين » ترقب هذا باهتمام من المؤلم أن تلحظه . غير أن الذل وتأنيب الضمير الذي كنا نحسه لأننا أسأنا إليه كان يقربنا أكثر فأكثر كشريكين في الذنب . وتكلمت «جوستين » في بعض الأحيان عن الرحيل ، وفعلت أنا بالمثل في أحيان أخرى . غير أن أحدًا منا لم يكن في وسعه أن يتحرك . كنا مجبرين على انتظار النتيجة في تسليم ونفاذ صبر كانا في الحقيقة تجربة مخيفة .

ولم تقلل هذه التحذيرات من حماقاتنا ، بل ضاعفتها . وساد أفعالنا استهتار مخيف ، وتميز سلوكنا بالطيش المفزع . لم يكن لنا حتى أن نأمل (وهنا أدركت أني قد أضعت نفسي تمامًا) في تجنب ما أعده لنا القدر . لم يكن يعنينا لحماقتنا سوى خوفنا ألا نتمكن من اقتسام قدرنا سويًّا ـــ خوفنا أن يفرقنا عن بعضنا البعض . وأدركت من خلال هذا التلمس الواضح

للاستشهاد أننا قد أظهرنا حبنا وهو في أشد حالاته فراغًا وقصورًا . قالت «جوستين » ذات مرة : « لابد أنني أبدو لك مقززة بما أقول من خليط قبيح من الافكار المتعارضة: كل هذا الاهتمام السقيم بالله وعجز كامل عن طاعة أبسط وأعز خلقي صادر عن طبيعتي الداخلية .كأن أكون مثلاً وفية لرجل واحد أحبه لدرجة العبادة . إنني أرتجف يا عزيزى إشفاقًا على نفسي . إنني أرتجف . كم أود لو كان في استطاعتي أن أنجو من تلك الشخصية التقليدية المتعبة لليهودية المختلة الأعصاب . لو كان في وسعي أن أنزعها عن نفسي » .

خلال تلك الشهور ، بينما كانت « ميليسا » تستشفي في فلسطين (وكنت قد استدنت المال اللازم من « جوستين » حتى تتمكن « ميليسا » من السفر) أفلتنا من عدة مآزق . فمثلاً كنت ذات يوم أتحدث أنا و « جوستين » في حجرة النوم الكبيرة بالمنزل . كنا قد عدنا من الاستحمام بالشاطئ وكنا قد أخذنا دشًا باردًا كي نزيل الملح من على أجسادنا . وجلست « جوستين » فوق السرير عارية تحت بشكير الحمام الذي لفته حولها في رشاقة كرداء يوناني الطراز . وكان «نسيم» في القاهرة حيث كان مفروضًا أن يقدم حديثًا في المذياع نيابة عن جمعية خيرية أو ما شابه ذلك ، وخارج النافذة كانت الأشجار تميل بأوراقها المتربة في جو الصيف الرطب . بينما كان من الممكن سماع ضجيج حركة المرور الخافتة في «شارع فؤاد » .

وجاءنا صوت « نسيم » الهادئ من المذياع الصغير الأسود الموجود قرب الفراش ، وقد حوله مكبر الصوت إلى صوت رجل شاخ قبل أوانه . وعاشت العبارات الخالية من أى فكرة في الصمت الذي غزته حتى بدا الجو وكأنه قد ازدحم بالتفاهات . غير أن الصوت كان جميلاً ، كان صوت رجل أحكم عزل نفسه عن أية مشاعر . وكان باب الحمام خلف ظهر « جوستين » مفتوحًا . وخلفه يوجد باب به لوح زجاجي أبيض بياض العيادات الطبية يؤدى إلى سلم حديدى يستخدم للنجاة عند الحريق ـ فقد كان بناء المنزل مصمم حول بئر

تتوسط المكان حتى يمكن ربط حجرات الحمام والمطابخ بشبكة من السلالم الحديدية كتلك التي تمتد في غرفة الآلات بالسفينة . وفجأة ، بينما الصوت ما زال يتكلم وبينما نصغى نحن إليه وصلت أسماعنا خطى خفيفة شابة سريعة تصعد السلم الحديدى خارج الحمام : خطوة « نسيم و التي لا يخطئها السمع. أو خطوة أىّ من الخمسين ألفًا الذين يقطنون الإقليم . ورأيت عندما نظرت من فوق كتف « جوستين » ، رأس وكتفى رجل نحيل ، يرتدى قبعة طرية من اللباد مشدودة إلى عينه ، تظهر فوق زجاج الباب الأبيض . كانت تتضح معالمه مثل صورة تطبع في وعاء التحميض . وتوقف الشبح وقد مد يده إلى مقبض الباب . **وأدارت « جوستين » رأسها عندما رأت اتجاه نظرتى . ووضعت ذراعا عارية حول كتفى ، بينما أخذ كلانا يرقب ـ في هدوء كامل يخفق كالقلب بشعور من الإثارة الجنسية المحمومة العاجزة ــ الشبح المعتم الواقف هناك** بين عالمين وقد تحددت معالمه كأنما على شاشة أشعة « إكس » ، وعلى وجهينا ارتسم شعور بالبراءة لا شعور بالخوف .

ووقف الشبح هناك لفترة طويلة ، كأنما يفكر بعمق ، وربما كان يتصنت إلى شيء ما . ثم هز رأسه في بطء مرة واحدة ، وبعد لحظة استدار وقد لاحت عليه الحيرة ثم بدأ يذوب في بطء من فوق الزجاج . وبينما يستدير بدا وكأنه يضع شيئًا في جيب سترته الأيمن . وسمعنا خطاه تتلاشي بطيئة ـ كسلم من الأنغام الهابطة الرديئة ـ فوق سلم البئر الحديدى . ولم يتفوه أىّ منا . فقط استدرنا وبتركيز عميق إلى المذياع الصغير الأسود الذي ينساب منه صوت « نسيم » ، في دماثة ورقة متصلتين . وبدا أنه من المستحيل أن يوجد في مكانين في وقت واحد. ولم ندرك حقيقة الأمر إلا بعد أن أوضح لنا المذيع أن الحديث قد سجل من قبل. لماذا لم يفتح الباب ؟

الحقيقة أنه كان قد وقع في قبضة دوامة الشك التي تتبع قرارًا اتخذ للعمل على ضوئه ، عند من كانت طبيعتهم مسالمة . فطوال ذلك الوقت كان هنالك شيء

ينمو في داخلـه حبة فحبة ، حتى غدا وزنــه فوق ما يحتمل . كـان متنبهًا إلى أن تغييرًا في طبيعتـه يتم في أعماقــه وأن هـذا التغيير ينفض عنــه أخيرًا ذلك الشلل الطويل ، شلل الحب العاجـز الذي كان يسيطر على أفعـاله . وألحت عليه كشيء طـريف مخدر فكرة عمل محدد مفـاجئ ، عمل يحسم الأمـر إن خيرًا وإن شرًا وأحس (كما أخبرنى فيما بعد) أنه كمقامر يوشك أن يجازف في ضربة واحدة يائسة بالبقايا التافهة لثـروة مفقودة . إلا أنه لم يكن قد استقر بعد على طبيعة هـذا العمل . ما الشكل الـذي يتخذه ؟ وتفجـرت في داخله كـومة من النـزوات المضطربة .

وبلغ تيـاران رئيسيـــان من تيـارات هـذه الــرغبـة مصبهما ، نهايتهما ، يستحثانه على العمل . فمن ناحية بلغ دوسيه المعلومات الذي جمعه له عملاؤه عن « جوستين » حجماً لا يمكن التغـاضـى عنه ، وتملكته من الناحيـة الأخرى فكرة جديدة ومخيفة فكرة لم تطرأ على باله من قبل ـ إن « جوستين » قد وقعت في الحب أخيرًا . لقد بدا أن مـزاج شخصيتها العام يتغير ، وأنها قد غـدت للمرة الأولى ، متأملة ، مفكرة ، تفيض عذوبـة من تلك العذوبة التي في وسع المرأة أن تمنحها للرجل الذي لا تحبه . « ونسيم » أيضـًا ، كما ترى ، كان يتعقب خطاها من خلال صفحات كتاب « الأرناؤوطي » .

« كنت أعتقـد في بـادئ الأمر أنــه يجب السماح لها بأن تقــاتل خـلال دغل الحائل متجهة نحوى . وعندما كانت تلـح عليَّ فكرة خيانتها الموجعة كنت أذكر نفسي بأنها ليست امـرأة ممن يبحثن عن اللذة ، ولكنهـا امرأة تتصيـد الألم في بحثها عن نفسـها ـ وعنى . واعتقدت أنــه لو تمكن رجل واحد من تـحريرها من نفسـها فإنها ستصبح في متناول جميع الرجال ، وكذلك أنا أولى الناس بـها . غير أن فكرة فظيعة طرأت على بالى ، عنـدما رأيتها تذوب مثل غطاء من الثلج : وهي أن الـرجل الذي سيحطم الحائل سيحتفظ بها إلى الأبـد ، حيث إن الراحــة التي أعطاها لها بالتحديد هي الشيء الذي كـانت تبحث عنه في جنون خلال أجسادنا

ومصائرنا . وللمرة الأولى سيطرت عليّ مشاعر الغيرة التي كان يغذيها خوفي».

ولقد بدا غريبًا لي أن تصيب الغيرة « نسيم» على الدوام وحتى الآن من كل شخص ما عدا الشخص الحقيقي الذي يسطر حاضر « جوستين » ـ مني أنا . ورغم كومة الأدلة الغامرة إلا أنه لم يجرؤ على السماح لنفسه بالشك في . ليس الحب هو الأعمى ، ولكن الغيرة هي العمياء . لقد مضي وقت طويل قبل أن يتمكن من ترويض نفسه على أن يثق في كومة المستندات والأدلة التي جمعها له عملاؤه عنا ، عن لقاءاتنا ، وتصرفاتنا . غير أن الحقائق فرضت نفسها الآن بصورة واضحة لا يحتمل معها الخطأ . وغدا السؤال كيف السبيل إلى التخلص مني ـ « إنني لا أبالي بالجسد كثيرًا : لقد غدوت مجرد خيال يحجب عني الضياء . ربما كنت أراك تموت ، أو تذهب بعيدًا . لم أكن أدرى . كان عدم اليقين ذاته مثيرًا إلى حد السكرة » .

غير أنه جنبًا إلى جنب مع تلك المشاغل ، كانت هنالك مشاغل أخرى ـ المشاكل التي انبعثت عند « الأرناؤوطي » والتي عجز عن حلها والتي كان يتابعها « نسيم » على مدى سنتين بفضول شرقي أصيل . لقد غدا الآن قريبًا من الرجل ذى العصابة السوداء على عينيه ـ أقرب إليه من أى منا في أى وقت . هنا كان في حوزته جزء آخر من المعرفة لم يكن قد قرر بعد أفضل السبل للإفادة منه . وإذا كانت « جوستين » تخلص نفسها بالفعل منه ، فما الفائدة إذن من أن ينتقم لنفسه من الشخص الحقيقي لذلك الكائن الغامض ؟ ومن الناحية الأخرى ما الحل إذا كنت أنا على وشك أن أحتل المكان الذي خلا بزوال هذا الشبح ؟

ولقد سألت « سليم » صراحة إذا ما كان قد زار شقتي ليحذر « حميد » الأعور . غير أنه لم يجب ، أحنى رأسه وقال في صعوبة : « إن سيدى على غير طبيعته في تلك الأيام » .

وفي تلك الأثناء اتخذت أقدارى طريقًا غير معقول ولا متوقع . فقد سمعت

ذات ليلة طرقات مدوية على باب شقتي وفتحت الباب ليدخل منه ضابط مصري من ضباط الجيش أنيق الهيئة يرتدي حذاء متألقًا وطربوشًا . ويحمل تحت إبطه منشة ضخمة ذات مقبض من الأبنوس وكان « يوسف بك » يتحدث بلغة إنجليزية سليمة ، تنثال من شفتيه في سهولة ، كلمة بعد أخرى منتقاة بعناية ، من وجه جاد أسود كالفحم به أسنان ممتازة صغيرة ذات سناء كحبات اللؤلؤ . كان يتمتع بالوقار المحبب لبطيخة ناطقة قادمة لتوها من «كامبريدج » . وقدم له « حميد » القهوة المعتادة ومشروب كحولي حلو لزج ، وأثناء تناوله للمشروبات أخبرني أن صديقًا كبيرًا لي يحتل مركزاً عاليًا يود أن يراني بإلحاح . وللحال اتجهت أفكاري إلى « نسيم » ، غير أن هذا الصديق ، كما زعم البطيخة كان ضابطًا إنجليزيًا . وأنه ليس في وسعه أن يقول أكثر من هذا . كانت مهمته سرية . هل أذهب معه وأزور صديقي ؟

كانت تملأني الشكوك والريب « فالإسكندرية » التي تبدو من الخارج مسالمة ، لم تكن في الحقيقة مكانًا مأمونًا للمسيحيين ، ففي الأسبوع الماضي فقط ، جاء « بومبال » إلى المنزل يحكي قصة نائب القنصل السويدي الذي أصيبت سيارته بعطب على طريق مطروح . كان قد ترك زوجته بمفردها بينما اتجه هو إلى أقرب تليفون ليتصل بالقنصلية ويطلب منها إرسال سيارة أخرى. وعاد ليجدها تجلس في المقعد الخلفي بطريقة طبيعية — جسدًا بلا رأس . واستدعى البوليس وفتشت المنطقة كلها بدقة . وكان بين الذين يجرى استجوابهم بعض البدو الذين يقيمون في مخيم قرب هذا المكان . وبينما كانوا غارقين في إنكار أى معرفة بالحادث ، تدحرجت الرأس المفقودة من فوطة إحدى النساء . كانوا يحاولون اقتلاع أسنانها الذهبية والتي . كانت تعطى لابتسامتها سمة غير محببة في الحفلات . لم تكن مثل هذه الحادثة من الندرة بالقدر الذي يجعل المرء يقدم على زيارة الأحياء القريبة من المدينة بعد أن يحل الظلام ، ولذا فقد تبعت الضابط دون أى إحساس بالاطمئنان إلى سيارة

حكومية جلست في مقعدها الخلفي ، خلف سائق يرتدى رداء رسميًا ، ووجدت السيارة تدور بسرعة نحو أقذر أحياء المدينة . وأخذ « يوسف بك » يتحسس شاربه الصغير الأنيق بطريقة من يتوقع شيئًا كالموسيقي عندما يشد أوتار آلته . كان من العبث سؤاله المزيد من الأسئلة : ولم أكن أود أن أكشف شيئًا من القلق الذي أعانيه . ولذا فقد استسلمت في دخيلتي للموقف ، وأشعلت سيجارة، وأخذت أراقب شريط الكورنيش الطويل وهو يتلاشى خلفنا . وتوقفت السيارة فهبطنا وقادنى الضابط سيرًا على الأقدام عبر مجموعة من الأزقة والحوارى المتشعبة قرب « شارع الراهبات » . فإذا كان الهدف من إحضارى هنا هو أن أفقد سيطرتى على نفسي فقد تحقق على الفور تقريبًا . كان يسير بخطى خفيفة واثقة ، يدندن في صوت خافت . وأخيرًا خرجنا من الشوارع الضيقة إلى شارع في الضواحى ملى بالمتاجر ووقفنا أمام باب كبير نحتت عليه بعض النقوش ودفع الضابط الباب ففتحه بعد أن دق الجرس . ودخلنا إلى ساحة بها بعض أشجار النخيل العاجزة عن النمو ، وقد وضع فانوسان باهتا الضوء فوق الحصى على جانبي الممر الذي يقطع تلك المسافة . وعبرنا الممر وصعدنا بضع درجات حيث كان مصباح كهربي ناصع البياض يلقي بنوره القوى على باب أبيض طويل . وطرق الباب ودخل ورفع يده بالتحية في حركة واحدة . وتبعته إلى حجرة كبيرة أميل إلى أن تكون أنيقة ودافئة وقد زينت أرضيتها النظيفة المصقولة سجاجيد عربية جميلة. وفي أحد الأركان جلس «سكوبى » على مكتب عال مطعم يحيط نفسه بجو من الخيلاء الكاذبة ، وعلى وجهه تقطيبة المعتد بنفسه تغطى ابتسامة الترحيب التي حيانى بها . وقلت « يا إلـهى » . وأطلق القرصان العجوز ضحكة مكتومة من ضحكات حارة « دروری لين » ، وقال : « أخيرًا ، أيها الرجل العجوز، أخيرًا » . ومع ذلك فإنه لم ينهض لاستقبالى وظل جالسًا على كرسيه غير المريح ذى المسند العالى ، طربوشه على رأسه ، ومنشته على ركبته يحيط نفسه بجو يترك في النفس إحساسًا بالغموض . ولا حظت

مزيدًا من النجوم على كتفه . السماء القادرة وحدها تعلم مصدر تلك الزيادة في الرتبة والسلطة . وقال وهو يشير بيده في حركة ضجرة تشبه حركة المنشار وتحمل شبهًا ضئيلاً للإيماءات الإمبراطورية : « اجلس أيها الرجل العجوز » . وسمح للضابط بالانصراف فغادر المكان وهو عابس . وبدا لي أن « سكوبى » لايبدو شديد الارتياح في هذه الأبهة التي تحيط به . كان يحيط نفسه بإطار من الدفاع عن النفس ، وقال وهو يخفض صوته إلى همس مسرحي : « لقد طلبت منهم القبض عليك ، لسبب خاص للغاية » . كان يوجد على مكتبه عدد من الملفات الخضراء ، وغطاء براد شاى عديم المنظر بصورة غريبة . وجلست .

نهض « سكوبى » في سرعة وفتح الباب . لم يكن هناك أحد بالخارج ، ففتح النافذة . لم يكن هناك أحد يقف عند حافة الشباك . فوضع غطاء الشاى فوق تليفون المكتب ثم عاود الجلوس . ثم مال إلى الأمام ، وبينما كان يتكلم في حرص، أخذ يفحصنى بعينه الزجاجية بطريقة حادة تآمرية . قال : « ولا كلمة لأى إنسان ، أيها الرجل العجوز . اقسم أنك لن تتفوه بكلمة واحدة » . وأقسمت. « لقد جعلونى رئيسًا للشرطة السرية » . وصفرت الكلمات من خلال طاقم أسنانه الصناعية بطريقة ظريفة . وأومأت برأسي وأنا في دهشة . وسحب نفسًا عميقًا وكأن عبئًا قد أزيح عن كاهله واستمر يقول : « أيها الولد العجوز ، ستقع الحرب . معلومات داخلية » . وأشار بأصبعه إلى صدغه : «ستقع الحرب. والعدو يعمل ليل نهار هنا بيننا ، أيها الولد العجوز » لم يكن في مقدورى أن أجادله فيما يقول . غير أنى كنت أتعجب من «سكوبى» الجديد الذي يجلس أمامي كصورة في مجلة رديئة . «في استطاعتك أن تساعدنا في مباغتتهم والإجهاز عليهم ، أيها الرجل العجوز » . واستمر في حديثه بطريقة آمرة مدمرة : « إننا نود أن نضمك إلى قوتنا » . وكان لهذه الجملة وقعًا أكثر قبولاً على نفسي . وانتظرت التفاصيل . قال الرجل العجوز في صوت له هدير وصرير : « إن أخطر العصابات جميعًا هنا ، في « الإسكندرية » ، وأنت في قلبها ، إنهم جميعًا أصدقاؤك » .

وفجأة رأيت في حاجبيه المعقودين وعينيه المضطربتين ، رأيت كاللمحة البديهية الخاطفة صورة « نسيم » ، وهو يجلس إلى مكتبه الضخم في الحجرة ذات الأنابيب الباردة المصنوعة من الصلب ، في انتظار مكالمة تليفونية بينما حبات العرق تتجمع فرق جبهته . كان يتوقع رسالة عن « جوستين » ـ وخزة أخرى من وخزات السكين . وهز « سكوبى » رأسه وقال : « ليس هو على وجه التحديد . بالطبع إنه واحد من العصابة . الزعيم رجل يدعى « بلتازار » ... انظر ما عثرت الرقابة عليه » .

وأخرج بطاقة من أحد الملفات وناولها لي . إن خط « بلتازار » أنيق ، كان من الواضح أن الكتابة بخطه ، غير أنى لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام عندما رأيت أن ظهر البطاقة البريدية لم يكن يحتوى إلا على تخطيط للوحة شطرنج بطريقة الخطوط المتعاقبة في اتجاهات متضادة . والحروف اليونانية تملأ المربعات الصغيرة . وقال « سكوبى » : « إنه يتمتع بوقاحة لاحد لها حتى أنه يرسل تلك البطاقات بالبريد المفتوح » . وفحصت التخطيط وحاولت أن أتذكر القليل الذي تعلمته من صديقي عن حساب التفاضل ، وأضاف « سكوبى » وهو يلهث : « إنه نظام القوة التاسعة . وأنا لا أستطيع قراءة تلك البطاقة . إنهم يجتمعون بطريقة منتظمة كي يجمعوا المعلومات . إننا نعلم هذا علم اليقين » . وأمسكت بالبطاقة البريدية بخفة بين أصابعي وبدا لي أني أسمع صوت «بلتازار » وهو يقول « إن مهمة المفكر هو أن يقترح ، أمام عمل القديس فهو أن يلتزم الصمت إزاء ما يكتشف » .

وعاد « سكوبى » ليتكئ في كرسيه ، يغمره شعور ظاهر بالرضا عن نفسه . كان قد نفخ نفسه كحمامة ممتلئة الحوصلة . وخلع طربوشه من فوق رأسه وتأمله في حدب ولطف ووضعه فوق مفرش الشاى . ثم حك صلعته المشققة بأصابع ناتئة العظام واستمر يقول : « إننا في بساطة عاجزين عن فك الشفرة ، ولدينا العشرات من أمثال تلك البطاقة » . وأشار إلى ملف متخم بالنسخ

المتشابهة والتي تماثل تلك البطـاقات : « لقد لفت كل الحجـرات المختصة بحل الشفرات : حتى أساتذة الجامعة المقتدرين في الرياضة . ولكن بلا طائل ، « أيها الرجل العجوز » .

ولم يثر هـذا الأمر دهشتـي . ووضعت البطاقـة البريدية فـوق كومـة من مثيلاتها وعدت أتأمل « سكوبى » ، الذي قال وهو مقطب الجبين : « وهنا يجيء دورك ، إن شئت أن يكون لك دور ، أيها الـرجل العجوز . إننـا نود منك أن تفك الشفرة مهما استغرق هذا الأمر من وقتك وستنال ما يرضيك تمامًا . فما قولك في هذا ؟ » .

ماذا في وسعي أن أقول ؟ لقد كانت الفكرة تبهج النفس ، وكان على المرء ألا يتركها تفلت منـه . يضاف إلى ذلك أن عملي المدرسي خلال الشهـور الأخيرة قد هبط كثيرًا حتى أني كنت متأكدًا من أن عقدى مع المدرسـة لن يجدد عند انتهاء المدة الحالية . كنت أصل على الـدوام متأخرًا بسبب لقـاءاتي مع « جوستين » . ولم أعد أبالى بتصحيح أوراق الطلبة .

وأصبحت حـاد الطبع مشـاكسًا مع زمـلائي ورؤسـائي . هنـا لاحت لي الفرصـة كي أعود سيـد نفسي . وسمعت صوت « جـوستين » يقول من داخل رأسي « لقـد غـدا حبنا كخطـأ مخيف ورد في مثل شعبي » ، بينما كنت أميل إلى الأمام مرة أخـرى وأنا أومئ برأسي ، وأطلق « سكوبى » آهـة ارتياح وانبساط واستعاد شخصية القـرصان مرة أخرى . وعهد بشئـون مكتبه إلى شخص ما يـدعى « مصطفى » كان مـن الواضح أنـه يعيش في مكـان ما داخل التليفـون الأسود ــ كان « سكـوبى » ينظر على الـدوام خلال حـديثه إلى بـوق التليفون وكأنه ينظـر إلى عين آدمية . وغـادرنا المبنى سويـًا وحملتنا إحـدى السيارات العسكرية نحو البحر . كان من الممكن مناقشة المزيد من التفاصيل عن وظيفتى حـول زجاجـة البرانـدى الصغيرة الموجودة في قـاع حـامل الفطائر إلى جـوار سريره.

تركنا السيارة عند الكورنيش وسرنا معًا نقطع باقي الطريق في ضوء القمر الساطع العربيد ، نرقب المدينة القديمة وهي تتلاشى ثم تعود تلتئم من جديد فيما يرسمه ضباب المساء من أشكال ، مثقلة بصمت الصحراء التي تحيطها ، وخضرة الدلتا التي تغوص فيها حتى النخاع ، فتعطيها مالها من قيمة . وتحدث « سكوبى » عن غير هذا وذاك . إنني أتذكر أنه كان يندب يتمه منذ سن مبكرة ـ لقد قتل والداه معًا في ظروف مأساوية أمدته بمادة دسمة يمعن فيها فكره : « لقد كان والدى من رواد سباق السيارات الأول أيها الرجل العجوز . سباقات الطرق التي أقيمت في فترة مبكرة ـــ كان ينطلق بسرعة عشرين ميلا في الساعة . ويمتلك سيارة « لاندو » . التي أستطيع أن أراه الآن وهو جالس خلف عجلة القيادة بشاربه الكث . الكولونيل « سكوبى » ، لقد كان فارسًا . وقد جلست أمي إلى جواره ، أيها الرجل العجوز . إنها لم تكن تتخلى عن جواره حتى في سباق السيارات . كانت تقوم بوظيفة الميكانيكي . وكانت الصحافة تأخذ لهما على الدوام صورًا في بداية السباق ، وهما يجلسان مرتديان أقنعة كتلك التي يلبسها أصحاب المناحل ـ والله يعلم لماذا كان الرواد الأول يرتدون مثل تلك الأقنعة الضخمة . ربما كان ذلك بسبب التراب » .

ولقد أثبتت تلك الأقنعة قدرتها على القتل . إذ بينما كان والده يجتاز منحنى يستدير إلى الوراء في سباق على طريق « لندن ـ بريتون » القديم أمسك وشاح قناعه بالمحور الأمامي لعجلة السيارة التي كان يقودها ، فجذبه وألقاه في الطريق ، بينما اتجهت رفيقته رأسًا لتصطدم بشجرة وتتهشم . « إن عزائى الوحيد أنه قد مات على النحو الذي كان يتمناه . فقد كانا يتقدمان غيرهما من المتسابقين بربع ميل » .

لقد كنت مغرمًا على الدوام بالميتات التي تحدث بطريقة هزلية ، ولذا ، وجدت صعوبة كبيرة في ضبط ضحكتي عندما كان « سكوبى » يصف تلك الكارثة وعينه الزجاجية تدور دورات شؤم ونحس . ومع ذلك فبينما كان

يتكلم وأنا أنصت لما يقـول ، كانت نصف أفكارى تنطلق في خط مواز مشغـولة بالـوظيفة الجديدة التي سأقـوم بها . أقيِّمها بقدر الحريـة التي ستمنحها لي . كنت سألتقي « بجـوستين » في سـاعة متأخـرة من تلك الليلـة قرب المنتـزه ـ والسيارة الكبيرة تهر كفـراشة في عتمـة الطريق التي تلطفهـا أشجار النخيل . ماذا سيكـون رأيها ؟ بالطبع سيبهجهـا أن تراني وقـد تحررت من قيود عملي الحالى . إلا أن جـزءًا من أعماقها سيئن ألمًا لفكـرة أن هذه النجـدة لن تخلق إلا مـزيدًا من الفـرص كي نزداد التصـاقًا ، كي نمضي في زيفنـا ، كي نكشف عن أنفسنا لقضـاتنا أكثر من أى وقت مضي . هنـا يكمن تناقض ظاهـرى آخر من تناقضات الحب ، إن الشيء الذي يقربنا من بعضنا البعض ـ كالحركة المتعاقبة في اتجاهات متضادة ـــ يكون على وجه الخصوص ، لو سيطـرنا على الفضائل التي يصورها ـــ هو مصدر فرقتنا إلى الأبد ـ أعنـى يغرق نفسينا اللتين تغذت كل منهما بشراهة على خيال الأخرى الذي يسحر الألباب .

« وفي تلك الأثناء » كما كـان يقول « نسيم » في تلك النبرات الرقيقـة المفعمة بالرزانة المبهمة التي تحل بأصـوات هؤلاء الذين أحبوا في إخلاص إلا أن حبهم كان من جـانب واحد « وفي تلك الأثناء كنت أعيش في قلب حالـة من الاستفزاز تصيب المرء بالدوار ولا مخرج لى منهـا إلا من خلال عمل لم يكن في وسعي أن أدرك كهنه وطبيعتـه . كانت تنفجـر في نفسي مشاعر هـائلة من الثقـة بالنفس تتبعها حالات من الاكتئاب عميقة إلى حد أنها كانت تبدو وكأنـي لن أشفى منها البتة . وشعور غامض ينتابني بأنني أعد نفسي لمبارزة ـ وكما يفعل الرياضي ـ بـدأت في أخذ دروس في اللعب بـالسيف وتعلمت كيفية إطـلاق الرصـاص من مسدس جيب أوتـوماتيكي . ودرست تركيب وتأثير السمـوم من كتاب صغير خاص بعلم السموم استعرته من الدكتور « فؤاد بك » .

كان قـد بدأ يـرسي في أعماقه مشـاعر تستعصي على التحليل وكـانت تعقب الفترات التي يعيشها كـالسكران فترات أخرى يحس فيها بثقل وحـدته : وكان

هذا الشعور ينتـابه للمرة الأولى . كان يعانى ألمًا نفسيـًا داخليًا ، ومع ذلك فقد كان عاجزًا على أن يجد له متنفسًا ، في الرسم أو في العمل . إنه يسلي نفسه الآن بأن يعود دائماً إلى باكورة حياته ، إلى تلك السنين المليئة بشعور مستقر بالثراء، إلى بيت أمـه الظليل وسط أشجار النخيل والـزهور المكسيكيـة في « أبي قير » : حيث تصعد الميـاه وتنزلق بين طوابي القلعة القـديمة ، إنه يجمع أيام طفـولته المبكرة في مشاعـر واحدة مركزة نـابعة من ذكرياتـه المرئية . إنه يتشبث بهذه الذكريات في هلع ووضوح كما لم يحدث له من قبل . وهناك خلف ستار الكآبة العصبية ، عاشت طـوال الوقت جرثومة التمـزق عنيدة لا يمكن التحكم فيها ـ حيث إن العمل الذي فكر فيه حلاً لمشكلته لم ينتـه منه بعد ، إنه يرقد في أعماقه كعملية مضاجعـة لم تكتمل . كان يبدو وكأن هناك من يحثـه ، أن يتقدم أقرب وأقرب .... ولكن إلى ماذا بـالتحديد ؟ لم يكن في وسعه أن يعـرف ، إلا أن خوفه القديم من الجنون تقدم هنا وأمسك بتـلابيبه ، وأخل بتوازنه الجسدى ، حتى أنه بدأ يعـانى من نوبات دوار كانت تجبره على أن يتحسس ما حـوله كالأعمى يبحث عن شيء يجلس عليه ـ مقعد أو كنبه . إنه يجلس وهو يلهث قليلاً ويحس العرق وقد بـدأ يتصبب من جبينه ، غير أنه كان يحس بـالارتياح لأن أحدًا من العابرين لن يرى شيئًا مما يعانيه من صراع داخلي . إنه يكرر بصوت عال ، كما لاحظ هـو ذلك الآن أيضًا ، جملاً يـرفض عقلـه الـواعى أن يستمع إليها . لقـد سمعته « جـوستين » ذات مرة يتحـدث إلى نفسه في واحـدة من مرايـاه قائلاً : «حسنًا ، إذن فأنت تتردى في النورستانيا » .

ومرة أخرى فيما بعد سمعه « سليم » وهو جالس إلى عجلة قيادة السيارة ، بينما كان خارجًا إلى جو يغمره ضوء النجوم الزاهية وقد ارتدى ملابس المساء المتقنـة التفصيل سمعه يضيف قـائلاً : « أعتقد أن هـذه الثعلبة اليهـودية قـد التهمت حياتي » . وفي بعض الأحيان أيضًا كان مرعوبًا إلى حد أنه كان يسعى ، إن لم يكن وراء من يقـدم له يد العـون ، فعلي الأقل وراء ما انقطع مـن اتصال

بالآدميين الآخرين ، لقد وصف له أحد الأطباء دواء مقويًا من الفوسفور ونظامًا خاصًا بالغذاء إلا أنه رفض أن يتبع العلاج . وساقه منظر طابور من رهبان « دير الكرمل » وقد حلقت قمة رؤوسهم كالقردة الأفريقية الضخمة ، وهم يعبرون شارع « النبى دانيال » إلى أن يجدد صداقته السابقة مع الأب «بول » الذي كان يبدو في الماضي رجل غاية السعادة يغلفه دينه كما يغلف الجراب الموسي . غير أن كلمات التعزية الشفوية التي كان يقدمها له الآن هذا البهيم المحظوظ ، السعيد ، مجدب الخيال ، قد ملأت نفسه بالتقزز .

وقد ركع ذات ليلة إلى جواره سريره ـ وهو شيء لم يفعله منذ كان في الثانية عشرة ـ وفرض الصلاة عمدًا على نفسه . لقد ظل هناك لفترة طويلة ، ذاهل العقل ، مربوط اللسان بلا أفكار ولا كلمات تشكل نفسها في ذهنه . كان يتملكه شعورًا رادعًا مرعبًا كما لو كان صدمة عقلية ـ وظل هناك كذلك حتى لم يعد يحتمل المزيد ـ حتى أحس أنه قد بلغ حد الاختناق . فقفز إلى سريره وسحب الأغطية فوق رأسه وهو يتمتم مزقًا محطمة من لعنات وابتهالات لا إرادية لم يكن يدرى أين مصدرها في نفسه .

ومع ذلك فإن مظهره الخارجي لم يحمل أى إشارة تنبئ عن هذه الصراعات، فقد ظل حديثه جافًا موزونًا رغم حمى الأفكار التي تكمن وراءه . وقد مدحه الطبيب لما يعكسه من ردود فعل رائعة وأكد له أن بوله خال من أى نسبة زائدةمن الزلال . كما أثبت الصداع الذي يصيبه ما بين حين وآخر بأنه ضحية توعك بسيط ـ أو شيء آخر من تلك الأمراض المعتادة عند الأثرياء والكسالي .

لقد كان مستعدًا من ناحيته أن يعاني كل هذا طالما ظلت المعاناة تحت سيطرة وعيه وإدراكه . لم يكن يخشي غير الشعور بالوحدة الكاملة ، كان يدرك عجزه عن إطلاع أىّ من أصدقائه أو الأطباء ، الذين يحتمل استدعاءهم

ليفحصوا تصرفاته الشاذة والتي لا يرون فيها غير أعراض اضطرابه ، على تلك الحقيقة .

لقد بذل جهودًا محمومة للعودة إلى الرسم ، ولكن دون جدوى . إن إحساسه بما يجرى في أعماقه كان ينخر كالسم في الألوان ، فيجعلها فاترة ميتة. لقد كان عسيرًا عليه حتى مجرد أن يعمل بالفرشاة وهناك يد خفية تشد ذراعه طوال الوقت ، تمنعه ، تهمس إليه ، تزيح بعيدًا كل قدرات الحركة ، كل حريتها وانسيابيتها .

وعندما أحس أنه محاصر بهذا الغروب الذي يتهدد مشاعره ، اتجه مرة أخرى ، في محاولة يائسة لاستعادة اتزانه وسكينة نفسه إلى استكمال القصر الصيفي ـــ كما كنا ندعوه من قبيل المزاح ـــ إنه مجموعة من الأكواخ والاصطبلات العربية في « أبى صير » . فقد عثر نسيم منذ مدة طويلة بينما كان في رحلة على ظهور الخيل إلى « بنيغازى » ، على ثنية في الصحراء تبعد عن البحر أقل من ميل ، حيث ينفجر فجأة في قلب حزام الرمال نبع ماء صاف يتعرج قليلاً نحو الشواطئ المهجورة قبل أن تدركه كثبان الرمال وتخنقه . هنا زرع البدوى ، وقد تملكه ذلك الجوع التلقائي للخضرة الذي يرقد في أعماق كل عشاق الصحراء ، نخلة وشجرة تين تشبثت جذورهما بقوة بالحجر الرملى الراقد تحت الأرض والذي تنبع منه المياه النقية . وجلسوا يستريحون وخيولهم في ظل هاتين الشجرتين النضرتين .

وعين « نسيم » تمعن النظر عجبًا في منظر القلعة العربية القديمة البعيدة ، والندية البيضاء الممتدة على الشاطئ الخالى حيث تتكسر الأمواج ليل نهار . لقد طوت كثبان الرمال نفسها في الجوار فغدت على شكل واد طويل كان خيال «نسيم » قد بدأ يصوره في الحال عامرًا بأشجار النخيل وهي « تطقطق » وبأشجار التين الخضراء التي ستلقى ، وهي المزروعة قرب المياه الجارية ـ ظلالاً وارفة حتى أنها تشبه قطعة قماش مبتلة تلتف حول الرأس ترطبها .

وترك تلك المنطقة تترعرع وتنضج في خياله لمدة عام . كان كثيرًا ما يتوجه إليها على حصانه يدرسها في كل أنواع المناخ ، حتى تمكن من خصائصها . لم يخبر أحدًا بها . غير أن فكرة بناء منزل صيفي يدخل السعادة على قلب « جوستين » كانت تكمن في خلفية ذهنه ـ واحة مصغرة حيث يمكنها أن توفر اصطبلا لجيادها الثلاثة العربية الأصيلة وتقضي أكثر مواسم العام حرارة تمارس هوايتها المفضلة ، السباحة وركوب الخيل .

حفر النبع ، وشقت منه قناة وتجمع الماء في حوض رخامي يشكل مركز الساحة ، التي رصفت بالحجر الرملي الخام ، والتي أقيم حولها المنزل والاصطبلات . وكلما ازدادت المياه زادت الخضرة بزيادتها ، وخلقت الظلال من نباتات الصبار ومن أدغال الذرة الهندية الكثيفة أشكالاً مجردة ذات أشواك. وبمرور الزمن زرع حوض من البطيخ أيضًا ـ فبدا كشيء نادر منفى من بلاد الفرس . وقد بنى اسطبل واحد موحش على النمط العربي يدير ظهره لرياح البحر الشتوية ، بينما أقيمت مجموعة من غرف الخزين وحجرات الجلوس على شكل حرف L غرف ذات نوافذ تغطيها شبكات حديدية «ودرف» من الحديد الأسود اللون .

حجرتان أو ثلاثة من حجرات النوم التي لا تزيد في حجمها عن حجم صومعة رهبان القرون الوسطى تفتح مباشرة في حجرة تتوسطها ، حجرة لطيفة مستطيلة منخفضة السقف تستخدم كحجرة استقبال وحجرة طعام في نفس الوقت ، ولقد أقيمت في أحد أطرافها مدفأة بيضاء كالكتلة وقد زخرفت حوافها بوحي من تصاميم الفسيفساء العربية . وانتصبت في الطرف الآخر من الحجرة منضدة حجرية ومقاعد حجرية تذكر المرء ببعض قاعات الأكل القديمة التي ربما كان يستخدمها رهبان الصحراء . وحدت السجاجيد الفارسية الفاخرة والصناديق الضخمة المحفورة والمحلاة بماء الذهب الذي يتلوى فوق مشابكها الخطافية وجنبها الجلدية المصقولة ، من القسوة التي كانت عليها

الغرفة . كان كل شيء ينطلق بالبســاطة المتعمدة التي تعكس أرقي أنواع البهاء والفخامـة . وعلى الحائط الموحش المطلي باللون الأبيـض والذي تقدم نـوافذه المغطاة بـالشبكات الحديـدية منـاظر فجائيـة طوليـة ضيقة ورائعـة للشاطئ والصحراء ، علقت بعض تذكارات الصيد القديمة أو الخاصة بالحياة في منطقة البحر المتوسط : رمح يحمل علماً عربيًّا مثلثًا طويلاً ، كاتب بوذى ، بضع رماح أفريقيـة في المنفى ، قوس كبير ما زال يستخدم في صيـد الأرانب ، بيرق إشارة خاص بأحـد اليخوت . لم تكن هنالك أيـة كتب سوى نسخة قديمـة من القرآن مغطاة بالعاج ولها مشابك معدنية لامعة ، إلا أن عدة مجموعات من ورق اللعب كانت تـرقد على حافـة النوافذ ، وكـان من ضمنها مجمـوعة من أوراق اللعب القديمة ، لهواة قراءة الغيب والمستقبل .

ومجموعـة أخرى للعبة « العـائلات السعيدة » . كـذلك كان يوجـد في أحد الأركان « سيموفار » قديم ليشبعا إدمانهما الوحيد ـ ألا وهو شرب الشاى .

وســار العمل في بطء وتردد ، غير أن « نسيم » في النهـايـة ؛ وقد عجـز عن الاحتفاظ بسره أكثـر من ذلك ، أخذ « جوستين » لتراه . وعجـزت « جوستين » عن منع دموعها وهي تسير في داخله ، من نافـذة إلى أخرى من نوافذ الحجرات الرشيقة ، إنها تلمح الآن بشكل خاطف صورة البحـر الزمردى يتدحرج فوق الرمال ، إنها ترى على نحو فجائى صورة حلزونية للكثبان الرملية وهي تنزلق شرقًا نحو السماء . ثم جلست فجأة قبالة نـار الأشواك وهي ما تزال في ردائها واستمعت إلى دقات البحـر الواضحـة الرقيقة على الشطـآن الطويلـة مختلطة بصهيل وطرقات حوافر الخيل في مرابطها الجديدة خلف الساحة . كان ذلك في أواخـر الخريف ، عند مـا بدأ الـذباب المضيء ينهش بعضـه البعض في عنف في الظلام الـرطب الذي أخذ يتجمع ، وغمرهما هـذا المنظر بالسعادة وقـد ظنًا أن راحتهما قد بدأت ، لتدعم حياة أخرى غير حياتهما .

وكان على « جوستين » أن تكمل الآن ما بـدأه « نسيم » . لقد جعلت الشرفة

القائمة تحت شجرة النخيل تمتد نحو الشرق ثم سورتها حتى تصد كثبان الرمال التي لا تكف عن الانتقال ، والتي تحركها الريح الشتوية نحو الأمام ، فتغطى أحجار الساحة بست بوصات من الرمال . وأشجار العليق الدائمة الخضرة والتي تشكل حواجز تتكسر عليها الريح وتزود الأرض بطبقة نحاسية قاتمة من أوراق الشجر المتعفنة والتي ستغدو على مر الأيام أرضًا صلبة تمد الشجيرات الصغيرة والكبيرة بما تحتاجه فيما بعد من غذاء .

كانت حريصة أيضًا على أن ترد لزوجها اهتمامه فقدمت له هدية تتصل بالفلك الذي كان يسيطر حينذاك على مشاعره . فقد أقامت في أحد أركان البناية المقامة على شكل حرف L مرصدًا صغيرًا يحتوى على تلسكوب يكبر الأشياء إلى ثلاثين ضعفًا . هنا كان يجلس « نسيم » في الشتاء ليلة بعد أخرى ، مرتديًا عباءته القيمة الحائلة اللون ، يحملق باهتمام في « الجوزاء » ، أو يهيم في كتب التقاويم التي تبحث في كل شيء يخص العالم وكأنه عراف من القرون الوسطى، هنا أيضًا كان في استطاعة أصدقائهم أن ينظروا إلى القمر أو يغيروا زاوية المنظار فيكشف لهم فجأة عن نتف كالدخان من سحاب لؤلؤى يبدو أن المدينة كانت تطلقه على الدوام زفرات بعيدة .

وغدا كل هذا بالطبع في حاجة إلى حارس ، ولم تصب الدهشة « نسيم » أو «جوستين » عندما جاء « بانا يوتيس » وأقام في حجرة صغيرة للغاية إلى جوار الاصطبلات . إن هذا الرجل العجوز بلحيته التي تشبه المجرفة وعيناه اللتان تشبهان الخرز كان يعمل لعشرين عامًا مدرسًا ثانويًا في دمنهور . وتلقي المراسيم الدينية وأمضى تسعة أعوام في « دير سانت كاترين » في صحراء سيناء . كان من المستحيل أن يعرف المرء ما الذي جاء به إلى تلك الواحة فقد قطع لسانه في فترة ما من حياته الخالية من أية مغامرة . ولقد بدا من الإشارات التي كان يقوم بها ردًا على الأسئلة التي وجهت إليه ، بأنه كان يقوم بالحج سيرًا على الأقدام إلى ضريح « سانت ميناس » الصغير والموجود في الغرب ،

فوقع على الواحة في طريقه . وعلى أى حال فقد بدا الأمر وكأن قراره بالبقاء في الواحة لم يكن صدفة ألبتة ، كان ملائماً للمكان تمام الملاءمة ، وهناك أقام طوال العام كحارس وبستانى في مقابل أجر ضئيل . كان رجلاً صغير الجسم قويًا ، نشيطًا كالعنكبوت ، يغار بصورة مخيفة على نباتاته الخضراء التي تدين بحياتها لمثابرته ورعايته . لقد كان هو الذي روض حوض البطيخ على الحياة وهو الذي نجح أخيرًا في إغراء كرمة عنب بأن تبدأ نموها وتسلقها قرب البوابة الوسطى . كانت ضحكته غير واضحة « كقوقة » الدجاج ، وكان من عادته أن يخفي رأسه في حركة خجلة في الكم البالى لرداثه الكنسي القديم . كانت ثرثرته اليونانية وقد حجزها عجزه تفيض في عينيه حيث تلمع وتتراقص لأقل ملاحظة أو سؤال .

لقد بدا وكأنه يقول : « ماذا يستطيع المرء أن يطلب من الحياة أكثر من هذه الواحة إلى جوار البحر ؟ » .

حقًا ماذا يريد المرء أكثر من هذا ؟ لقد كان هذا هو السؤال الذي ظل «نسيم» يردده لنفسه بينما السيارة تئن وهي متجهة نحو الصحراء « وسليم » بملامحه التي تشبه ملامح الصقر يجلس بلا حراك إلى عجلة القيادة . كان الطريق ينحرف قبل القلعة العربية متجهًا إلى الداخل بعيدًا عن الشاطئ ، وكان على المرء كي يصل إلى الواحة أن يحيد عن الطريق ويسير بحذاء كثبان رملية على صورة رقائق متيبسة كزلال البيض المضروب ، لامعة تشبه الميكا في المنجم، وكانت العجلتان الأماميتان لتلك العربة المترنحة تجدان على الدوام ما ينقذهما من طبقة الحجر الرملى الهشة والتي تشكل العمود الفقرى لكل ذلك الجبل الممتد إلى داخل البحر ، كلما همتا بأن تغوصا في الرمال . لقد كان مبهجًا أن يمخر المرء هذا البحر من المواد الهشة البيضاء كقارب شراعي يبحر أمام ريح لاحقة .

كانت تجول بخاطر « نسيم » منذ فترة مضت ـ وكان هذا الاقتراح في

الأصل اقتراح « بورسـواردن » ـ فكـرة أن يجازى « بنايـوتيس » العجوز على تفانيـه ، بالهدية الوحيـدة التي يمكن أن يفهمها الرجل العجـوز وأن يتقبلها : كان « نسيم » يحمل في تلـك اللحظة في حقيبته الـلامعة تصريحًا من بطـريرك «الإسكندرية » يسمح له بأن يبنى في منزله كنيسة صغيرة وأن يهبها « لسانت أرسينيوس » . ولقد تم اختيار القديس كما هي العـادة بطريقة عشوائية . فقد عثرت « كليا » على أيقوتة لهذا القديس منـذ القرن الثامن عشر . كانت الأيقونة في حالة جيدة وراقدة بين ركام دكان في الموسكي « بالقاهرة » .

كانت تلك هي الكنـوز التي أفرغـاها أمام عينى الـرجل العجوز المتطلعتين القلقتين . لقد استغرقـا قدرًا من الوقت حتى جعلاه يفهم ما يريـدان ، فقد كان يتابع العربية بفتور كما أن « نسيم » لم يكن يعرف اليونانية إلا أنه عندما رأى تصريح البطريـرك ضم راحتيه معـًا وطوح لحيتـه وهو يبتسم ، وبـدا وكأنه أوشك أن يتعثر تحت ثقل العواطف التي غمرته . لقد فهم الآن كل شيء . وأدرك لماذا كان « نسيم » يقضي تلك السـاعـات الطويلة يفحص الإسطبل الأخير الخالي ويخطط على الـورق . وهز يـدىّ « نسيم » بحـرارة وهو يصـدر أصواتـًا غير واضحة تشبـه قوقـة الدجاج . ومـال إليه قلب «نسيم » وهـو يحس شيئًا من الحسد الخبيث وقد رأى كيف فاض قلب الرجل بالسعادة لهذا العمل الذي يدل على الاهتمام به . ومن أعماق ظلام الأفكار التي مـلأت رأسه أخذ يفحص رجل الكنيسة العجوز في عنـاية ، وكأنه بهذا التقصي الشديد يود أن يفـاجئ بساطة قلب الرجل التي عادت عليه بالسعادة وراحة البال .

وفكر « نسيم » فيما بينه وبين نفسه ، هنا سأبنى على الأقل بيدىّ شيئًا ما ، شيئًا يحفـظ علىّ ثباتى وانتبـاهي ـ وأخذ يفحـص راحتى اليونـاني العجوز الجافتين بإعجاب الحاسد ، بينما كان يفكـر كم من الوقت قتلت تلك الأيدى من أجل صـاحبهـا ، وكم أراحتـه مـن التفكير . قـرأ فيهما سنـوات من النشـاط الجسـدى المليء بالعـافية والـذي غلق المنافـذ أمام انطـلاق الفكر وجـرده من

التأمل. ومع ذلك ... فمن يدرى ؟ تلك السنوات الطويلة التي قضاها في التدريس : وتلك السنوات في الدير . والآن يطبق الشتاء الطويل بوحدته على الواحة ، حيث لا أنيس لأفكار المرء غير هدير البحر وانزلاق أمواجه وحفيف سعف النخيل وصوت اصطدامه ببعضه البعض ... وفكر « نسيم » بينما كان يمزج الأسمنت والرمل الجاف بعزم وتصميم في جرن خشبي ، « هناك على الدوام وقت تتأزم فيه الروح » .

إن « نسيم » لم يُترك وحيدًا حتى في هذا المكان ، فقد جاءت « جوستين » ، وقد بدأ ينتابها شعور جنونى بالذنب نحو الرجل الذي أحبته ، ومع ذلك فإنها تحاول تحطيمه ، جاءت إلى منزلها الصيفي في الواحة ومعها ثلاثي خيلها العربية . لقد كانت رفيقة قلقة متقلبة المزاج متنمرة . وقد هرّبت لها ـ تحفزنى أحزانى المرعبة التي خلفها غيابها في نفسي ـ رسالة أخبرها فيها بأن تعود إلى المدينة أو تقنع « نسيم » بدعوتى إلى القصر الصيفي . وجاءنى « سليم » بالسيارة في الوقت المناسب وقادنى في صمت متعاطف لم يجرؤ على أن يقحم فيه أقل مظهر من مظاهر الازدراء والتحقير .

أما من ناحية « نسيم » فقد استقبلنى برقة مدروسة ، والحقيقة أنه كان سعيدًا وهو يرانا متلازمين مرة أخرى ، وهو يعزلنا عن إطار تقارير عملائه الزائف ، وأن يحكم بنفسه ما إذا كنا ... ماذا أقول ؟ « نحب بعضنا البعض ؟ » إن الكلمة تدل على شمول تفتقده عشيقتي التي كانت تشبه إلهة قديمة في أن سجاياها قد تكاثرت عبر حياتها ولم تتلخص في فضيلة واحدة من فضائل القلب يمكن للمرء أن يحبها أو لا يحبها . أما من الناحية الأخرى فإن حب «التملك » قوى غاية القوة : فقد كنا بشرًا لا شخصيات كرتونية من شخصيات « برونتي » . غير أن اللغة الإنجليزية تفتقر إلى المعانى المتميزة والتي يمكن أن تعطينا (كما تفعل اليونانية الحديثة) كلمة تعبر عن الحب العاطفي .

وما خلا ذلك فقد كنت عاجزًا عن تهدئة مخاوف « نسيم » الداخلية : وذلك

بأن أخبره أن « جوستين » تفعل معى نفس الشيء الذي يثير الهم والذي نهجته على صفحات كتاب « الأرنـاؤوطي » ، فقد كنت جاهلاً بما تنطـوى عليه أفكاره واتجاه تلك الأفكـار . إن « جـوستين » تثير في إرادتها رغبــة ، تتغـذى سرًا على ذاتها ولذا لابد لها أن تذبل كالمصبــاح ـ أو تنطفئ . إنني لم أدرك هذا إلا بجزء من عقلي : غير أنني اكتشفت هناك ذلك الشيء الحقيقي الذي تفتقــد إليه الرابطة التي بيننا . إنها لم تكن قائمة على أى صورة من صور الإرادة الحرة . ومع ذلك كم بـدت طريقــة حياتها ســاحرة .. محظيــة تفيض فطنة وفتنــة حتى أن المرء ليعجب كيف حدث وأحب من قبل وكيف قنع بما كان عليه الحبيب من صفات .

ولقــد دهشت في ذات الوقت إذ أدركت أن جـزئى المرتبط « بميليسا » كــان يعيش وجوده المستقل ، تعلق بها في هــدوء وثقة . ولكنه لا يـرغب في عودتها . وكانت الخطابات التي أرسلتها إلىَّ مرحــة مليئة بالعواطف التي لا يشوهها أى ظل من التأنيب أو الرثاء لذاتها .

ورأيت في كل مــا كتبت كيف ازدادت ثقتها بنفسـهــا . لقد وصفت المصحــة حيث كــانت تقيم ، بطــريقــة لطيفة وعين مـدققــة ، وصفت الأطبــاء والمرضي الآخرين كما يصف المرء نزهة قام بها . لقد بدت على الورق وقد نضجت وغدت امرأة أخرى . وجاوبت رسـائلهــا بقدر ما استطعت غير أنه كان من العسير علىَّ أن أخفي الارتباك الـذي لا حيلة لي فيه والذي تسلط علي حياتي ، لقــد كان من المستحيل وبنفس القدر أن أشير إلى انشغال بالى « جوستين » ـ كنا نتحرك عبر عــالم مختلف من الأزهــار والكتب والأفكــار ، عالم غــريب تمام الغــرابــة على «ميليسا » . إن الوسط الذي نعيش فيه ، لا افتقــارهـا إلى الحساسية ، هو الذي أغلق أبـوابه دونها . ولقد قــالت « جـوستين » ذات مرة « الفقر فــاصل كبير ، والثراء مانــع كبير » . إلا أن « جوستين » نالت تصريحًا بدخــول العالمين ، عالم الحاجة وعالم الوفرة ، ولذا فقد كانت حرة في أن تحيا حياة طبيعية .

غير أن المرء هنا في الــواحة يعيش على الأقل في وهم بــالسعادة الفــائقة التي

أفلتت منه في حيـاة المدينة . كنـا نستيقظ مبكرين ونعمل في الكنيسـة حتى تبدأ حـرارة النهـار في الاشتـداد ، حينما كـان يعتـزل « نسيم » إلى أوراق عملـه في مـرصده الصغير ، ونمتطـى أنا و « جـوستين » الجيـاد نقطع كثبـان الرمـال المتموجة كـالريش إلى البحر نقضي وقتنا في السباحـة أو الحديث . وكان البحر على بعد ميل من الواحة قـد أزاح كمية كبيرة من الرمال على هيئة دائرة صغيرة كونت بحيرة ضحلة المياه ، قام إلى جوارها كوخ من الغاب سقفه مغطى بأوراق الشجر ، وقـد حشر في صدارة واحـدة من الكثبـان الرمليـة ، كوخ يستخـدمه المستحم مكانًا يستظل فيه ويغير ملابسه . وقضينا في هذا المكان معظم النهار . وكانت أخبار مـوت « بورسواردن » ما زالت طازجة ، فتحـدثنا عنه في حرارة ورهبـة ، وكأنما نحـاول جـادين تقييم شخصيـة حجبت صفـاتها طبيعتهـا الحقيقيـة . وكأنه بمـوته قـد نفض عنـه شخصيته الأرضيـة وتقمص بعض الأبعاد المؤثرة الموجـودة في كتاباته ، والتي كانت تتراءى لأنظارنـا أكثر فأكثر بينما كانـت ذكرى الرجـل تذبل وتتـلاشي . لقد أمدنـا الموت بأسس انتقـادية جـديـدة وبأفق عقلى جـديد لتقييم هـذا الـرجل المتعب الـلامع ، عـديم التأثير والفاعلية ، الممل في أغلب الأحيـان والذي كان علينا أن نتعـامل معه . إن أحدًا لا يراه الآن إلا من خـلال المرآة السحريـة التي تعطى للإنسـان أشكالاً مشـوهة مضحكة أو من خـلال طيف الذاكـرة المعتم . ولقد كنت أسمع النـاس تتساءل فيما بعد إذا ما كان « بورسواردن » طـويلاً أم قصيرًا ، إذا ما كان له شـارب أم لا : لقـد كانت تلـك الذكـريـات البسيطة هي أشق الأشيـاء التي يمكن للمـرء استعادتها والتأكد منهـا . إن بعض الذي يعرفونـه جيدًا قالوا إن عينيـه كانتا خضراوين ، وقال آخرون إنها كـانت بنية ... كم كانت غريبـة تلك السرعة التي تلاشت بها الصـورة الإنسانية في الصـورة الأسطورية التي خلقهـا لنفسه في ثلاثيته « الله يحب الفكاهة » .

في تلك الأيام التي كان ضوء الشمس فيها يعشى الأبصار ، تحدثنا عنه هنا،

كأناس يتلهفون الإمساك بالذاكرة الإنسانية وتثبيتها قبل أن تغيم تمامًا في الأسطورة النامية ، كنا نتحدث عنه مؤكدين ومنكرين ومقارنين ، مثل عملاء سريين يتدربون على إلقاء قصة يقصد بها التمويه والتغطية ، لأنه برغم كل شيء فإن هذا الإنسان المخطئ كان ينتمي إلينا ، أما ذلك الإنسان الأسطورة فإنه كان ينتمي إلى العالم . لقد عرفت الآن أيضًا أنه قال « لجوستين » ذات ليلة، بينما كانا يتفرجان على « ميليسا » وهي ترقص « لو أنني اعتقدت بوجود أى أمل في نجاحي لعرضت الزواج عليها غدًا . إلا أنها جاهلة للغاية وقد شوه الفقر وسوء الطالع عقلها تشويهًا كبيرًا حتى أنها سترفض طلبي فهي لن تصدقه » .

غير أن « نسيم » كان يتتبعنا بمخاوفة خطوة خطوة . ووجدت ذات يوم كلمة « حذار » ، وقد كتبت باللغة اليونانية بعصًا فوق الرمال في مكان الاستحمام . وأوحت الكلمة اليونانية بأن كاتبها هو « بنايوتيس » غير أن « سليم » أيضًا كان يجيد اليونانية .

وقد تدعم هذا التحذير الموجه إليَّ بحادثة وقعت فيما بعد ذلك بفترة قصيرة للغاية ، وذلك عندما ضللت الطريق إلى مرصد « نسيم » الصغير ، بحثًا عن فرخ من الورق كي أكتب عليه خطابًا « لميليسا » ، ونقبت فوق مكتبه من أجل ما أريد. فلاحظت أن ماسورة التليسكوب كانت موجهة إلى أسفل حتى أنها لم تعد تشير إلى السماء ، ولكن عبر كثبان الرمال حيث ترقد المدينة في أبعادها الضبابية تغلفها السحب اللؤلؤية . لم يكن هذا بالأمر الغريب ، إذ أن رؤية أعلى المآذن بينما الأجواء تتكثف وتتبدل أمرًا مسليًا . وجلست فوق الكرسي ذى الأرجل الثلاث ووضعت عينى فوق المنظار ، حتى تلتئم أمامي صورة المنظر الذي كان يهتز ويرتعش ارتعاشة خفيفة . ورغم القاعدة الحجرية المتينة التي يقف عليها الحامل الثلاثي فإن قدرة العدسة العالية على التكبير والشبورة الدخانية الناشئة عن الجو بينهما قد جعلا الصورة تهتز هزات تشبه الريش مما جعل المنظر يبدو وكأنه يتنفس في رقة وبلا انتظام . ودهشت عندما رأيت

الكوخ الصغير المصنوع من الغـاب ، حيث كنت و « جوستين » مستقليين كل في ذراع الآخـر نتحدث عن « بـورسـواردن » ، يرتعش ويقفـز ورغم ذلك فإنـه واضح تمام الوضوح وحزمة صفراء لامعة فوق الكثبان الرملية تكشف غلاف كتاب من كتب الجيب هو « الملك لير » كنت قد أخذته معى ونسيت أن أعيده ولو لم تكن الصـورة تـرتعش على هـذا النحـو لكـان في وسعي دون شك أن أقـرأ العنـوان من على الغـلاف . وحملقت في تلك الصـورة وأنا ألهث لفترة طـويلـة وغمرنى الخوف . لقـد بدا الأمـر لي ، وكأن المرء في غرفـة مظلمة ولكنـه معتاد عليها وعلى يقين بأنه لا يوجد بها أحد ، وفجأة أحس بيد تمتد وتحط على كتفه . وغادرت المرصـد على أطراف أصـابعي وقد أخـذت معى رزمة الأوراق والقلم وجلست فوق كرسي كبير مريح أتطلع إلى البحر ، وأنا أحس الحيرة ماذا أقول « لميليسا » .

* * *

لم يكن قد تقـرر شيء في ذلك الخريف ، عندمـا أنهينا معسكـرنا وعـدنا إلى المدينة لنمضى فيهـا فصل الشتاء ، حتى مشاعـر الأزمة كانت قـد تضاءلت . وهناك غـرقنا جميعًا في الحل الضبابى لحيـاتنا اليومية والتي سيتبلـور منها المستقبل مهما كـانت المأساة التي تنتظـرنا . لقـد استدعيت كي أبـدأ وظيفتي الجديدة مع «سكـوبى » وحاولت بـلا جدوى أن أصل تلك الخطوط الملعـونة المتتـابعة فى اتجاهـات متضـادة والتى ظل «بلتـازار» يعلمنى إياهـا بين أدوار الشطـرنج . وأقر أننى حـاولت أن أخفف من وقع هذا الأمـر على ضميرى بأن أطلعت فى أول الأمـر ، العـاملين فى مكتب «سكـوبى» على الحقيقـة ـــ وهى أن «القـابـال» جماعـة لا ضرر منهـا وهبت نفسهـا للفلسفـة «الهرمـزيـة» وأن نشـاطاتها لا تمت إلى الجاسوسية بصلة . ولقد قيل لى بطريقة جافة ردًا على هذا بأننى يجب ألا أصدق هـذه القصة الـواضحة الـزيف لتغطية حقيقتهم . وعلىّ بدلا من ذلك أن أحاول حل الشفرة ـ وطلبـوا منى تقارير تفصيلية كنت أمدهم

بها فى حينـه ، إذ كنت أكتب على الآلة الكـاتبـة أحـاديث «بلتازار» عن «آمـون» و«هرمز بـريسمجستس» وأنا أحس بلذة المشاكسـة ، متخيلاً وأنا أفعل ذلك ، موظفـى الحكومة وهـم منهمكون يخوضـون خلال تلك المادة فى البـدرومات الرطبة على بعـد ألف ميل . غير أنى كنت أكافأ ماليًّا ، وأكـافأ بسخاء ، وغدوت لأول مرة قادرًا على إرسال قدر قليل من المال إلى «ميليسا » وأن أقوم بمحاولة لأسدد ما تديننى به «جوستين» .

وكـان ممتعاً ، أيضـاً ، أن أكتشف مَن من معـارفى عضواً عـاملاً فى شبكـة الجاسوسية تلك . لقد كان«منمجيان» ، مثـلاً ، واحداً من الشبكة ، وكان دكانه مركزاً لمراجعة أعمال الجاسـوسية العامة الخاصة بالمدينـة . كان اختياراً يثير الاعجاب . وكان «منمجيان» يؤدى عمله بحذر وبصيرة هائلتين ، كان يصر على أن يحلق لى ذقنى دون أجـر ، ولقد حز فى نفســى عندما علمـت فيما بعد بفترة طويلة أنه كان ينسخ فى صبر وأناة ثـلاثة نسخ من الملخصات التى كان يعدها من أعمال التجسس وأنه كان يبيعها لهيئات الجاسوسية الأخرى .

وكان هناك جانب آخر ممتع فى هذا العمل ، فقد كان للعضو منا سلطة الأمر بشن غارة تفتيشيـة على منزل أحـد الأصدقـاء . ولقد استمتعت كثيراً عنـدما أمرت بتفتيش شقـة «بومبال» . لقـد كان لهذا الـزميل البائس عادة مشئـومة وهى أن يحضر معه إلى المنزل ملفات القنصلية ليعمل بها مساء . ولقد وقعت فى أيدينا مجمـوعة كاملة من الأوراق بعثت البهجة فى نفس «سكـوبى» فقد كانت تحتوى على مـذكرات تفصيليـة عن النفوذ الفـرنسى فى «سـوريا» ، وقـائمة بأسماء عملاء «فـرنسا» فى المدينـة ، وقد لاحظت اسم «كـوهين» تاجـر الفراء العجوز فى واحدة من تلك القوائم .

وهزت هذه الغارة التفتيشية «بومبال» هزة عنيفة ، فظل لما يقرب من شـهر بعد ذلك يتلفت خلفه وهو يسير ، كان مقتنعاً بأن هناك من يراقبه وروج لفكرة متهوسـة وهى أن البعض قـد رشى «حميد » الأعـور ليقتله بالسـم ، ولم يعد

يقرب الطعام المطبوخ بالمنزل إلا بعد أن أتـذوقه أنا أولا . كان لا يزال فى انتظار ترقيته ونقله ولذا كان شديـد الخوف من أن فقده الملفات قد يؤثر على كليهما . غير أننا تركنا أغلفة التبويب عن عمـد فغدا فى مقدوره أن يعيدها إلى تتابعها مع مذكرة يقول فيها إن الملفات قد حرقت «طبقاً للتعليمات» .

وقـد حقق أخيرًا نجـاحـًا غير قليل خلال حفـلات «الكـوكتيل» التى كـان يخرجها فى عنـاية ـ والتى كان يقـدم فيها من حين لآخر ضيـوفاً من مجالات الحياة الفقيرة كـالبغايا والفنانـات . غير أن نفقات تلك الحفلات والعجـز الذى كانت تثيره كان عـذاباً شديد الألم . إننى أتذكـره وهو يشرح لى ذات مرة ، وفى صـوته رنـة شقاء ، أصل تلك الحفـلات : «إن حفلات «الكـوكتيل» ـ كما يـدل اسمها عليهـا ـ قد اخترعتها الكـلاب فى الأصل . إنها فى بسـاطة ارتفـاع بعملية الشمشمة السفليـة إلى مرتبة الحفـلات الرسميـة» . ورغم ذلك فقد واظب على إقامة مثل تلك الحفلات ، التى كوفئ عليها بأن أسبغ القنصل العام رعايته عليه ، ورغم احتقار «بـومبال» لهذا القنصل العام فإنـه كان ينظر إليـه بخوف يليق بالأطفال . لقد نجح «بومبـال» فى إغراء «جوستين» ، بعد كثير من الاستعطاف الذى يثير الضحك ، كى تظهر فى إحدى تلك الحفـلات لتعضد خططه فى أن ينال الترقيـة . ولقـد أعطتنـا هـذه الحفـلات فرصـة لـدراسـة «بـوردر» وحلقـة الدبلـوماسيين الصغيرة «بالاسكنـدرية» ـ وكـان الانطباع الذى تـركه القسم الأكبر من هؤلاء الناس هـو أنهم قد طليوا بالفرشـاة . كم بدت لى شخصياتهم الرسمية شاحبة ومشتتة .

كان «بوردر» نفسه وهماً أكثر منه رجـلاً . لقد ولد ليكون الشخصية التى يسخر منهـا رسام هزلى . كان لـه وجه شاحب طـويل يحمل تقاطيع شخص مفسد ، تزينه رأس فاخـرة ذات شعر فضى تعود أن يصطنعه بنفسه ، إلا أنها كانت مـلامح خادم تابع . إن زيف إيماءاتـه (واهتمامه وصداقته المبـالغ فيها لأبسط المعـارف) كـان له وقع منفـر مكننى من أن أفهم معنى الشعـار الـذى

وضعه صديقى للسلك الفرنسى الخارجي وكذلك العبارة التى أخبرنى ذات مرة بضررة وضعها على ضريح رئيسه (لقد كان خلاصه فى كونه وسطاً بين الجيد والردىء) . لقد حدث كل هذا بالطبع منذ سنوات قبل أن يشتهر «بوردن» بمفاوضاته من فوق الأسطول الفرنسى . ومع ذلك فإننى لا أستطيع أن أصدق أن ذلك الشخص ، كما عرفته ، قد أصابه أى تغيير : كانت شخصيته هزيلة نحيلة كقشرة من صفحة ذهبية سمكها غاية فى الرقة — إنها قشرة التهذيب التى يكتسبها الدبلوماسيون بما يتميزون به عن غالبية الرجال .

ونجحت الحفلة إلى حد الكمال ، ودعا «نسيم» الدبلوماسى العجوز إلى الغداء فطغى عليه سرور مفرط لا ادعاء فيه ولا تصنع . فقد كان معروفاً أن الملك كثيراً ما يحل ضيفاً على مائدة «نسيم» وكان العجوز قد أخذ يكتب بالفعل رسالة فى ذهنة تبدأ بالكلمات التالية . «بينما كنت أتغذى مع الملك فى الأسبوع الماضى أدرت الحديث إلى السؤال ... فقال ... وأجبته ...» وأخذت شفتاه تتحركان ، وعيناه تزوغان أمام المحتفلين فى واحدة من نوبات السبات التى اشتهر بها والتى كان يستيقظ منها بغتة ويفاجئُ محدثيه بابتسامة اعتذار بلهاء كابتسامة سمكة البكالاه .

ومن ناحيتى فقد وجدته أمراً غريباً أن أزور من جديد الشقة الصغيرة التى تشبه الحوض حيث أمضيت قرابة عامين من حياتى ، لأتذكر أنه فى هذا المكان ، وفى هذه الحجرة بالذات ، التقيت «بميليسا» لأول مرة. لقد أجريت فيها تغييرات كبيرة على يدى آخر محظيات «بومبال» .فقد أصرت على أن تُكسى جدرانها بالأخشاب وتُطلى باللون الأبيض وتزين بحواف من ألواح مدهونة باللون اللبنى القرمزى . وأعيد تنجيد المقاعد القديمة ذات المساند ، والتى كان حشوها يتساقط فى بطء فى مزق من جوانبها ، أعيد تنجيدها بالدمقس الثقيل المحلى برسوم زهور الزنابق بينما الكنبات الثلاث البالية قد أزيجت تماماً لتغطى المكان إتساعًا . لا بد أنها بيعت أو حطمت . وتذكرت فقرة من شعر الشاعر

الشيخ : «فى مكان ما ، لابد وأن تلك الأشياء البالية البائسة ما زالت تنبض» . كم تحقد الذاكرة ، وكم تمسك فى مرارة بالمادة الخام التى تستخدمها فى عملها اليومى .

وأصبحت غرفة نوم «بومبال» الهزيلة تشبه بصورة غامضة غرف أواخر القرن الماضى وكانت نظيفة كحلية جديدة . وربما وافق «أوسكار وايلد» على استخدامها منظراً فى خاتمة الفصل الأول لإحدى تمثيلياته . لقد عادت حجرتى كما كانت من قبل حجرة مخزن ، غير أن السرير كان ما يزال قائماً هناك إلى جوار الحائط قرب البالوعة الحديدية . واختفت الستائر الصفراء بالطبع واستبدلت بقطعة من القماش الأبيض القذر . ووضعت راحتى على الهيكل الحديدى الصدئ للسرير القديم فطعنتنى حتى الأعماق ذكرى «ميليسا» وهى تستدير بعينيها الصريحتين الصافيتين نحوى فى ضوء الحجرة الصغيرة المعتم. ولقد خجلت ودهشت من حزنى هذا . وعندما دخلت «جوستين» الغرفة خلفى ركلت الباب فأغلقته ، وللحال بدأت أقبل شفتيها وشعرها وجبهتها ، وأعصرها بين ذراعى حتى تكاد تلهث ، وإلا فاجأتنى والدموع فى عينى . لكنها أدركت الأمر فى الحال ، وبادلتنى القبلات بحمية مذهلة لا تسبغها على تصرفاتنا غير الصداقة وحدها . وتمتمت قائلة «إننى أعرف ، إننى أعرف» .

ثم خلصت نفسها منى فى رقة وقادتنى خارج الحجرة وأغلقت الباب خلفنا. وقالت فى صوت منخفض : «يجب أن أطلعك على شىء يخص «نسيم» . استمع إلىّ . ففى يوم الأربعاء ، اليوم السابق على مغادرتنا القصر الصيفى ، خرجت على ظهر الجواد فى نزهة بمفردى قرب البحر . كان هناك سرب كبير من طيور النورس فوق الشاطئ ، وفجأة رأيت السيارة عن بعد تتدحرج وتحبو عبر الكثبان الرملية نحو البحر ، و«سليم» جالس إلى عجلة القيادة . لم أستطع تبين ما يفعلان . كان «نسيم» جالساً فى المقعد الخلفى . واعتقدت أن العربة لا محالة غائصة فى الرمال ، ولكن كلا ، لقد إنطلقا نحو المياه حيث الرمال متماسكة

وأخذا يسرعـان على طول الشاطئ نحـوى . لم أكن على الشـاطئ ولكنى كنت فى تجويف يبعـد قرابـة خمسين يـاردة من البحـر . وبينما يسرعان ليصبحـا فى محاذاتى ، وبينما طـار سرب النـورس ، رأيت «نسيـم» وهـو يحمل فى يـديـه بندقيته القـديمة عديدة الطلقات . ثم رفعها وأطلق النـار مرة أخرى على سرب النورس ، الذى كـان كالسحابة حتى أفرغ مخزن البـارود . وسقطت ثلاثة أو أربعة منهـا إلى البحر وهى تـرفرف ، غير أن السيـارة لم تتوقف . وعبرا فى لمح البصر . لابد أن هناك طريقاً للعودة يمتد من الشاطئ الطويل إلى الحجر الرملى وهكـذا يعود مـرة أخرى إلى الطـريق الـرئيسى ، لأننى عندمـا عدت ممتطيـة جوادى بعد نصف ساعة ، وجدت أن العـربة قد عادت . و«نسيم» فى مرصده . كان الباب مغلقاً وقال إنـه مشغول . وسـألت «سليم» عن معنى هذا المشـهد غير أنه هز كتفيه فى بساطة وأشـار إلى الباب الذى يجلس «نسيم» خلفه . وكان كل ما قالـه : «لقد أعطانى الأوامر بـذلك» . غير أنك لو كنت قد رأيت ، يـا عزيزى ، وجه «نسيم» وهو يـرفع البندقية ...» وإذ هى تفكر فى منظـره رفعت أصابعها الطويلة بصـورة تلقائية إلى وجنتيها وكأنها تعدل تعبير وجههـا وقالت : «لقد بدا كمن أصابه الجنون» .

وفى الحجرة الأخـرى كانـوا يتكلمون بتأدب فى أحـداث العالم السيـاسية ، وعن الحالة فى «ألمانيا» . كان «نسيم» قـد حط فى رشاقة إلى جوار «بوردر» على كرسيه وكان «بومبال» يبتلع تثاؤبه الذى ظل يعاوده بطريقة مزعجة للغاية فى صورة كرعـات متتالية . وكان عقلى ما يزال مشغـولا «بميليسا» . لقد أرسلت لها مبلغاً من المال فى ذلك الأصيل ، وكنت أحس بالـدفء وأنا أفكر فيها تشترى لنفسها بهذا المبلغ شيئاً من الملابس الأنيقة ، أو حتى تنفقه بطريقة حمقاء . كان «بومبال» يتحدث بطريقة تمثيلية إلى امرأة متقدمة فى السن تبدو كجمل تاب عن آثامـه» . النقود . يجب أن يتأكد المرء على الـدوام من وجود مصـدر يمده بها . لابـد أن المدام تعـرف المثل العربى القـائل : « الغنى يشترى الغنى ، أمـا الفقـر فيشترى بالكاد قبلة أبرص!».

وقـالت «جـوسـتين» : «هيـا بنا» . وأدركـت وأنا أنظـر عينيهـا الـداكنتين الدافئتين ـــ بينما كنت أودعها ـــ أنها تكهنت بأن رأسى مشغول تمامـاً فى تلك اللـحظة «بميليسا» ، ولقـد أعطى هذا الإدراك ليدها وهى تصـافحنى مزيداً من الدفء والمشاركة الوجدانية .

وأعتقد أنه فى تلك الليلة ، بينما كانت تـرتدى ملابس العشاء ، جاء «نسيم» إلى غرفتها ، وتـوجه بالحديث إلى صورتهافى المرآة التى تشبه المجـرفة . قال فى حـزم : «جوستين» ، لابـد لى أن أسألك ألا تظنى بىّ الجنون أو أى شىء آخـر يماثله ولكن ـ هل كـان «بلتازار» فى يوم من الأيام أكثـر من صديق لك؟» كانت «جوستين» تضع حلية ذهبية على صورة حشرة مجنحة فى حلمة أذنها اليسرى، فنظـرت إلى أعلى إليـه لفترة طـويلـة قبل أن تجيب بنفس لهجتـه : «كـلا ، يـا عزيزى».

«شكراً» .

وبحلق «نسيم» فى صــورتـه فى المرآة لفترة طـويلة بثقـة وتـرقب ثم تنهـد وتناول من جيب صديريته التى يلبسـها مفتاحاً صـغيراً ذهبيًّا على شكل «عنخ» رمز الحيـاة عند المصريين القدماء ، وقـال فى خجل شديد : «إننى فى بسـاطة لا أستطيع أن أعرف كيف وصل هـذا المفتاح إلى حوزتى» . ومد لها يـده بالمفتاح كى تـراه . لقد كـان مفتاح السـاعـة الصغير الذى سبب فقـده كثيراً من القلق «لبلتازار» وحملقت فيه «جوستين» ثم فى زوجهـا بشىء من الانزعاج وقالت : «أين كان ؟»

«فى علبة الأزرار» .

واستمـرت «جوستين» فى إتمام زينتهـا ولكن بخطى أبطأ ، وهى تنظـر فى دهشة إلى زوجها الـذى كان من ناحيته يتمعن تقاطيعـه بنفس التدقيق العاقل المتأن : «يجب أن أجد وسيلة أعيده بها إليه . ربما سقط منه فى أحد الاجتماعات غير أن الشىء الغريـب هو ...» وتنهد مـرة أخرى : «إننى لا اتـذكر» لقـد كان

واضحاً لكل منهما أنـــه قـد سرقــه . واسـتـدار «نسيم» على عقبيـــه وقــال : «سأنتظـرك فى الطابق الأسفـل» . وعندمـا أغلق البـاب خلفه فى رقـة فحصت «جوستين» المفتاح الصغير فى فضول .

* * *

فى هذا الوقت كان «نسيم» قد بدأ يعيش تلك الدورة من الأحلام التاريخية ، والتى حلت فى عقلــه الآن محل أحــلام صباه ، وألقت المدينـة بنفسـهـا فى غمار أحــلامه تلك ــ وكأنها قـد عثرت أخيراً على شىء إيجابـى تعبر من خلالـه عن رغباتها الجماعية التى كانت تنبئ عن ثقافتها . كان يسـهر ليرى الأبراج والمآذن مطبوعة فوق السماء المرهقة المعفرة بتراب ناعم ، يراها وكأنما قد لصقت عليها البصمات العمـلاقة لأقـدام الـذاكرة التـاريخيـة التى تكمن وراء الـذكريـات الشخصية للفرد ، لتكون الموجه والمرشد ، والمبدع الحقيقى ، حيث إن الإنسان ليس إلا امتداداً لروح المكان .

ولقد أزعجته تلك الأحلام ، لأنها لم تكن بأى حال من الأحوال أحلام الليل ، لقد غطت الحقيقـة واحتوتها ، وأعـاقت عقله اليقظ ، وكان غشـاء وجدانـه قد تمزق فجأة فى أماكن عدة ليسمح لها بأن تعبر وتمر .

وانتابته جنباً إلى جنب مع تلك التراكيب الخيالية العملاقة ـ والتى تمثلت فى معـــارض ، صــور على النمط التقليـــدى لفن المعمار فى القـرن الســـادس عشر استنبطها من قراءته وتأمله فى ماضيه الخاص وماضى المدينة ـ إنتابته نوبات متـزايـدة الحدة من شك لايستند إلى العقـل ضد «جـوستين» التى لم يكن قــد تعـرف عليها من قبل إلا نـادراً ، «جـوستين» الصديقـة المواسيـة والعاشقـة المتفانية. كانت تلك النوبـات لا تستمر إلا لفترة قصيرة ولكنها كانت من العنف بحيث أنه ، وهو يعتبرهــا عن حق الوجه الآخر للحب الذى يحسه نحـوهـا ، بدأ يخاف من الحلاقـة فى الحمام الأبيض القـاحـل كل صبـاح . وكثيراً مــا لاحظ

الحلاق الصغير وهو ينشر فوطتـه البيضاء فى صمت فوقه ، وجـود الدموع فى عينى زبونه .

ولكن بينما احتلت أحلام الماضى الجزء الأمـامى من عقله كـانت أشخاص أصدقائه ومعارفه ، حقيقة ملموسة ، تسير جيئة وذهاباً بين تلك الأحلام ، بين أنقـاض «الإسكندريـة» التقليـدية ، وتحتل فى الماضى فترة زمنيـة تثير الحيرة وكأنها أشخـاص حقيقية ذات شأن . وعكف «نسيم» فى جـد واجتهاد ككـاتب أمين على تسجيل كل ما رآه ومـا أحسه فى يومياته ، مصـدراً أوامره «لسليم» ، الذى لا يؤثر فيه شىء ، بأن ينسخها له على الآلة الكاتبة .

لقد رأى «الموسوية» ، مثلا ، بفنانيهـا المتجهمين الذين أمدوا بالمال بسخاء ، ينقشـون لوحـة تذكـارية لمؤسسيهـا : ورأى فيما بعد أن الفليسـوف من بين المتوحدين والحكماء يتمنى في صبر وأناة أن يغدو العالم دولة خاصة محرمة لا جدوى منها لأحد سواه ـ حيث إنه فى كل مرحلة من مراحل التطور يلخص كل رجل ، الكـون جميعه ، ويجعلـه ملائماً لطبيعتـه الداخليـة : بينما يخصب كل مفكر ، وتخصب كل فكرة الكون من جديد .

وتمتمت له النقوش المدونة فوق رخـام المتحف عندما مر بها وكأنها شفاه تتحـرك . كـان «بلتـازار» و « جـوستين » فى انتظاره هنـاك . وكـان قـد قـام لرؤيتهما، وأذهله ضـوء القمر وظلال صفوف الأعمدة وقـد بللها الماء . كان فى وسعه أن يسمع صـوتيهما فى الظلام ، وأخـذ يفكر ، بينما أطلق صفيراً خـافتاً كانت تميزه بـه «جوستين» دائما ، «إنها لمسألة مبتذلة من الناحيـة الفكرية أن يقضى الإنسان وقته واثقاً أشد الوثوق فى المبادئ الأولية كما يفعل «بلتازار»» . وسمع صوت الرجل الذى يكبره سنًّا وهو يقول : «والأخلاق لا شىء إن كانت مجرد شكل مظهرى للسلوك الطيب» .

وسار عبر الأقـواس متجهاً نحوهما فى بطء . وخطط ضوء القمـر والظلام الأحجار الرخاميـة فبدت كالحمار الوحشى ، كانا يجلسـان فـوق غطاء تابوت

رخامى ، بينما كـان «بورسواردن» يسير جيئة وذهابـاً يصفر نغماً من ألحان «دونيـزتى» فى مكان مـا فى ظـلام الفنـاء الخارجى القاتم كـالقلب المتحجـر . وتحولت «جـوستين» بحليتها الذهبيـة التى فى أذنيهـا ، تحولت فى ناظـريه إلى واحـد من أحلامـه فرآهـا و«بلتـازار» ، رؤى كأنها الحقيقة ، وهما يـرتديـان بطريقة مبتذلة رداءين نحتهما ضياء القمـر نحتًا عميقاً . وكان «بلتازار» يقول فى صوت عـذبه التناقض الظـاهرى الذى يكمن فى قلـب كل دين : «بالطبع فإن التبشير بالإنجيل على نحـو ما يعتبر عمـلاً شريراً ، هـذه واحدة من سخـافات المنطق الإنسانى . ليـس الإنجيل على الأقل هو الذى يـورطنا مع قـوى الظلام ولكنه التبشير الذى يفعل ذلك . لهذا فإن «القابال» مفيد للغاية لنا . إنه لا يضـع أيًّا من القواعد أكثر من علم اليقظة الصحيحة» .

وأفسحت «جوستين» و«بلتازار» له مكانًا فوق مقعدهما الرخامى ، غير أنه هنا أيضـاً وقبل أن يصل إليهما اختلطت عليه الرؤيـا ، وتداخلت بقوة مشـاهد أخرى ، دون اعتبـار لترابطها ، والوقت الذى يـراها فيه ، ودون اعتبـار للزمن التاريخى والاحتمالات العامة لحدوثها .

إنه يـرى فى وضـوح تـام الضريح المقدس الذى بنـاه الجنود المشـاة للآلهة «إفروديـت» ... الحمام ... على ذلك الشاطئ المهجـور الذى يغطيه الطمـى . لقد كانـوا جوعى . ودفعهم طـول السير إلى أقصى حدود الاحتمال ، وبـرز شبح الموت الـذى يسكن أعماق كل جنـدى بصـورة حادة حتى تـراءى لهم فى دقـة ووضـوح غير محتملين. فدواب الحمل تنفق لقلـة العلف ، والرجـال يموتـون لنقص الميـاه . إنهم لم يجرؤا على الوقـوف عند الآبـار والينـابيع المسمومـة . والحمير البريـة تتسكع حـولهم بطـريقـة تثير الغيظ إذ أنها أبعـد من مـرمى سهامهم. إنها تصيبهم بالجنون لما كانوا يتوقعـونه من لحمها الذى لن ينالوه طالما أن الطابور يتقدم منتشراً عبر الحفر المتنـاثرة لذلك الشـاطئ الشـائك . كان عليهم أن يسيروا قدماً إلى المدينة رغم النبوءات والنذر . وسار المشاة عرايا رغم

إدراكهم أن هذا عمل جنوني . وقد تبعتهم أسلحتهم في عربات كانت على الدوام متأخرة . وقد ترك الطابور خلفه الرائحة الحامضة لأجساد لم يمسسها الماء - رائحة العرق وبول الثيران : رماة المقاليع المقدونيين «يظرطون ويفسون» كالماعز .

وكان أعداؤهم يتمتعون بأناقة تبهر الأنفاس - فرسانًا في دروعهم البيضاء التي كانت تبدو وتختفي عبر طريق مسيرتهم كالسحب . يراهم المرء عن قرب فيجدهم رجالاً يرتدون العباءات الأرجوانية وصديريات مطرزة وسراويل حريرية ضيقة . ويضعون سلاسل ذهبية حول أعناقهم السمراء ، وأساور حول أذرعتهم التي تحمل النبال . كان المرء يشتهيهم كما يشتهي سربًا من النساء . أصواتهم عالية وفتية . أي تناقض كانوا يشكلون مع رماة المقاليع ، رجال الطابور المدربين الأشداء والذين لا يعرفون إلا أيام الشتاء التي تجمد صنادلهم في أقدامهم ، أو أيام الصيف التي ييبس عرقها جلد الصنادل تحت أقدامهم حتى يغدو في صلابة الرخام . إن غنائم الذهب ، وليست العاطفة ، هي التي جعلتهم يلتحقون بهذه المغامرة التي يتحملونها في صبر وأناة أولئك الذين ينالون أجرهم بكدهم . وغدت الحياة الخالية من الجنس كسير من جلد يغوص في أعماق الجسد . كانت الشمس قد لفحتهم وحرقتهم ثم داوتهم وشفتهم وحبس الغبار أصواتهم وغدا من العسير عليهم وقد اشتدت حرارة الشمس أن يرتدوا خوذاتهم المزدانة بريش الشجاعة والتي خرجوا بها لغزوتهم - وأفريقيا التي تراءت لهم امتداداً لأوروبا - امتداداً للحدود ولماض معين - قد أكدت نفسها لهم كشيء مغاير لما تخيلوه عنها : ظلمة منكرة حيث يسابق نقيق الغربان الصرخات الجافة لرجال خارت منهم العزائم ، والضحك بمقدار كهمهمات أطفال القردة الإفريقية .

كانوا يأسرون في بعض الأحيان أحد الأشخاص - رجلاً وحيداً خائفاً خرج يصطاد الأرنب - وكانت تصيبهم الحيرة عندما يجدون أنه آدمي مثلهم . كانوا

يجردونه من أسماله ويحملقون فى أعضائه التناسلية باهتمام من يتقن عملاً لا يفهمه . وفى بعض الأحيان كانوا ينهبون إحدى الأبروشيات أو عقارات الأثرياء من عند سفوح التلال ، ويتغذون بلحم الدلفين المحفوظ فى الجرار (جنود سكارى يحتفلون فى جرن بين الثيران ، يتطوحون ، يرتدون أكاليل من أوراق نبات برى حاد الأطراف ، ويشربون من أكواب ذهبية أو مصنوعة من قرن الحيوان وقد وقعت غنيمة في أيديهم) كل هذا كان قبل أن يبلغوا الصحراء ...

وعندما تداخلت الطرق قدموا القرابين «لهرقل» (واغتالوا الحارسين فى نفس الوقت ، حتى يضمنوا السلامة لأنفسهم) . ولكن منذ تلك اللحظة سار كل شىء فى الطريق الخاطئ . كانوا يعرفون دون أن يجهروا بأنهم لن يصلوا المدينة أبداً ، وأنهم لن يستولوا عليها . وأنت أيها الإله ! لا تدع الشتاء الذى قضاه الجنود عرايا فى التلال بلا خيام ، يتكرر مرة أخرى . لقد أكل الصقيع الأصابع والأنوف!. والغارات! إنه ما يزال يسمع ضمن ما تعيه ذاكرته من ذكريات ، صوت وقع أقدام الحارس وهى تقرقش وتعصر الجليد طوال الشتاء. لقد كان الأعداء فى تلك المنطقة يرتدون فوق رؤوسهم جلد الثعالب والهامات الكاسرة ، والصيديريات الطويلة التى تغطى سيقانهم . كانوا صامتين ينتمون بصورة فريدة ــ كما تنتمى الخضرة حولهم ـ إلى تلك الوهاد الحادة والممرات التى تكونها الخطوط الفاصلة الهائلة بين وديان الأنهار التى تقطع الأنفاس .

وغدت الذاكرة ، مع سير الطابور ، أداة تصنع الأحلام التى تجمعها الشرور السائدة فى طائفة من الأفكار القائمة على الحرمان. لقد كان «نسيم» يعرف أن الرجل الهادئ هناك ، إنما يفكر فى الوردة التى عثر عليها فى سريرها يوم الاستعراض الرياضى . وأن الآخر لا يستطيع أن ينسى الرجل ذا الأذن المقطوعة . أما طالب العلم المتأفف والذى أجبر على الخدمة العسكرية فإنه يحس أن المعارك قد أصابته ببلادة الفكر فغدا كالمبولة فى حفل سكر على الطريقة

اليونـانية القديمـة . وذلك الرجل البـدين برائحته الغـريبة كرائحـة الأطفال : وصاحب النكتـة الذى جعل طليعة الجيـش تهدر بالضحك من قفشاتـه . كان يفكر فى مزيل جديد للشعر من مصر ، فى سريـر علامته التجارية «هرقل» دليل النعومة ، فى حمائم بيضـاء مقصوصة الأجنحة ترفرف حـول مائدة الولائم . لقد كان يقابل طـوال حياته بالضحك الصاخب وتحيات الشبـاشب عند أبواب المواخير . وكان هناك آخرون يحلمون بمتع أقل شيوعاً من تلك المتعة ـ يحلمون بأن يعفروا رؤوسـهم بالأسبيـداج ، أو بالتلاميذ وقد ساروا فى الفجـر عرايا فى طـابـور كل اثنين متجـاورين متجهين إلى مـدرسـة معلم القيثـارة عبر الثلج المتسـاقط الكثيف كالـدقيق . واحتفل العـوام فى الريف «بـديونيس» حـاملين صورة جلدية ضخمة لعضو التذكير رمز التناسل وهم يزمجرون ، ولكنهم ما أن اطلعـوا على الطقوس حتى أخـذوا ملح التقـدمة وصـورة الرمـز فى صمت مرتجف . وتكاثرت أحـلامهم فى أعماق «نسيم» ، الذى ما أن سمعهم حتى فتح طريق الـذاكرة أمام وجـدانه ووعيه فى مهـابة وعظمة كما يفتتح المرء شـارعاً رئيسيًّا .

لقـد كان غـريبـاً أن يتجه إلى جـوار «جـوستين» فى ضوء القمـر الخريفى الأسمر النحاسى عبر ذلـك المد الوبيل من الذكريات : وأحـس بأن كيانه المادى يزيح أحلامه بما له من وزن ثقيل . وتحرك «بلتـازار» ليفسح له مكاناً وهو ما يزال مستمـرًّا فى الحديث إلى زوجته بصـوت منخفض . (لقد شربـوا الخمر فى تـؤدة ولم يتنـاثر منهـا إلا القليل على أرديتهم . لقـد أخبرهـم قـادتهم أنهم لن ينجزوا المهمـة أبداً ، لن يعثروا على المدينـة أبدًا.) وتذكـر «نسيم» فى وضوح ، كيف كانت تجلس «جوستين» متربعة فوق السرير ، بعد أن يضاجعها ، وتبدأ فى ترتيـب رزمة أوراق اللعب القديمـة التى كانت تحتفـظ بها دائماً على الرف بين الكتب ـــ وكأنها تحصى مـا تبقـى لهما من حظ سعيـد بعـد تلك المرة الأخيرة والتى غـاصا فيهـا فى ذلك النهر التحتى الثلجى من الـوجد والهوى والـذى لم

تستطع «جـوستين» أن تكبته أو تـرويه . (لقـد قال «بلتـازار» ذات مرة : «إن العقول التى تمزقهـا رغباتها الجنسية ، لن تجد الراحـة حتى يقنعها كبر السن والقوى المنهكة بأن الصمت والهدوء ليساعدوين لها»).

هل كان كل ما انتاب حياتهما من تنافر مقياساً للقلق الذى ورثاه عن المدينة أو العصر ، فغالباً ما كان «نسيم» يقول . «أوهْ يا إلهى ، لماذا لا نغادر تلك المدينة يا «جوستين» ، ونبحث عن جو أقل تشبعـًا بهذا الإحساس بالضياع والفشل؟ وحلت بخاطره كلمات الشاعر الشيخ وضغطت عليه كما يضغط العازف مسند القدم فى «البيان» وأخـذت تفور وترتد حول الأمل الـواه الذى نبعت الفكرة من مرقده القاتم .

ليس هناك يا صديقي أرض جديدة ولا بحر جديد
ستتبعك المدينة :
بنفس الأشياء البعيدة عن العقل وهى تنحدر من الشباب إلى الشيخوخة .
فى نفس الشوارع التى تتداخل إلى ما لا نهاية .
وفى نفس البيت سيبيض شعرك .
المدينة قفص
لن تجد نهاية لمطافك غير هذه النهاية .
لن تجد سفينة تحملك . آه . ألا ترى .
كيف حطمت حياتك فى كل الأرض
بمجرد أن ضيعت نفسك هنا فى هذا المكان .

وقال لنفسـه فى هدوء ، وهو يتحسس جبينـه ليرى إذا ما كـانت الحمى قد أصابته : «إن مشكلتى أن المرأة التى أحببتها قد منحتنى شعوراً كاملاً بالرضى دون أن ينال هذا الشعـور ألبتة من سعادتها هى» ، وأخذ يستعيـد فى فكره كل الأوهام التى أخذت تؤكد حقيقتها بدلائل مادية . أعنى أنه قد ضرب «جوستين» حتى آلمه ذراعه وتحطمت العصا بين يديه . لقد كان كل هذا بالطبع حلماً . ومع

ذلك فإنه وجد عندما استيقظ أن ذراعه يؤلمه وأنه متورم . ماذا يصدق المرء عندما تسخر الحقيقة بما يستعرضه الخيال؟

وفى نفس الوقت ، بالطبع ، أدرك «نسيم» إدراكاً تاماً أن معاناته ، وفى الحقيقة كل علته إنما هى بذاتها شكل حاد من أشكال تضخم الذات ، وجاءت كل تعاليم «القابال» كريح لاحقة تنفخ فى احتقاره لذاته ، كان فى وسعه أن يسمع صوت «أفلاطون» يتكلم ، كأصداء بعيدة فى ذاكرة المدينة ، يتكلم عن السير نحو نور جديد ، نحو مدينة من الضياء جديدة . لا عن الهرب بعيداً من ظروف دنيوية غير محتملة . «ومع ذلك فإنها رحلة لا يمكن إنجازها سيراً على الأقدام . انظر إلى أعماق نفسك ، انسحب إلى أعماق نفسك وانظر» غير أن هذا العمل كان هو العمل الوحيد ، الذى أدرك الآن أنه سيعجز دونه إلى أبد الآبدين .

إنه لأمر يثير دهشتى ، أن أتذكر وأنا أسجل تلك الصفحات ، كم كانت الدلائل الظاهرة على سطح حياته ، والتى تعكس ذلك التغير الداخلى ضئيلة للغاية ـــ حتى لهؤلاء الذين كانوا يعرفونه معرفة وثيقة . كانت هنالك أشياء قليلة يمكن أن يضع المرء أصبعه عليها ـــ مجرد إحساس بأن الأمور ليست كالمعتاد ـ إنها كما يُعزف لحن معروف بطريقة بها بعض النشاز . لقد بدأ فى الحقيقة خلال تلك الفترة فى إقامة الولائم بإسراف لم تعرفه المدينة من قبل حتى بين أوساط أغنى الأسر وأثراها . لم يعد البيت الكبير يخلو الآن من الضيوف . واحتلت جناح المطبخ الكبير حيث غالباً ما كنا نسلق لأنفسنا بيضة أو نغلى كوبًا من اللبن بعد عودتنا من حفلة موسيقية أو مسرحية ـ والذى كان حينئذ مترباً ومهجوراً ـ أورطة دائمة من الطباخين ، الذين يشبهون الجراحين والممثلين بطراطيرهم البيضاء فى لون الدقيق . وكان عدد من العبيد السود يقطعون الحجرات العاوية ، والسلم الطويل ، والقاعات والصالونات حيث يتردد أنين الساعات فى أبهة ، كبجع يقوم بمهام خطيرة . وكانت ملابسهم التيلية البيضاء التى تفوح منها رائحة مكواة القدم نظيفة خالية من البقع ـ وقد

تحزم كل منهم بزنار قرمزي ثبت في وسطه مشبكاً ذهبيًا على شكل سلحفاة : هي الرمز التي اتخذه «نسيم» لنفسه . كانت الطرابيش التقليدية القرمزية التي تشبه أصص الورد تعلو عيونهم الناعمة كعيون خنزير البحر ، وأيديهم التي تشبه أيدي الغوريلا موضوعة في قفازات بيضاء . كانوا صامتين صمت الموت ذاته .

ويمكن القول أن «نسيم» إن لم يكن قد تفوق كثيراً في بذخه وإسرافه على الشخصيات المصرية الكبيرة فمن المحتمل أنه كان يفكر في أن يبذهم في هذا المضمار . كان البيت على الدوام مليئاً بالحياة ، إما بالرباعي الموسيقي الرصين الذين يشبه نبات السرخس ، وإما بأصوات الساكسفون العميقة والتي تشكو لليل كما يشكو زوج تخونه زوجته .

وفتحت خلوات وأركان مفاجئة في حوائط حجرات الاستقبال الجميلة الطويلة لزيادة قدرتها الكبيرة بالفعل على استيعاب الجلوس . وفي بعض الأحيان كان يجلس إلى عشاء فاخر لا معنى له أكثر من مائتي أو ثلاثمائة ضيف ـ يرقبون مضيفهم وقد غرق في تأمل وردة ترقد أمامه في طبق فارغ . ومع ذلك فإن هذا التصرف لم يكن الشيء الوحيد الذي يلفت الأنظار فيما ينتابه من ذهول . فقد كان يبتسم ابتسامة مفاجئة لحديث تافه يدور إلى جواره، يبتسم كما يبتسم امرؤ يزيح كوبًا مقلوبًا ، ليكتشف نوعًا من المخلوقات الحشرية النادرة لا يعرف اسمه العلمي ، كان الكوب يخفيه أسفله .

ما الذي يمكن إضافته إلى ما سبق ؟ كان من العسير أن يلحظ المرء أي مظهر من مظاهر الإسراف البسيط في ملبسه كشخص كانت تبدو ثروته على الدوام وكأنها تتناقض بطريقة شاذة مع ذوقه في ارتداء « بناطيل » من الفانلة وسترات من التويد . ولقد بدا الآن في حلته « الشاركسكين » الناعمة كالثلج والزنار القرمزي كما كان يجب أن يبدو على الدوام ـ أغنى رجال الأعمال بالمدينة وأكثرهم وسامة ، هؤلاء اللقطاء الحقيقيون . وأحس الناس أنه قد

احتل مكانه أخيرًا . فهكذا يجب أن يعيش شخص له مقامه وثروته . واشتم رجال السلك الدبلوماسي وحدهم من هذا البذخ الحديث ، رائحة خطة تكمن وراءها دوافع خفية ، ربما كانت مؤامرة لأسر الملك . وبدأوا بأدبهم المدروس يكثرون من التردد على مرسمه . كان في استطاعة المرء أن يحس بالفضول القلق خلف سمات وجوههم المزوقة الخاملة ، والرغبة في معرفة دوافع « نسيم » ونواياه . ففي تلك الأيام كان الملك ضيفًا كثير التردد على المنزل الكبير .

في تلك الأثناء لم يعكس كل هذا أي تحسن على الوضع الأساسي . وبدا الأمر وكأن العمل الذي انتواه «نسيم » ينمو في بطء لا نهائي . مثل « الستالاكتيت » ، مثل الترسيبات التي تتكون مدلاة من سقوف الكهوف ، أي أنه كان هناك وقت يملأ فراغ المسافة بين التدبير والتنفيذ ـ الصواريخ تشق طريقًا من الشرر عبر السماء التي تشبه القطيفة : وتخترق الليل أبعد وأبعد حيث أرقد أنا و «جوستين » كل منا يمسك الآخر بين أحضانه ، وفي عقله كان المرء يرى في حياة النافورات الساكنة خيالات الوجوه الآدمية ، وقد أشعلتها النجوم الذهبية والقرمزية أثناء ارتفاعها وهي تئز في السماء كالبجع العطشان . وفي الظلام وضعت يدها الدافئة على ذراعي ، وكان في وسعي أن أرقب سماء الخريف وقد راحت في رجفات من الضياء الملون في هدوء كهدوء شخص انحسرت عنه وتناثرت آلام عالم الإنسان التي لا تستحق شيئًا . كالألم عندما يظل مدة طويلة ، ثم ينتشر كالطوفان من عضو محدد ليغمر منطقة كاملة من الجسد أو العقل : ولم تفعل الأخاديد الجميلة التي خلفتها الصواريخ وراءها فوق صفحة السماء أي شيء بنا غير أن تملأنا بإحساس الانبهار الذي ينسجم مع الطبيعة الكاملة لعالم الحب الذي كان على وشك أن يهجرنا.

كانت تلك الليلة على وجه الخصوص مليئة بوميض البرق الصيفي النادر : وما أن أنتهى هذا العرض حتى جاءت من الشرق ـ من الصحراء ـ قشرة رقيقة من الرعد تشبه في شكلها قشرة قرحة فوق الصمت الشجي . وسقط مطر

خفيف ، فتى ومنعش ، وللحال امتلأ الظلام بأشباح تسرع عائدة لتحتمى بالمنازل المضاءة ، ورفعت الملابس فوق مفصل القدم وعلت الأصوات في لهو صاخب . وتركت المصابيح للحظة قصيرة آثار أجسادها العارية فوق المواد الشفافة التي تحيط بها . أما نحن فقد اتجهنا في صمت إلى داخل إحدى المظلات التي تقع خلف السور الذي تغطيه النباتات الحلوة الرائحة ، ورقدنا فوق دكة حجرية منحوتة على شكل بجعة . وتدفق الجمع الثرثار الضاحك مارًّا بمدخل المظلة متجهًا نحو الضوء ، ورقدنا في أرجوحة من الظلام نحس وخزات المطر اللطيفة فوق وجوهنا . وأضاء رجال يرتدون سترات العشاء آخر المصابيح الكهربية في جسارة ، ورأيت من خلال شعرها آخر المذنبات الباهتة وهي تنزلق إلى أعلى فى الظلام . وتذوقت ، مع متعتى بالألوان التى توهجت في رأسي ، ضغط لسانها الدافئ البريء على لسانى ، وذراعاها على ذراعي . وعجزنا عن الكلام ـ من فرط سعادتنا ، كنا ننظر باستمرار إلى بعضنا البعض بعيون مليئة بدموع متحجرة .

ومن المنزل وصلت إلى أسماعنا أصوات « طقطقة » سدادات زجاجات الشمبانيا وضحكات البشر .

« إننا الآن لا نقضي ليلة واحدة بمفردنا » .

« ماذا يحدث « لنسيم »؟ »

« لم أعد أعرف شيئًا . فعندما يود أحد أن يخفي شيئًا ما فإنه يتحول إلى ممثل . ويفرض هذا على كل من يحيطون به أن يمثلوا بنفس قدرته » .

لقد كانت الحقيقة أن نفس الرجل يسير على سطح حياتهما المشتركة ـ نفس الرجل المجامل ، الرقيق ، الدقيق : ولكن كل شيء كان قد تغير بصورة مخيفة ، لم يعد له وجود في حياتهما . « لقد هجر كل منا الآخر » . قالتها في همسة صغيرةلاهثة وهي تضغط نفسها أكثر قربًا مني مما صعد بمشاعرنا إلى قمتها ورنت قبلاتنا التي كانت خلاصة كل ما شاركناه سويًّا . فأمسكنا بهافي قلق

للحظة بين أيدينا ، قبل أن تغيض في الظلام المحيط بنا وتذهب عنا بلا عودة . ومع ذلك فقد بدت وكأنها تقول لنفسها في كل معانقة : « ربما كان من خلال هذا الشيء بالذات والذي يؤلم أشد الألم والذي لا أرغب في أن ينتهي أبدًا ـ ربما من خلاله سأجد طريقي إلى « نسيم » مرة أخرى » . وامتلأت نفسي فجأة بكآبة تفوق طاقتي واحتمالي .

وانتابتني فيما بعد ، بينما كنت أسير في الحي الوطني بضجته الشديدة وأنواره النفاذة ورائحة الملابس الداخلية ، انتابتني الحيرة كما كانت تنتابني على الدوام . إلى أي مصير تقودنا الأيام . وكأنما أردت أن أختبر صدق تلك العواطف التي يمكن أن يقوم عليها الحب والقلق إلى حد كبير ، فملت إلى كشك يغمره الضياء وتزينه قطعة من إعلان سينمائي ـ نصف وجه كبير لعاشق في أحد الأفلام ، صورة لا معنى لها تشبه بطن حوت مقلوب بعد موته ـ وجلست على الكرسي المخصص للزبائن ، كما يفعل الإنسان في دكان الحلاق منتظرًا دوره . كانت تتدلى على الباب الداخلي ستارة قذرة وكانت تأتي من خلفها أصوات خافتة مثل تلك الأصوات التي تصدر عن اجتماع مخلوقات لا يعرفها العلم . ولم يثر ما يحدث سخطي ـ ولكنه في الحقيقة أثار فضولي كما تستثير العلوم الطبيعية فضول هؤلاء الذين كفوا عن ادعاء الأحاسيس المهذبة . كنت في ذلك الوقت سكرانًا مرهقًا . سكرانًا « بجوستين » قدر سكري « بالبول روجيه» .

كان هناك طربوش موضوعًا على كرسي مجاور لي ، فوضعته على رأسي دون أن أدري . كان دافئًا ولزجًا بعض الشيء من داخله ، والتصق الشريط الجلدي السميك المبطن للطربوش بجبهتي . وقلت لنفسي وأنا أنظر في مرآة لصقت شقوقها بأطراف الأوراق الصمغيةالتي تحيط بورق البريد : « أريد أن أعرف ماذا يعني هذا الأمر حقًا » . كنت أقصد بالطبع كل تلك الحيرة الهائلة للجنس ذاته ، أقصد عملية الإيلاج التي يمكن أن تقود الإنسان إلى الشعور

باليأس والقنـوط من أجل مخلوقة لها نهدان وهلال كما تصـورها لغة الشرق العاميـة الزاهية . وارتفع في الـداخل صوت أنين لعوب وصريـر ، صوت آدمي ملتهب يضاف إلى صوت هزات سريـر قديم تغطيه الأخشاب . وأغلب الظن أن هذه العملية التي تحدث هي بعينها العمليـةالتي كنا نمارسـها أنا و«جوستين» مع كل سكان هـذا العالم المشترك الذي ننتمـى إليه ؛ وكيف يمكن أن تختلف ؟ وإلى أي مدى حملتنـا مشاعرنـا بعيدًا عن حقيقـة العملية الحيوانيـة البسيطة المجردة نفسـها ؟ وإلى أي مدى كان العقل الغدار مسئـولاً ـ بقائمة الأشياء التي لا حد لها واللازمـة للقلب كي يتعقل ؟ كنت أود إجابة عن سـؤال لا جواب له . كنت متلهفًا للـوصول إلى يقين في هـذا الأمر ، حتى لقـد بدا لي أننى لـو فاجأت العملية في حالتها الطبيعية ، دافعهـا المال لا الحب ، ومع ذلك فهذا الأمر لا يؤثر عليها ، فقد أتعـرف على حقيقة مشاعري ورغبـاتي . ورفعت الستائر فقد كنت أتعجل إنقـاذ نفسي من السؤال ، وخطـوت في خفة إلى داخل الحجـرة الصغيرة للغـاية والتي كـانت مضـاءة بمصباح نفطي كـان يطن ويترنح وقـد خفضت شعلته .

كانت تحتل السريـر كتلة من اللحم غير واضحة المعالم تتحـرك في أكثر من وضع في ذات الوقت ، تهتز بطـريقة غامضة ككومـة من النمل . ولقد استغرق الأمـر مني بعض الوقت حتـى استطعت أن أتبين فخذي رجل متقـدم في السن شاحبة ومليئـة بالشعر ، من فخذي شريكته ـــ البيضاوين بميل للون الأخضر واللذان يتمتعان باستدارة نسائيـة ، لها رأس كرأس حية « البواء » العاصرة ـ رأس يتوجه شعر أسود خشن يثير الضيق يتبع حركتها وقد تدلى فوق أطراف الحشية القذرة . ولابـد أن ظهوري المفاجئ قد أوحي لهما بكبسـة بوليسية إذ تبع ظهـوري شهقة ثم صمت مطبق . وبـدا الأمر وكأن جبل النمل قـد أصبح خاليًا من الحياة . وأنَّ الرجل ونظر في اتجاهي بسرعة وفي ذعر ، ثم دفن رأسه بين نهدي المرأة الضخمين وكأنـه يهرب بـذلك مـن افتضـاح أمـره . كـان من

المستحيل أن أوضح لهما أنني لا أتحرى شيئًا على وجه الخصوص غير تلك العملية التي يمارسانها سويًا . وتقدمت نحو السرير في حزم وفي اعتذار ، وأمسكت قضبان السرير الصدئة بيدي وحملقت إلى أسفل بطريقة أسبغ عليها بالضرورة جو البحث العلمي . ولكني لم أكن أحملق فيهما فقد كنت أعي وجودهما بصعوبة كنت أحملق في نفسي و « جوستين » ، في نفسي و «ميليسا » . وتحولت المرأة تنظر إليّ بعينين مرتبكتين سوداوين سواد الفحم وقالت شيئًا باللغة العربية .

ورقدا هناك كضحيتين من ضحايا حادثة رهيبة ، منهمكين فيما يؤديان بطريقة حمقاء خالية من الإتقان، وكأنهما بهذا النمط المفكك من الممارسة أول رجل وامرأة في تاريخ الجنس البشري يستنبطان هذه الوسيلة الخاصة للاتصال الجنسي . وبدا وضعهما المضحك والذي لا انسجام فيه وكأنه نتاج بعض المحاولات البدائية التي يمكن أن تتطور ، بعد قرون من التجربة إلى قدرات جسدية على قدر عال من التجانس كأوضاع البالية . غير أني أدركت رغم ذلك أن هذا الوضع من العلاقة الجنسية والذي يحمل طابع المأساة إلى الأبد ويثير الضحك قد ثبت بلا تغيير ولا تطوير . من هذا الوضع انطلقت كل مظاهر الحب التي استخدمها الشعراء ومجانين الرجال ليزينوا بها فلسفتهم عن أشكال السمو والتفوق المؤدبة . من هذا المكان ابتدأ المرض والجنون نموهما ، وإلى هنا أيضًا يعود ذلك القرف والغم الذي يكسو وجوه من تزوجوا منذ عهد بعيد . وقد قيد كل منهم إلى ظهر الآخر ، حتى يمكن القول أنهم كالكلاب وقد عجزت عن الانفصال بعد السفاد .

وفاجأتني جلجلة الضحكة الناعمة المتكسرة التي صدرت عني ، غير أنها أكدت لهما ماهيتي . ورفع الرجل وجهه بضع بوصات وتصنت بانتباه كأنما يؤكد لنفسه أنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الضحكة عن رجل من رجال البوليس . واطمأنت المرأة لوجودي فابتسمت ، وصاحت وهي تلوح بيدها

البيضاء البشرة وتشير نحو الستارة : « انتظر لحظة واحدة ، لن يستغرق الأمر وقتًا طويلاً » . وأتى الرجل ، وكأنما قد أحس التوبيخ في لهجتها ، ببعض الحركات التشنجية ، كأنه مشلول يحاول السير ـــ تدفعه إلى ذلك أنقى مشاعر المجاملة لا دواعي اللذة ، وكشف التعبير المرتسم على وجهه عن أدب فائق ـ كالأدب الذي يتحلى به شخص في ترام مزدحم عندما ينهض كي يعطي مكانه لأحد مشوهي الحرب . وصدر عن المرأة صوت «كقباع» الخنزير وتقلصت أطراف أصابعها .

وخطوت إلى الشارع مرة أخرى وأنا أضحك وقد تركتهما خلفي هناك في حالة من الوفاق غير المتقن لأقوم بجولة في الحي الذي ما يزال يطن بحياة الرجال والنساء تلك الحياة المتميزة الساخرة . كان المطر قد توقف والأرض الرطبة تخرج رائحة الطمي والأجسام والياسمين الذابل ، رائحة حلوة تثير في النفس الشجن . وأخذت أسير في بطء شديد ، وقد انتابني ذهول عميق ، وأخذت أصف لنفسي في كلمات كل هذا الحي من أحياء « الإسكندرية » فقد كنت أدرك أن النسيان سيطويه في القريب وأن أحدًا لن يعود لزيارته غير هؤلاء الذين استولت المدينة المحمومة على ذكرياتهم ، عالقة بعقول عجائز الرجال كما تعلق آثار العطر بالأكمام، « الإسكندرية » ، عاصمة الذكرى . كان الشارع الضيق مرصوفًا بالآجر الذي تفوح رائحته ، كان المطر قد جعله هشًا غير أنه لم يكن مبتلاً . وقد اصطفت أكشاك العاهرات الملونة على طول الشارع ، كن يعرضن أجسادهن المثيرة الرخامية بطريقة محتشمة أمام منازلهن التي تشبه منازل الدمى ، وكأن كلا منهن تجلس أمام ضريح مقدس . كن يجلسن على قارعة الطريق على كراسي ذات ثلاثة أرجل يرتدين شباشب ملونة وكأنهن عرافات . وكانت غرابة الإضاءة تضفي على المشهد كله ألوانًا رومانتيكية نابضة ، فبدلاً من أن يضاء الشارع بالضوء الكهربائي من أعلى أضيء الشارع كله بمجموعة من مصابيح الكاربيد النفاذة وقد وضعت على الأرض : كانت تلقي إلى أعلى

زوايا وأسقف منازل الدمى المائلة ، على أنوف وعيون سكانها ، على الظلام المستسلم الناعم كالفرو ، بظلال ظامئة بنفسجية مشحونة بالبهجة . وسرت فى بطء بين تلك الزهرات الآدمية الشاذة . أفكر في أن المدينة كالإنسان تجمع ميولها وشهواتها ومخاوفها . إنها تنمو حتى تبلغ النضج وتقدم أنبياءها ، ثم تنحدر إلى التبلد أو الشيخوخة أو الوحدة وهي أسوأ من كليهما . والأحياء لا يزلن يجلسن على قارعة الطريق ، لا يدرين أن أمهن المدينة تموت ، يجلسن كالتماثيل المنصوبة يسندن الظلام ، وآلام المستقبل ترقد فوق جفونهن ، ترقب في يقظة ، الباحثين عن الخلود عبر كل تنبؤات الزمن .

هناك كشك مدهون مزخرف بأزهار السوسن ، وقد رسمت بعناية وبطريقة صحيحة باللون الأزرق الغامق على أرضية في لون الخوخ . وعلى بابه جلست صبية زنجية ضخمة يميل لونها إلى الزرقة ، ربما لم تكن تتعدى الثامنة عشرة من عمرها ، ترتدي قميص نوم أحمر من الفانلة يشبه بصورة مبهمة ملابس الإرسالية . وقد وضعت على رأسها السوداء بشعرها الذي يشبه جزة الغنم تاجًا من زهور النرجس يخطف الأبصار . وجمعت يديها في تواضع في حجرها ـــ فبدى كفوطة مليئة بالأصابع المقددة . كانت تشبه أرنبًا كالملاك يجلس عند مدخل جحره . وجلست عند الباب المجاور لها امرأة هشة كورقة الشجر ، وبعدها أخرى تشبه مركبًا كيمائيًّا غسلته الأمونيا ودخان السجائر . وفى كل مكان فوق تلك الجدران المبنية المترنحة رأيت تعويذة المدينة الرئيسية ـ نقش كف ممدودة الأصابع تسعى إلى رد الأهوال التى احتشدت فى الظلام خارج المدينة المضاءة . لم تكن تصدر عنهن وأنا أسير الآن بينهن صرخات البشر الساعين خلف المال ، ولكن نداءات كمناغاة اليمام ، ومتلأت أصواتهن الهادئة الشارع بسكون كسكون الأديرة . إنهن لا يعرضن الجنس فى تلك العزلة الفظيعة ، التى يعشنها بين الشعلات الصفراء ، ولكنهن يقدمن، باعتبارهن بنات أصيلات « للإسكندرية » ، النسيان العميق الذى يمنحه

المخاض والميلاد ، وهـو مزيج من متع جسدية يحصـل عليها الإنسان دون أن يحس بالنفور أو الاشمئزاز .

واهتزت منـازل الدمى وتمايلت للحظة عنـدما اقتحمت رياح البحـر المكان تهجم على قطع الملابس النسـائية وتضغط الحواجـز غير المثبتة . وكـان الباب الخلفى لأحد المنازل لايستره غطـاء ولذا كان فى استطاعة النـاظر عبر الباب أن يلمح فناء به شجرة نخيل عاجزة عن النمـو . وقد جلست ثلاثة فتيات يرتدين ملابس فضفاضة ممزقة على كراسى حول نار تصعد ألسنتها من جردل ملىء بنشارة الخشب المشتعلـة . كن يتحدثن بأصـوات خفيضة وقد مـددن أطراف أصابعهن إلى النـار الهزيلة . وبدون مستغـرقات نـائيات وكأنهن كن يجلسن حول نار مخيم فى مناطق «الاستبس» .

(كان فى وسعى أن أرى فى خلفية عقلى شطآن الثلـج الضخمة ـ أكوام الثلج حيث ترقـد زجاجات الشمبـانيا فى منـزل «نسيم» ، تلمع بلون أخضر يميل إلى الزرقـة كسمكة عجـوز من أسماك «الشبوط» فى بـركة مـاء عاديـة . وشممت أكمامى كأنما أسترجع ذاكرتى بحثًا عن آثار عطر «جوستين») .

وأخيرًا ملت إلى مقهى خالٍ حيث تنـاولت فنجانًا من القهوة قـدمه إلىَّ خادم صعيدى ، كان حَوَل عينيه الغريب يبدو وكأنه يضاعف كل شىء يحملق فيه . وتكومت امـرأة عجوز للغايـة على صندوق كبير فى ركن المقهى البعيـد ، كانت تجلس سـاكنة حتى أنى لم أرهـا فى بادئ الأمـر، وقد أخـذت تدخن النـرجيلة وتطلق من حين لآخر كركرة ناعمـة كصوت هديل اليمام . وهنا استعرضت فى مخيلتى القصة كاملة من أولها إلى آخرها ، مبتدئًا بتلك الأيام التى لم أكن أعرف فيهـا «ميليسا» ومنتهيـاً إلى القـريب العاجل فى مكـان مـا حيث سأموت ميتـة تافـهة ، ميتـة من حشر نفسه فيما لا يعنيه ، فى مدينـة لا أنتمى إليها . قلت إنى استعـرضت القصة فى مخيلتى ، غير أن الغـريب حقـًا هـو أننى لم أفكر فيهـا كتـاريخ شخصى لـه طابع فـردى بقـدر مـا فكرت فيهـا كجـزء من النسيج

التاريخى لهذا المكان . لقد صورت الأمر لنفسى على اعتبار أنه جزء لا ينفصل عن سلوك المدينة ، يتطابق تمام التطابق مع كل ما سبقه من قبل ، وبكل ما سيلحقه من بعد . كان الوسط المحيط بى قد خدر خيالى بدهاء حتى أنه لم يعد قادرًا على الاستجابة لأى تقييم شخصى أو فردى . لقد فقدت القدرة حتى على الشعور بما يثيره الخوف من رجفة . وإنى لأشعر على وجه الخصوص بالأسف الشديد من أجل هذا الخليط الذى أصفه فى مخطوط مذكراتى والتى يمكن أن أتركها من بعدى . لقد كنت أكره على الدوام الأعمال الناقصة والشذرات وقررت ضرورة إتلافها على الأقل قبل أن أخطو أية خطوة أخرى . ونهضت على قدمىَّ ـ وصدمنى عندئذ خاطر مفاجئٌ هو أن الرجل الذى رأيته فى الكشك كان «منمجيان» . كيف حدث أن أخطأت هذا الظهر المشوه ؟ وسيطرت علىَّ هذه الفكرة وأنا أعود أعبر الحى ، متجهًا إلى حيث الشوارع العمومية أكثر اتساعًا ناحية البحر . وسرت خلال هذا السراب من الأزقة الضيقة المتقاطعة كما يجوس المرء أرض معركة ابتلعت كل أصدقاء شبابه، ورغم ذلك ، لم يكن فى مقدورى إلا أن أحس البهجة لكل ما أشمه أو أسمعه ـ أحس بهجة من نجا وعاش . وهنا فى أحد الأركان وقف لاعب يبتلع النيران وقد استدار بوجهه نحو السماء يبخ من فمه عمودًا من اللهب يتحول عند أطرافه إلى دخان أسود متطاير وقد فتح فى السماء ثقباً . كان يأخذ من حين لآخر جرعة كبيرة من زجاجة بها بترول قبل أن يلقى برأسه إلى الوراء مرة أخرى ويطلق شعلات النار إلى ارتفاع ستة أقدام . وترامت فى كل كل ركان خيالات بنفسجية ، أحاطت بها تجربة إنسانية ـ وحشية ورقيقة الأحاسيس فى ذات الوقت . واعتبرت إحساسى بأنى لم أعد أمتلئ بشعور الرثاء على حالى ولكنى أمتلئ برغبة فى أن تدعونى المدينة واحداً منها ، أن تسجلنى بين ذكرياتها التافهة أو المأساوية ـ إن شاءت ، اعتبرت ذلك مقياساً لنضجى .

وما إن وصلت إلى شقتى الصغيرة حتى نبشت كراسات التمارين الرمادية

التى كتبت فيها مـذكراتى بلا عنـاية وبنفس القدر من طبيعتى لم أعـد أفكر فى إتـلافها على الإطـلاق . جلست هناك فى ضـوء المصبـاح وأضفت إليها أشيـاء جديـدة بينما «بومبـال» يتحدث عن الحيـاة وهو جالـس على المقعد المريح ذو المساند .

ما أن عدت إلى حجرتى حتى جلست صـامتاً ، أصغى إلى نغم عطرها النفاذ الذى أعتقـد أنه مركب من اللحم والفضـلات والنباتات ، وقد تـداخلت كلها فى كيانها الذى يشبه الحرير الكثيف . إنه نوع غريب من الحب لأنى لا أحس بأنى أمتلكها ـ ولا إرغب حقًّا فى امتلاكها ـ إن الأمر يبدو وكإننا لم نلتق إلا فى امتلاك كل منا لذاته ، وغدونا شريكين لفترة مشتركـة من فترات نمونا . إننا فى الحقيقة نهين الحب ذاتـه لأننا قـد أثبتنا أن أواصر الصـداقة أقـوى من الحب . إن تلك المذكرات ، إذا قدر لها أن تقرأ ، لا تعنى أكثر من تعليق ودى شديد الحرص عن عـالم ولـدت فيـه لأقضى أشـد اللحظات وحـدة لحظـات المضـاجعـة ــ مع «جوستين» . إننى لا أستطيع الاقتراب من الحقيقة أكثر من ذلك .

منـذ فترة قريبـة ، عندمـا غدا من العسير رؤيتهـا لسبب أو آخر ، وجـدت نفسى فى اشتيـاق شديـد إليها حتى أنى قطعت الطـريق كله إلى «بيترانتـونى» لأحاول شراء زجاجـة من زجاجات العطر الذى تستعملـه . ولكن بلا جدوى ، فقد بللت الفتاة المهذبة والتى تعمل مسـاعدة للبائعة راحتى بكل أنواع العطور التى لديها واعتقـدت مرة أو مرتين أنى أشم عطـرها . ولكن عبثاً . كـان هناك شىء مفتقد على الـدوام ـ أعتقـد أنه الجسد الـذى يوضع العطـر فوقـه . كان الشىء المفتقد هو مـا يعتمل فى داخل الجسد ذاته . وعندمـا فقدت الأمل ذكرت اسم «جوستين» وللحال استدارت الفتاة إلى أول زجاجة عطر كنا قد جربناها ، وسألت وقـد بـدا عليها أنـه قـد أسئ إلى تخصصها : «لماذا لم تقـل هذا منـذ البـداية؟» كـانت لهجتهـا تعنى أن كل امـرئ يعرف العطـر الـذى تستخدمـه «جوستين» ما عـداى . ومع ذلك لم أستطع التعرف عليه . ودهشت إذ اكتشفت

أن عطر «جاميه ده لاف» لم يكن من بين العطور الغالية أو المستوردة .

«(عندما أخذت الزجاجة الصغيرة التي عثروا عليها في جيب صيديرية «كوهين» إلى منزلي ، كان طيب «ميليسا» ما زال حبيساً هناك . كان من الممكن اكتشافه)» .

كان «بومبال» يقرأ بصوت عال تلك العبارة الطويلة الفظيعة من كتاب «عادات» والتي يطلق عليها اسم «الدمية تتكلم» . كانت «جوستين» تقول ، إنني لم أعرف ألبتة الانطلاق والانعتاق في كل تلك الصدامات التي وقعت عن طريق الصدفة . بيني وبين ذكر الحيوان ، مهما كانت التجارب التي أخضعت لها جسدي . إنني أرى دائماً في المرآة صورة الجنون يصرخ وقد بلغ الشيخوخة : «لقد فاتني حبي لذاتي . حبي أنا . كرامتي . حبي لذاتي . لم أتألم ألبتة ، لم أحظ أبداً بمتعة بسيطة ولذيذة» .

ولم يتوقف «بومبال» إلا ليقول : «لو كان هذا الكلام حقًّا ، فقد اتخذت أنت من مرضها وسيلة لحبها» . ووقعت عليَّ تلك الملاحظة كما يقع طرف فأس يمسك بها شخص يتمتع بقوة هائلة وخارقة على جذع شجرة .

وغمر «نسيم» شعوراً سحريًّا بالارتياح ، عندما حل موعد الصيد السنوى الكبير في بحيرة «مريوط» ، لقد أدرك أخيراً ان ما كان عليه أن يقرر عمله سيتقرر في هذا الوقت وليس في أي وقت آخر . كان يبدو كرجل قاوم بنجاح مرضاً طويلاً . هل كان حكمه خاطئاً حقًّا إلى هذا الحد رغم أنه لم يكن يعي هذا الحكم ؟ لقد ظل خلال سبع سنوات من الزواج يردد كل يوم . «إنني في غاية السعادة» ـ كلمات مشئومة كضربات ساعة جد عجوز يزحف الصمت عليها بلا توقف . والآن لم يعد في وسعه أن يقول تلك الكلمات مرة أخرى . إن حياتهما المشتركة تشبه سلكاً مدفوناً تحت الرمال ، قطع بطريقة غامضة في نقطة يستحيل اكتشافها ، فألقى بهما في ظلام دامس غير مألوف .

إن الجنون لم يأخذ بالطبع في اعتباره الظروف المحيطة بنا . لقد بدا وكأنه

قد ركـز نفسه كلية فـوق حالة قائمـة بذاتها ، وليس فوق حـالات الأشخاص الذين تعـذبوا عذاباً يفـوق حدود الصبر والاحتمال ـ لقد شـاركنا جميعًا على نحـو حقيقى فى هـذا الجنون ، رغم أن «نسيـم» وحده ، كشخص ، هـو الـذى أخرجه إلى حيز الوجود ، مجسداً إياه كمثل حى . لقد استمرت المرحلة السابقة على الصيد الكبير فى «مريوط» ما يقرب من شهر ـــ لقد كانت بالتأكيد أكثر من ذلك قليلاً إلا أن أحداً ممن كانوا لا يعرفون أمره لم يلحظ أى شىء . ورغم ذلك ضـاعفت أوهـامه نفسها حتى أن ما سجلـه من ذكريات يعطى المرء إحســاساً كإحساس الذى يـرقب تكاثر البيكتريا تحت المجهر ـ تكـاثر الخلايا الصحيحة بصورة غزيرة كما يحدث فى السرطـان ، وقد جنت الخلايا ونفضت عن نفسـها قدرتها على قمع ذاتها .

كانت سلسلة الـرسائل السرية الغامضة التى تحملهـا إليه أسماء الشوارع التى يمر بها تكشف عن رموز مؤكدة لا يمكن دحضهـا تصدر عن قوة خارقة للطبيعة تنذر بكل قوة بعقاب غير مرئى ـ غير أنه لم يكن يعرف إذا ما كان هذا العقاب موجهاً إليه أم إلى آخرين. كذلك رؤيتـه لمقالة «بلتازار» وقد رقدت ذابلة الأوراق فى واجهة إحـدى المكتبات ، ومروره فى نفـس اليوم بقبر أبيه فى مـدفنة اليهـود ـــ وقـد حفـرت على حجـر القبر تلك الأسماء التى يتميـز بها اليهـود الأوربيين والتى تعكس كل الخلل العقلى الذى يعانونه فى المنفى .

ثم تأتى مشكلة الأصـوات التى يسمعها فى الغرفة المجـاورة : صوت نفس ثقيل . صوت «بيانات» ثلاث يُضرب عليها فجأة وفى ذات الوقت . كان «نسيم» يرى أن هـذه الأشياء ليست أوهاماً ولكنهـا حلقات فى سلسلة خفية لا يـراها ، ولكنها لا تبدو منطقيـة ومقنعة إلا للعقل الذى تخطى حـدود «السببية» . وغدا التظاهـر بالعقل فى إطار مقاييس السلـوك العادية أصعب وأصعب . كـان يمر بحالة من الدمار التى وصفها «سويدنبرج» .

واشتعلت نيران الفحم متخذة أشكالاً غريبـة . كان فى مقدوره أن يثبت هذا

الأمر بإشعـال النيران مرة أخـرى ليتحقق من اكتشافـاته ــ مناظـر ووجوه مفزعـة . كما كانت الـوحمة التى على رسغ «جوستين» تثير الضيـق فى نفسه . كان خـلال فترات الأكل يكبح رغبة تـراود نفسه فى أن يلمسهـا ، يكبح نفسه بصورة حادة حتى أنه كان يشحب ويكاد أن يغمى عليه .

وذات أصيل أخـذت ملاءة مجعدة تتنفس واستمـرت كذلك لمدة تقـرب من نصف ساعـة ، متخذة هيئة الجسـد الذى كانت تغطيـه . كما استيقظ ذات ليلة على دوى أجنحة ضخمـة فرأى مخلوقاً يشبـه الوطواط لـه رأس «كمان» وقد استقر على حافة السرير .

ثم ما تقوم به قوى الخير من أعمال مضادة ــ رسالة حملتها إليه خنفساء ملـونة حطت فـوق كراسـة يوميـاته التى كـان يكتب فيها ، معـزوفة «بـان» للموسيقى «ويبر» تعزف كل يـوم ما بين الثالثة والرابعـة على «بيان» فى المنزل الملاحق لمنزلـه . وأحسن أن عقله قد غدا سـاحة صراع لقوى الخير والشر وأن مهمته هى أن يشـد كل عصب من أعصابـه ليتعرف عليهـا ، إلا أن هذا لم يكن أمراً سهـلاً . كان عالم الشـواذ قد بـدا يمارس حيَله عليه حتى أن أحـاسيسه بدأت تتهم الحقيقة ذاتها بالتناقض والتباين . كان معرضاً لخطر انهيار عقلى .

وأخذت صديـريته « تتكتك » ذات مرة وهي معلقة على ظهـر أحد الكراسي ، وكأنما تسكنهـا مستعمـرة من نبضات قلـب غير قلبه . غير أنها تـوقفت عنـد فحصهـا ورفضت أن تستمـر فيما تقـوم به من أجل خـاطـر « سليم » الـذي استـدعـاه «نسيم » إلى الحجـرة . ورأى ذات يـوم الحروف الأولى من اسمـه منقوشة بـالذهب فوق إحدى السحب وقد انعكست صـورتها في واجهة إحدى المحلات في شارع « سانت سابا » . وبدا أن هذا الأمر برهان على صحة كل شيء .

وأحس عندما سار يقطع « شارع فـؤاد » بطوله أن الرصيف كله قد تحول تحت قدميـه إلى إسفنج ، وخيل إليه قبل أن يختفي هـذا الوهم أن يغـوص فيه حتى وسطه . واستيقظ عصر هذا اليوم في الثانية والنصف من نوم محموم ثم

ارتـدي ملابســه واتخذ سمته إلى « بـاسترودي » ومقهى « دوردالي » ليؤكـد إحساسًا لم يستطع الخلاص منه بأنهما خاليان .

وكانـا بالفعل كذلك ، فملأه ذلـك بشعور من الارتياح الظافـر ، غير أن هذا الشعور لم يعمر طويلاً ، فقد أحس فجأة وهو عائد إلى حجرته وكأن قلبه يُطرد من جسده عن طريق الحركات الآلية القصيرة لمضخة هوائية . ووصل به الأمر إلى حد أنـه بدأ يكره ويخاف تلك الحجـرة . كان يقف مصغيًا لمدة طـويلة حتى يواتيـه الصوت من جـديد ــ صوت انـزلاق الأسلاك وهي تمد فـوق أرضية الحجرة ، ضجة حيوان صغير ، صرخاته والبعض يكتم أنفاسه بينما كان يلفه ليضعـه في كيس . ثم سمع في وضـوح صـوت مشـابك الحقـائب وهي تغلق وتطقطق وصوت تنفس شخص ما كان يقف خلف الباب المجاور يتصنت لأقل الأصـوات . وخلع « نسيم » حـذاءه ودخل على أطـراف أصـابعه إلى النـافـذة ليحاول رؤية ما في الحجرة المجـاورة لقد خيل إليه أن قاتله ، رجل كبير السن ، ضخم الجثة حـاد التقاطيع ، لـه عينان حمراوان غـائرتان كعيني الـدب . كان عاجزًا عن إثبات ذلك . ثم ما رآه وأثار الفزع في نفسه ، عندما استيقظ مبكرًا في اليوم الذي يجب أن توجه فيه الدعوات للصيد الكبير ، فرأى ، من نافذة حجرة نومه رجـلان يرتديان الملابس العـربية وقد بدت الريبـة عليهما وهما يربطان حبلاً إلى شيء كالـرافعة موجودًا على سطح المنزل . وأشارا إليـه وتحدثا معًا في صوت منخفض. ثم بدآ ينزلان إلى قارعة الطـريق شيئًا ثقيلاً ملفوفًا في معطف من الفرو .

وأخذت يداه ترتعشان وهو يملأ مـربعات الدعوات الكبيرة البيضاء بخطه المنساب الجميل ، منتقيـًا أسماء مدعويـه من قائمـة ضخمة مكتوبـة على الآلة الكاتبة كان « سليم » قد وضعها على المكتب . و مع ذلك فقد ابتسم عندما تذكر المساحة الكبيرة التي تخصصها الصحافة المحليـة كل عام بمناسبة هذا الحدث المشهود ــ العيـد الكبير في مريوط . وأحس وقد وجد أن لديـه الكثير مما يشغله

بأن عليه ألا يترك أي شيء للصدفة . ورغم أن « سليم » كـان يحوم حوله راغبًا في مساعدته إلا أنه زم شفتيه وأصر على أن يقوم هو بنفسه بكتابة كل الدعوات. وكانت الدعوة الموجهة إليّ ترقد فوق رف المدفأة تحملق فيّ وقد حملت كل دلائل الكارثة . ونظرت إليها وقـد شتت النيكوتين والخمر انتباهي ، وأدركت أن هنا وبطريقـة لايمكن التكهن بها يوجد الحل الـذي نتحرك جميعًا نحوه . (عنـدما يغادر العلم المكان تحتل الأعصاب مكانة . « عادات ») .

قـالت « جوستين » في حـدة ، « سترفض الدعـوة بـالتأكيد . لن تـذهب إلى هناك؟« وأدركت أنها كانت تتابع نظراتي .

ووقفت في ضوء الصبـاح الباكـر الذي يغلفـه الضباب . تصغي بأذنها إلى شبح « حميد » بأنفاسه الثقيلـة خلف الباب . « لن تغري بك القدر . أجبني هل ستفعل ذلك ؟ » .

وانزلقت من قميصها وحذائهـا واستلقت في رقة فوق السرير إلى جواري . وكأنها تبغي بذلك أن تتأكـد من تسليمي برأيها ـــ كان شعرهـا وفمها دافئين وخانتهـا حركات جسـدها القلقة وهي تنثني عليّ وكأنها تتـوجع ، تشكو من جراح لا تندمل . وبدا لى حينئذ ـ وليس هناك ما يدعو للزهو فيما أكرهت نفسي عليه ـ بدا لي حينئذ أنني لن أستطيع أن أحرم » نسيم » ، فترة أطول ، من المتعة التي يبحث عنها في الانتقام منى ، أو في الحقيقـة التي ستنتج عن هذا الانتقام . وكان يوجـد تحت كل هذا أيضًا ، شعور بالارتياح جعلني أكـاد أحس بالبهجة حتى رأيت التعبير الحزين الجاد يكسو وجه رفيقتي النائمة في أحضاني . كانت ترقد إلي جواري تنظر إلى بهاتين العينين الرائعتين المعبرتين السوداوين وكأنها تطل من نافـذة عالية في ذاكرتها . كنت أدرك أنها تطل في عيني « ميليسـا » ـ في العينين القلقتين الصريحتين للمرأة التي كانت تقترب منا أكثر فأكثر مع كل يوم يزداد فيه الخطـر علينا . ومع ذلك فمن غير »« ميليسا » سيصيبـه أشد الإيلام نتيجة مـا يدبـره » نسيم » ؟ وعدت إلى الوراء أفكـر من خلال سلسلـة قبلات

«جوستين » الملتهبة المتلاحقة . عدت بثبات إلى الوراء إلى ذاكرتي وراحتي فوق معصمي ، كبحار يهبط على سلسلة المرساة إلى أشد الأعماق ظلامًا في مرفأ كبير راكد للذاكرة .

إن كلاً منا يختار من بين جميع أنواع الفشل الـذي عانا ه ذلك الذي يعرض احترامه لنفســه إلى أقل أنواع الهوان . ذلـك الذي يدني شأنـه بأقل قـدر . لقد فشلت في الفن ، والـدين ، والتعـامل مع النـاس . فشلت في الفن (وقـد واتتني الفكرة فجأة في هذه اللحظة) لأنني لم أكن أؤمن بالشخصية الإنسانية المطلقة الحرية . (يكتب « بورسواردن » : « هل يثبت الناس على حالهم بصورة دائمة ، أم أنهم يتغيرون مرة إثـر أخرى في سرعـة فائقـة حتى أنهم يعكسـون شعورًا وهميـًا باتصـال مـلامحهم كالارتعـاشـة المؤقتة ، لشريط سينمائي صـامت قـديم»؟) كانت تنقصنى الثقـة الحقيقية بـالناس حتى أستطيع أن أصـّورهم بنجاح .

وفي الـدين ؟ حسنـًا ، إنني لم أجـد أن أي دين من الأديـان التي تستحق الاهتمام يحتـوي على أقل ذرة من السكينـة ـــ أو أنـه في وسعـه أن ينجـو من الاتهام. لقد بدا لي مسايـرة « لبلتازار » أن كل الكنائس وكل الطوائف ليست في أفضل الأحـوال غير معاهـد تثقيف ذاتي ضـد الخوف . غير أن فشلي الأخير ، وأســوأ فشل عـانيتـة (ودفعت شفتـي في شعـر « جـوستين » الفـاحم الملىء بالحياة) هـو فشلي مع الناس : ولقد كان ذلك نتاج انفصــال روحي أخذ يزداد بـالتدريج ، انفصــال نهائي عن التملك بينما أطلق لي العنـان كي أتعـاطف مع الناس. وغدوت شيئًا فشيئًا وعلى نحو لا يمكن تفسيره أشد عجزًا عن ممارس الحب . ومع ذلك أفضل في البذل والتضحية ـ وهما أجمل ما في الحب . وأدركت وقد تملكني الرعب أن هذا هو مصدر سيطرتي الآن على « جوستين » .

لقد كان محكومًا عليها ، كامرأة من طبيعتها حب التملك أن تحاول السيطرة على ذلك الجزء من نفسي الذي كـان على الدوام بعيـد المنال ، إنـه ملاذي الأخير

المؤلم ، إنه مقدرتي على أن أضحك وأصادق . ولقد جعلها مثل هذا الحب يائسة على نحو ما . لأني لم أكن أعتمد عليها . ولأن الرغبة في السيطرة إذا ما أصابها الحرمان يمكنها أن تجعل المرء خاضعًا خضوعًا تامًا لما تمليه عليه نوازعه .

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نحلل تلك العلاقات التي تكمن تحت سطح أفعالنا مباشرة . فالحب ليس إلا نوعًا من اللغة التي يتحدث بها الجسد ، والجنس ليس إلا اصطلاحًا وتسمية خاصة .

ولكي أوضح هذه العلاقة الحزينة التي سببت لي الألم الكثير أكثر من ذلك ـ فإنني قد رأيت أن الألم ذاته كان الغذاء الوحيد للذاكرة . فالبهجة تنهي نفسها ـ وكان كل ما خلفته لي هو رصيد من الصحة الدائمة ـ وعزلة تهب الحياة . كنت مثل بطارية جافة . غير ملتزم بشيء ، كنت حرًا في أن أجوب عالم الرجال والنساء كحارس أمين على ما للحب من حقوق حقيقية ـ ليس من أجل العاطفة ، ولا بحكم العادة (وكلاهما أهل لها فقط) ولكنه الهجوم المقدس ممن له الخلود بين بشر مصيرهم إلى فناء ـ من « أفروديت » في كامل لباس حربها .

ومع أني كنت محاصرًا على هذا النحو غير أني رغم ذلك كنت محددًا ، أعرف نفسي بالصفة التي تتميز بها والتي أمتني (بالطبع) أكثر من غيرها ألا وهي نكراني لذاتي . إن هذا وليس شخصيتي هو ما أحبته « جوستين » فيَّ ـ فالنساء لصوص رغبة جنسية وهذا الكنز من العزلة والانفصام هو ما أردات «جوستين» أن تسرقه منى ـــ إنه الجوهرة النامية في رأس الضفدع . لقد رأيت بصمات هذه العزلة مدونة عبر صفحة حياتي بكل ما فيها من عشوائية وتنافر واضطراب .

لم تكن قيمتي في أي عمل أنجزته أو أي شيء أمتلكه ـــ لقد أحبتني «جوستين» لأني كنت أعني بالنسبة لها شيئًا لا يمكن النيل منه . إنسان قد تشكل بالفعل ولا يمكن تحطيمه . كان يطاردها شعور بأنني حتى وأنا أحبها

لا أرغب في شيء غير أن أموت . ولقد وجدت « جـوسـتين » أن هذا الأمر لا يطاق ولا يحتمل .

و « ميليسا » ؟ بالطبـع كانت تفتقر إلى إدراك « جوستين » لحـــالتي . لم تكن تعـرف غـير أن قـــوتي هي سندها في أشد حالات ضعفها ـــ فـي تعاملها مع العالم. كـانت تلتقط وكأنها قد عثـرت على شي ثمين ، جملة ظلت تنتفض في عقله منذ ذلك الحين كما تنتفض سكين ألقى بها لتغـرز في شيء ما . لقد انتفخت ملفاته حقـًا منذ فترة طويلة بـالتقارير عن تلك الحقيقة البشعـة ، ولكنها كانت أشبه بتفاصيل صحفيـة عن كارثة وقعت منذ زمن بعيد في بلـدة لم يزرها من قبل . إنه يجد نفسه الآن فجأة وجهًا لوجه مع شاهد عيان ، ضحية ، مع إنسانة نجت من المعـركة ..... وبعث دوي هذه العبـارة الواحـدة كل قوي مشـاعره . وهبت فجأة كل التقارير المدونة على الورق تصرخ في وجهه .

كانت الحجرة التي ترتدي فيها « ميليسـا » ملابسها كريهة الرائحة مكعبة المنظر مليئـة بالأنابيب الملتويـة التي تصل دورات المياه بالمجاري . كـان لديها قطعة واحدة حادة من مرآة مشروخة ورف صغير مغطى بالورق الأبيض الذي توضـع فوقـه كعكات الأفراح . هنا كانت تضع خليط المساحيق وأقـلام الزينة والتي كانت تسـيء استخدامها بصورة مخيفة .

في هذه المرآة ظهرت صورة « سليم » وهي تـرتعش . ألسنة اللهب الراقصة كشبح من العـالم السفلي . تكلم بلهجـة قاطعـة مقلـدًا لهجة سيـده ، وأحست «ميليسا» في ذلك الصـوت بالقلق الذي يحسـه السكرتير نحو الآدمي الـوحيد الذي يعبده عبادة حقيقية والذي كان يستجيب لما يعانيه من قلق كما يستجيب جهاز الاختبار .

وأحست « ميليسا » بالخوف الآن . فقد كانت تعرف أن الإهانة الموجهة إلى كبير من الكبراء ، يمكن بمعايير المدينـة ، أن تؤدي إلى عقابها بسرعة وفظـاعة . وأصـابها الذعر لما فعلت وأخذت تقاوم رغبة ملحة في البكاء إنتابتها وهي تلتقط

رموشهـا الصناعية بأصابع مـرتعشـة . لم يكن أمامها من وسيلـة ترفض بها الدعوة . فارتدت أفضل ثيابها الباليـة وحملت ما تعانية من إجهاد كصرة ثقيلة وتبعت « سليم » إلى السيـارة الضـخمـة التي كـانت تقف في الظـلام الـداكن . وساعدها في أن تركب إلى جوار « نسيم » . و سارت العربة بطيئة في ذلك المساء المبهم الداكـن من أمسيات « الإسكندريـة » التي لم تعد لفـرط ذعرهـا تتعرف عليها. ورأوا البحر وقد تحول إلى يـاقوت أزرق ثم استدارت السيارة إلى داخل المدينة تجتـاز الأحياء القـذرة المكتظة متجهين نحـو « مريـوط » وأكوام خبث المعـادن التي تشبه القطـران عند « المكس » ، حيث أزاحت كشـافات السيـارة الأمامية بضوئها الشديد طبقات الظـلام طبقة وراء طبقة ، كاشفة عن مشاهد محدودة من الحيـاة المصريـة الصميمة ــ سكير يغني ، شخص يـركب بغـلاً ويهرب من « هيرودوت » ومعـه طفلين كشخصيـة من شخصيـات الإنجيل ، حمال يفرز أكياسه ـ إنها تمر في سرعة وخفة كخفة من يوزع ورق اللعب .

وتابعت « ميليسا » تلك المناظر المألوفة بعاطفة جياشة فوراءها كانت ترقد الصحـراء بما فيها من فـراغ يطن كما تطن محارة البحر . ولم يتكلم رفيقهـا طوال هذا الوقت ولم تجرؤ هـي على أن تغامر إلى حد النظر في اتجاهه .

والآن وقد بدأت تظهر خطوط الكثبان الرمليـة القاطعة اللامعة كالصلب في ضـوء القمـر ، أوقف « نسيم » السيارة وأخـذ يتحسس جيبـه بحثًـا عن دفتر شيكاته وهو يقول في صوت مرتعش ، وقد فاضت عيناه بالدموع : « كم تطلبين ثمنًا لصمتك ؟ واستدرات نحوه ، فرأت لأول مرة الرقة والأسـى المرتسمان على ذلك الوجه الأسمر ، وأحست أن خجلا طاغيًا قد حل محل ما انتابها من خوف ـ ورأت في تعبير وجهه الرغبة في صنع الخير والتي لا يمكن أن تجعل منه عدوًا لأمثالها . فوضعت يدًا تحمل شعورها بالهيبة فوق ذراعه وقالت : « إنني أحس بالخجل الشديد ، أرجـوك أن تسامحني . لم أكن أدري ما كنت أقول » . وطغى عليها مـا كانت تعانيه من إرهـاق حتى أن عواطفها التي كادت تجهش بـالبكاء

تحولت الآن إلى تثاؤب . وأخذا ينظران إلى بعضهما البعض بـروح جديدة وقد أدرك كل منهما بـراءة الآخر . وقـد بدا عليهما للحظـة أنهما قد أحبـا بعضهما البعض ، بعد هذا الارتياح الخالص الذي أحسا به .

وعادت العربة تسير ، واستعادت سرعتها مرة أخرى كما استعاد « نسيم » «وميليسا » صمتهما ـ وسرعان ما كانوا يقطعون الصحراء في سرعة نحو بريق النجوم اللامع . وأفق صبغته الأمواج المزمجرة المرتطمـة بالشاطئ بالسواد . ووجد « نسيم » نفسه وإلى جـواره تلك المخلوقة الغريبة النعسانـة ، يفكر مرة وأخرى :

« الحمد لله أنني لم أكن عبقريًا ـ فالعبقري لا يأتمن أحدًا على أسراره » .

ومكنتـه النظـرات التي كـان يتلصـص بها عليهـا من أن يـدرسهـا ، وأن يدرسنـي من خلالها . ولا شك أن جمالها قـد أقلقه وجرده مـن أسلحته ، كما فعل بي من قبل ، لأنـه وصفه فيما بعـد بأنه جمال يملأ المرء بشعـور رهيب ، جمال وجد ليغدو هدفًا لقوى التدمير . وأصابته رجفة عندما تذكر فكاهة كتبها «بـورسواردن » وقـد ظهرت فيهـا شخصيتها لأنـه كان قـد لقيها كما لقيهـا «نسيم»، في نفس الكبـاريـه المبتذل ، غير أنها في تلك الأمسيـة كـانت تجلس في صف من الـراقصـات المضيفات اللـواتي يبعن بطـاقـات الرقـص . وأخذهـا «بورسواردن » الذي كان سكرانًا سكرًا شديدًا إلى الطابق الأرضي ، وبعد فترة من الصمت خاطبها بطريقته الحزينة الآمرة ، متسائلا « كيف تحمين نفسك في مواجهة الوحدة ؟ » وتطلعت إليه « ميليسا » بعين مفعمة بكل ما تحمله تجربتها من صدق وأجابته في رقة : « سيدي ، إنني الوحدة ذاتها » . وكان لهذه العبارة أثرها العميق في نفس « بورسـواردن » حتى أنه ظل يذكرها ويرددها لأصدقائه فيما بعد ، مضيفًا إليهـا ، « وفكرت فجأة بيني وبين نفسي ، هناك تـوجد امرأة يمكن أن يتدله المرء في حبها » . غير أنه لم يغامر بزيارتها مرة أخرى ، فقد كان يسير سيرًا حسنًا في الكتـاب الذي يؤلفه ، كـان يعرف أن اشتعال تلك العـاطفة

إنما هو خدعة يمارسها عليه أضعف ما في طبيعته . كان يكتب عن الحب في ذلك الوقت لا يـريد أن تشوش الأفكـار التي كونها عن هذا الموضـوع . (وقد جعل إحدى شخصيات كتابه تصرخ قائلة « ليس في مقدوري أن أقع في الحب ، لأنني أنتمي إلى تلك الجمعية السريـة القديمة ـ جمعيـة المهرجين » . وتحدث في مكان آخر عن زواجه فكتب « لقد وجدت أنني في الوقت الذي كنت أسيء فيه إلى غيرى كنت أسيء فيه أيضًا إلى نفسي أما الآن وأنـا بمفردي فليس لديَّ غير نفسي أسيء إليها . يا فرحتي ! »)

كانت « جوستين » ما تزال تلح عليَّ ، ترقب وجهي وأنا أصنف تلك المشاهد الحارقة في عقلي . وكررت في صوت أجش : « سـوف تنتحل عذرًا ما ، لن تذهب إلى هناك.» . لقد ألح « سليم » على هذه النقطة بصورة خاصة ، وندت عنه شهقة جافة وهو يغادر الحجرة . وبدالي أنه من المستحيل أن أعثر على مخرج من هذه الورطة . فقلت لها « كيف يمكنني أن أرفض » ؟

« كيف يمكنك أن ترفض » ؟

وانطلقت السيـارة «بنسيم » و « ميليسا » عبر ليل الصحـراء الدافئ الهادئ وقـد غمرهما شعـور مفـاجئ بالتعـاطف كل نحـو الآخر ، ورغم ذلك ، ظـلا صامتين. وأبطل « سليم » آلـة السيارة عبر المنحدر الأخير قبل « بـرج العرب » وترك السيـارة تنزلق بعيـدًا عن الطريق وقـال لها : « تعالي إننى أود أن أريك قصر «جوستين » الصيفي » .

وسارا على الطريق نحو البيت الصغير وقد تشابكت أيديهما . كان الحارس نائماً غير أن المفتاح كان معه ، وفاحت من الحجـرات رائحة الرطوبة والأماكن الخالية من السكان ، غير أنها كانت مليئة بـالضوء المنعكس عن الكثبان الرملية البيضاء . ولم يمض وقت طويل حتى كـان قد أشعل نارا من الشوك في المدفأة الكبيرة ، وأخرج عباءته القديمة من الدولاب وارتداها ثم جلس أمام النار وقال: «والآن أخبريني يا « ميليسـا » ، من الذي أرسلك لتعذيبي ؟ » لقـد قال ذلك على

سبيل الدعـاية ولكنه نسى أن يضحـك ، وغمر الخجل « ميليسا » فغـدا لونها قانيًا وأخذت تعض شفتها . و لفترة طويلة جلسا هناك يستمتعان بضوء النار والشعور بأنهما يتقاسمان شيئًا مشتركا ـ يتقاسمان يأسـهما .

أطفأت « جـوستين » سيجارتها ونهضت في بـطء من الفراش . ثم أخـذت تسير في بطء فـوق السجادة جيئـة وذهابًا . لقـد تغلب عليهـا الخوف وكان في وسعي أن أرى أنها قـد بذلت جهـدًا حتى تتغلب على حـاجتهـا للانفجـار على طريقتها الخاصة . قالت تحدث المرآة : « لقد فعلت أشياء كثيرة في حياتي ، ربما كانت أشياء شريـرة ، ولكنى لم أقم بها وأنا غافلة ، أو دون هـدف . لقد أخذت الأعمال دائماً كأنها رسالات ، رغبات يحملها الماضي للمستقبـل ، رغبات تدعو المرء كي يتعـرف على ذاته . هـل كنت على خطأ ؟ هل كنت على خطأ ؟ » . لم تكن توجه الخطاب إليّ الآن ولكنها كات توجهـه إلى « نسيم » . إنه لأمر أكثر سهولة أن تتـوجه المرأة إلى عشيقهـا بـالأسئلة التي تنـوي إلقـاءها على زوجهـا ، ثم استمرت بعد لحظـة : « أما بالنسبة للمـوتى ، فلقد اعتقدت دائماً أن الموتى هم الذين يعتبروننا نحن أمواتًا . لقد لحقوا هم بالأحياء بعد تلك الجولة القصيرة في وجود وهمي » . وأخذ « حميـد »يتقلب الآن ، فاستدارت في ذعـر إلى ملابسها . وقالت في حزن « إذن فأنت ترى ضرورة ذهابك ، وكذلك أنا . إنك لعلي صواب ، يجب أن تـذهب » . وأضـافت وقـد استدارت إلى المرآة لتكمل زينتهـا « شعـرة بيضاء أخرى». وأخذت تتأمل ذلك الوجه الشرير المزين بأحدث الأساليب .

وأخذت أرقبهـا وهي واقفة هكذا وقـد التف حولها شعـاع رفيع من أشعة الشمس كان يخترق زجـاج النافـذة . لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير مرة أخرى في أنـه لا يوجـد شيء يمكنه أن يتحكم في بصيرتها أو بغير تلك البصيرة التي نمت وتطورت من طبيعة تغـذت على تأمل النفس وفحصها : لا تعليم ولا مصادر عقليـة لتقاتل رغبات قلب عـاصف . كانت موهبتهـا كتلك الموهبة التي يعثر المرء عليها بين الحين والحين عند قارئات المستقبل الجاهلات.

لقد كان كل ما يمت إلى الفكر في « جـوستين » مقتبسًا ـ حتى ملاحظتها عن الموتى كانت مقتبسة من كتاب « عادات » ، لقد انتقت من الكتب كل ما يمكن أن يكـون هامـًا وذو دلالـة ، لا عن طريق القـراءة ولكن عن طـريق الاستماع إلى أحاديث « بلتازار » و « الأرناؤوطي » « وبورسواردن » التي لا نظير لها في هذه الموضوعات . كانت تلخيصًا متحركًا للكتاب والمفكرين الذين أحبتهم أو أعجبت بهم ـ ولكن هل هناك ما تستطيع أية امرأة ذكية أن تتفوق به عليها ؟

وأخذ « نسيم » الآن راحتي « ميليسا » بين راحتيه (فـرقدتا هناك هادئتين ساكنتين كـالرقائق) وأخذ يـوجه إليها الأسئلة عني في لهفـة يمكن أن توحي بأني محور اهتمامـه العـاطفي وليست « جـوستين » . إن المرء يحب دائماً الشخص الذي اختـارته حبيبته حبيبـًا لها . إننى لا أبخل بأي شيء حتى أتمكن من معرفة ما قالته له . وقد نـالت بنقائها وحذرها غير المنتظر من عواطفه . إن كان ما أعرفه هو أنها اختتمت حـديثها بطريقة غبية وهـي تقول : « وحتى الآن فإنهما غير سعيدان: إنهما يتشاجران مشاجرات مخيفة : لقد أخبرني « حميد » بذلك عندما التقيت به آخر مـرة » . وبالتأكيد فإن « ميليسا » كانت على قدر من الخبرة يجعلها تـدرك أن تلك المشاجرات التي تسمع عنهـا إنما هي لعب حبنا . لكنني أعتقد أنها لم تـر في ذلك غير أنانيـة « جوستين » ـ غير الافتقـار الرهيب للاهتمام بالآخرين والذي كـانت تتصف به حبيبتي المستبدة . كانت تفتقر إلى السماحة افتقارًا تامًّا ، وبذا افتقـدت الأسـاس الوحيد الذي يمكن أن تقيم عليه «ميليسا » فكرة طيبة عنها . لم تكن في الحقيقة إنسانية النزعة ـ وهذا شأن كل من يتملكه حبـه لذاته . ماذا يمكن أن أجـده مميزًا لها ؟ لقد ســاءلت نفسى هذا السؤال للمرة الألف . ومع ذلك فإن « نسيم » عندما بدأ فى اكتشـاف « ميليسا » وحبها كـامتداد « لجوستين » ، قد حدد بـدقة الحالة التي تعيشها الإنســانية ـ وكانت « ميليسا » تبحث فيه عن ميزات تتصـور أننى قد عثرت عليها فى زوجته. لقد كنا نحن الأربعة نكمل بعضنا البعض دون أن نـدرى ، كنا قد ارتبطنا معًا

بطريقة معقدة . (« نحن الذين ارتحلنا كثيرًا وأحببنا كثيرًا : نحن الذين ـ لن أقول عانينا لأننا قد حققنا اكتفاءنا الذاتي على الدوام من خلال المعاناة ـ ولكننى أقول أننا وحدنا نعرف قدر اختلاط العواطف الرقيقة ، ونفهم الصلة الوثيقة بين الحب والصداقة » . «عادات ») .

إنهما يتبادلان الحديث الآن كما لو كانا أخًا وأختًا يواجهان مصيرًا محتومًا، أن كلاًّ منهما يجد فى الآخر شعور الارتياح الذي يحل بهؤلاء الذين يجدون شخصًا يشاركهم عبء همومهم التي لم يعترفوا بها لأحد . وأخذ يتحرك فى دخيلة كل منهما فى خلال كل هذا التعاطف ظل غير متوقع مجرد طيف من الشهوة ، إنه ربيب الاعتراف والخلاص . كان ينذر ، على نحو ما ؛ بعلاقة الحب التي كانت ستنشأ فيما بينهما ، والتي كان قبحها أقل بكثير من قبح علاقتنا نحن ـ أنا « وجوستين » . إن الحب يغدو أكثر صدقًا إذا كان مصدره التعاطف لا الشهوة ، لأنه لا يترك حينئذ أى جراح . كان الفجر قد أشرق عندما نهضا من حديثهما ، وقد تصلبت وتقلصت عضلاتهما لأن النار كانت قد انطفأت منذ وقت طويل ، وسارا إلى السيارة عبر الرمال الرطبة ، يتأملان ضياء الفجر بلونه القرمزي الباهت . لقد عثرت « ميليسا » على صديق وحام يرعاها ، أما عن «نسيم » فقد تبدل حاله ، إن الشعوربتعاطف جديد قد مكنه ، بصورة سحرية ، من أن يستعيد نفسه مرة أخرى ـ أي يغدو رجلا فى وسعه أن يقدم على [illegible] ما (فى وسعه أن يقتل [illegible]شيق زوجته إن أراد .) !

وأخذا يرقبان ، بينما كا[illegible]سيارة تنطلق بهما على الشاطئ المحلى الرائق المياه ، خيوط الشمس الممتدة [illegible] إلى أفق عبر البحر المتوسط الداكن الذي لا تقيده حدود والذي تلمس أطرافه « قرطاجنة » المقدسة في نفس الوقت الذي تلمس فيه « سلاميس » في « قبرص » .

وأبطأ « نسيم » ، مرة أخرى عند انحدار الطريق وسط الكثبان الرملية نحو الشاطئ ، واقترح بطريقة لا إرادية أن يسبحا . لقد انتابته فجأة ، وقد تغير عن

ذى قبل ، رغبة في أن تـراه « ميليسا » عـاريًا ، في أن تطرى جمال جسـده الذي حجب طويلا ، كبذلة جيدة التفصيل منسية في دولاب الخزين .

وخاضا في الميـاه الباردة وهما عاريان يضحكـان وقد أمسك كل منهما بيد الآخر ، يحسان ضوء الشمس الرقيق يتـوهج على ظهريهما . كان هذا الصباح يشبه أول صبـاح صاحب ميـلاد العالم . ونضت « ميليسـا » من نفسها وهي تخلع ملابسها آخر ما بقى من أثقال الجسـد ، وغدت الراقصة التي كانتها على حقيقتها ، فقد كـان العرى يمنحها دائماً قدرتها على الانطـلاق والاتزان ، وهي مهارات كانت تفتقد إليها في الكبارية .

ورقدا معًا لفترة طويلة في صمت تـام ، يبحثان عبر مشاعرهما الحالكة عن طريق للمستقبل . وأدرك أنه قد نال استجابتها المباشرة وأنها قد غدت محظيته فى كل شىء .

وعادا سـويًّا إلى المدينـة ، يحسان السعـادة والحرج في نفس الوقت ـــ فقد شعر كـلاهما بنوع من الفراغ كـامن في أعماق سعادتها . ومع ذلك فقـد تمهلا حيث كـان كل منهما مترددًا في تسليم الآخـــر إلى نـوع الحيـاة التي كـانت في انتظارهما، وأبطأت السيـارة كذلك ، وطال صمتهما بين ما كان يتبـادلانه من تودد وتحبب .

وأخيرًا تـذكـر « نسيم » مقهى متهـدمـًا في المكس حيث يمكن أن يجد المرء بيضـًا مسلوقًا وقهوة ، ومع أن الوقت كان مبكرًا إلا أن صـاحب المقهى اليونانى النعسان كان مستيقظًا وأعد لهما المقاعد تحت شجرة تين يابسة في فناء خلفي ملىء بالدجاج « وذبلها » القليل . وارتفعت حـولهما المصـانع والأرصفة المقامة من الحديد المضلع ولم يكن للبحر وجود إلا في الرطوبة اللزجة ورائحة الحديد المحمى والقطران النفاذة .

وأخيرًا أنزلها عند قمة أحد الشوارع التي ذكرت له اسمها وودعها بطريقة تحمل في مظهـرها طابـع الجفاف ـ لعلـه كان يخشـى أن يراه معها واحـد من

موظفيه . (إن هذا التعليق الأخير إنما هو حدس من جانبى إذ أن كلمتى «جفاف» و « تحمل في مظهرها » التي جاءت في يومياته ، تبدو إلى حد ما أنها في غير مكانها .) وعادت ضجة المدينة القاسية تتدخل ، تشدهما إلى مشاعرهما وهمومهما الماضية . أما من ناحيتها فقد تركته وهي تتثاءب يداعب النوم جفناها وقد استعادت طبيعتها كما كانت ، لتميل إلى الكنيسة اليونانية الصغيرة وتشعل شمعة للقديس . ورسمت الصليب على نفسها من اليسار إلى اليمين كعادة الأرثوذكس ، وأزاحت إلى الوراء خصلة من شعرها وهي تنحني على الأيقونة ، تتذوق ، في طعم النحاس الأصفر ، وهي تقبلها ، كل السلوى والعزاء الذي كانت تحسه وهي تمارس عادة منسية من عادات صباها . واستدارت في إعياء لتجد « نسيم » يقف أمامها . كان شاحبًا شحوب الموتى يحملق فيها بفضول يلتهب رقة ولطفًا . وللحال أدركت كل شيء . وتعانقا وقد حلق فوقهما نوع من الحزن ، لم يتبادلا القبل . إلا أن كلا منهما كان يضغط جسده إلى جسد الآخر ، وفجأة أخذ « نسيم » يرتعش من الإعياء ، وبدأت أسنانه تصطك . وسحبته « ميليسا » إلى كرسي أحد الشمامسة حيث جلس ذاهلا بضع لحظات ، يجاهد كي يتكلم ، يمر بيده على جبهته كشخص يفيق من الغرق . لم يكن يفعل هذا لأن لديه مايقوله لها ولكن شعوره بأنه قد فقد النطق جعله يخشى أن يكون ما يعانيه الآن نوبة من نوبات المرض . وقال في صوت كالنقيق : « لقد تأخر الوقت كثيرًا ، فالساعة الآن قد أشرفت على السادسة والنصف » . ونهض وهو يضغط راحتها إلى وجنته الخشنة : وكرجل عجوز أخذ يتحسس طريقه إلى الخارج عبر الأبواب الضخمة إلى ضياء الشمس ، وقد تركها جالسة هناك تتابعه بنظراتها .

لم يبد ضياء الفجر الباكر « لنسيم » جميلا في أي يوم من الأيام كما بدا الآن. ولاحت له المدينة متلألئة كحجر من الأحجار النفيسة . ورنت أصوات التليفونات الحادة التي كانت تملأ الأبنية الحجرية الضخمة حيث يعيش رجال

الأعمال ، رنت في أذنيه وكأنها أصوات طيور آلية ضخمة ولودة كانت تتلألأ في شباب خالد فرعوني . وكانت أشجار الحديقة قد اغتسلت بمطر الفجر النادر . كانت تغطيها حبات الماء اللامعة كالماس . وبدت كقطط كبيرة ناعمة تزين نفسها .

وسبح به المصعد إلى الطابق الخامس ، وحاول عدة محاولات مرتبكة حتى يبدو لائق المظهر (تحسس الشعر الأسود الخشن على خده وأعاد إحكام ربطة عنقه.) وتأمل « نسيم » صورته في المرآة الرخيصة متسائلاً ، وقد أثار المدى الجديد للمشاعر والمعتقدات التي منحتها له تلك المشاهد الوجيزة حيرته . غير أن المعنى الذي انتفض عن تلك الكلمات الست التي أسكنتها « ميليسا » في أعماقه ، كان يكمن تحت كل شيء ، ينبض بالألم كسن أو أصبع أصابه التلف . وأدرك « نسيم » وهو داخل أن « جوستين » قد ماتت بالنسبة إليه ـ تحولت من صورة تعيش في عقله إلى نقش ، إلى قلادة يستطيع المرء أن يضعها على قلبه أبد الدهر . إنه لأمر قاس على النفس أن يترك المرء حياته القديمة إلى حياة جديدة ـ فكل امرأة حياة جديدة ، متماسكة ، متكاملة ولا نظير لها . لقد غدت فجأة شخصية باهتة . لم يعد يرغب في امتلاكها أكثر من ذلك ، بل غدا يرغب في أن يحرر نفسه منها ، من امرأةقد تحولت إلى حالة معينة .

دق الجرس ينادي « سليم » ، ثم أخذ يملي عليه ، بعد ما جاء ، بعضًا من الخطابات الكئيبة الخاصة بالأعمال ، كان يملي بطريقة هادئة أثارت دهشة «سليم » حتى أن يده ارتعشت وهو يكتبها بالاختزال بطريقته الحريصة الدقيقة. وبدا « نسيم » مخيفًا « لسليم » في تلك اللحظة كما لم يبدو من قبل ، كان جالسًا إلى مكتبه الضخم المصقول وقد وضع أمامه حشدًا لامعًا من التليفونات.

ولم يلتق « نسيم » « بميليسا » بعد ذلك الحدث ، إلا أنه كتب لها خطابات طويلة مزقها وألقى بها فى دورة المياه . لقد بدا أنه من الضروري له ، لسبب

وهمي ، أن يفسر ويبرر لها تصرفات « جوستين » ، ولذا ابتدأ كل خطاب من تلك الخطابات بمقدمة يعرض فيها ماضي « جوستين » وماضيه . كان يحس أنه بدون تلك الديباجة ، يستحيل عليه تمام الاستحالة أن يتحدث عن الطريقة التي دخلت بها « ميليسا » حياته وسلبته لبه .كان بالطبع ، يدافع عن زوجته ، لا في مواجهة « ميليسا » التي لم تنطق بأي نقد ضدها (ما عدا تلك العبارة) ولكن في مواجهة كل الشكوك الجديدة التي برزت بشكل حاد أمامه بعد تجربته مع «ميليسا » ـ تمامًا كما ألقت تجربتي مع « جوستين » الضوء على علاقتي «بميليسا » وأعادت تقييمها بالنسبة إليَّ ، كذلك كان « نسيم » يرى وهو ينظر في عيني « ميليسا ! الرماديتين ، « جوستين » جديدة لا يتطرق الشك إليها تولد هناك في أعماقهما .

وشعر الآن بالانزعاج ، فقد أحس المدى الذي يمكن أن يصل إليه في كراهيته لها . وأدرك الآن أن الكراهية ما هي إلا حب لم يتحقق . وأحس الحسد عندما تذكر الطريقة ، ذات الاتجاه الواحد التي يفكر بها « بورسواردن » الذي كتب على الصفحة الأولى لكتابه الأخير الذي عطاه « لبلتازار » تلك الكلمات الساخرة .

« بورسواردن » والحياة .

لا تنسى أن : الطعام للأكل .

والفن للفن .

والنساء للـ ....

انتهى .

ر . ا . ب .

عندما التقيا في المرة التالية ، تحت ظروف مختلفة تمام الاختلاف .... لكنى لا أملك الشجاعة لأكمل العبارة التي بدأتها .

لقد ارتَدْت أعماق « ميليسا » بعقلي وقلبي إلى أبعاد كافية ولن أحتمل

استعادة تذكر مـا عثر عليه « نسيم » فيها ـ صفحات غطتهـا الجمل المشطوبة والتعديلات . صفحات مزقتها من يومياته وأعدمتها . الغيرة الجنسية هي أشد عواطف الحيوانات غرابة ، وفي وسعها أن تأوى في أي مكان ، حتى في الذاكرة . إنني أدير وجهي بعيـدًا عن فكرة قبـلات « نسيم » الخجلة ، بعيـدًا عن قبلات «ميليسا » التي لم تختر في « نسيم » إلا أقرب الشفاه إلى شفتي ...

وانتقيت بطاقة من رزمة جديدة من البطاقات الكرتونية التي كنت قد أقنعت أحد عمال الطباعة المحليين بأن يضع عليها اسمي وعنواني بعدأن ألححت عليه كثيرًا وبطريقة مخجلة ، ثم تناولت قلمي وكتبت .

السيد .. يقبل بسرور .

دعوة السيد .. الكريمة لصيد .

البط في بحيرة « مريوط » .

وبـدا لي الآن أنه في وسع المرء أن يتعلم بعض الحقـائق الهامة عن السلـوك الإنساني .

* * *

وأخيرًا انتهى الخريف إلى ركب الشتـاء الـواضح المعـالم . وأمواج البحـر العالية تجلد حاجز الصخور البيضـاء على طول الكورنيش . والطيور المهاجرة تتكاثر على طول الآماد الضحلة لمياه « مريوط » ، التي تتراوح بين اللون الذهبي والرمادي ، لون الشتاء .

وتلتئم الجماعـات مع الغسق عنـد بيت « نسيم » ـ مجمـوعـات هائلـة من السيـارات وأجمات الصيد . من هنـا يبدأ ملْ وتفـريـغ السـلال المصنوعـة من الصفصـاف المجـدول وأكياس البنـادق ، ويصحب ذلك تقـديم الكـوكتيـلات والسندوتشات . وتعـد بذلات الصيد . ويقارن الحاضرون بين أنـواع البنادق والخرطوش ، حديث لا ينفصل عن حياة الصياد ، إنه يبدأ الآن متشعبًا ، تافهًا ، حكيماً . وينتهي الغسق الخالي من القمـر بلونـه المائل للصفرة ، وتأخـذ أشعة

الشمس في الانحسار ببطء إلى أعلى نحو سماء المساء بلونها البنفسيجي الفاتح الشفاف. إنه طقس رائق ككوب الماء ، يبعث في النفس النشاط .

ونسير أنا و « جوستين » في نسيج همومنا التي تشبه بيت العنكبوت ، كأناس قد إفترقوا بالفعل عن بعضهم البعض . إنها ترتدي البذلة المخملية المعتادة ــ السترة بجيوبها الطويلة المائلة : وقبعة كقبعات التلميذات ــ من القطيفة الناعمة وقد شدت على رأسها حتى حاجبيها : وأحذية جلدية طويلة تصل إلى ما فوق الركبة . لم نعد ننظر إلى بعضنا البعض مباشرة ، ولكننا تبادلنا حديثًا أجوفا لا علاقة له بأمورنا الشخصية . كنت أعاني من صداع يشق الرأس . وألحت عليَّ لآخذ بندقيتها الزائدة عن حاجتها - بندقية خفيفة جميلة عيار ١٢ من صناعة « بوردي » ، بندقية نموذجية لمن كانت عينه ويده ينقصها المران مثل عيني ويدي .

هناك ضحك وتصفيق حيث تسحب القرعْة لتكوين المجموعات المختلفة . علينا أن نحتل مواقع متفرقة عن بعضها البعض بصورة كبيرة حول البحيرة ، وكان على هؤلاء الذين أصابتهم القرعة في المواقع الغربية ،أن يقوموا بجولة طويلة على طريق احتياطي عبر « المكس والمناطق الصحراوية . وسحب قادة المجموعات على التوالي ، قصاصات الورق من القبعة ، وقد كتب على كل قصاصة منها اسم واحد من الضيوف . كان « نسيم » قد سحب بالفعل ورقة عليها اسم « كابوديستريا » الذي كان يرتدي سترة جلدية قصيرة أنيقة أسورة أكمامها من القطيفة ، وبنطلونًا قصيرًا من الجبردين البني المائل للصفرة وجوربًا منقوشًا بالمربعات . كان يرتدي قبعة قديمة من الصوف الخشن ، بها ريشة ديك بري ، وقد تزين بأحزمة مليئة بالخرطوش كانت تتدلي من فوق كتفه. ثم سحب اسم « رالي » و الجنرال اليوناني العجوز ، بجيوب عينيه الرمادية المنتفخة وبنطلونه القصير المليء بالرقع ، ثم « باليس » القائم بالأعمال الفرنسي والذي يرتدي سترة من جلد الخراف ، وأخيرًا أنا .

وانضمت « جـوستين » و « بومبـال » إلى مجموعـة اللورد « إرول » . لقـد اتضح الآن أننا يجب أن ننفصل . وفجأة ولأول مرة أحس بخوف حقيقي بينما أراقب بريق عيني « نسيم » الذي لا معنى له . ونحتل أماكننا المختلفة في أجمات الصيد . ويعالج « نسيم » أشرطة جراب بندقية ثقيل مصنوع من جلد الخنزير. كانت يداه ترتعشان . وبانتهاء كل الإعدادات تبدأ السيارات بزئير آلاتها ، وعند تلك الإشـارة تنـدفع مجمـوعة من الخدم تـركض من المنـزل الكبير بأكـواب الشمبانيا ليقدموا لنا كأس الإنطلاق . ولقد مكنت هذه الضجة «جوستين » من أن تجيء إلى سيارتنا بحجة أنها تناولني حـزمة من الخرطوش الذي لا يصدر عنه دخان . وأن تضغـط ذراعي بحنان وأن تركز عليّ لمدةنصف دقيقـة هاتان العينـان السوداوان المعبرتـان ، واللتـان تلمعان الآن بتعبير يكـاد المرء يخطئ فهمه على أنه دليل الارتياح . وجاهدت أن أجعل شفتي تبتسمان .

وتحركنا نسير في مثـابرة وْ « نسيم » يجلس إلى عجلة القيادة لنلحق بـآخر أشعة الشمس الغـاربة بينما نغـادر المدينة لننطلق على طـول الكثبان الـرملية المنخفضـة نحو « أبو قير » . كان الجميع يتمتعـون بمعنويات عالية، « فرالي » لا يكف عن الثـرثرة ، و « كـابوديستريـا » يعمل على تسليتنا بسرد نـوادر والده الأسطوري المجنون (لقد كان أول عمل أقدم عليه عندما أصابه الجنون أن رفع دعـوى ضد ولـديه يتهمهما فيهـا بأنهما قـد ولدا عن عمـد وسابق قصـد من جانبهما بطريقة غير شرعية) كان يرفع أصبعه من وقت لآخر ليلمس الضمادة القطنية التي كانت تمسك بها عصابة سوداء كي تحتفظ بها في موضعها . كيف حدث أني لم أتعـرف في « كابوديستريـا » على الرجل الذي صنع كل تعـاسات «جوستين » ـــ الرجل ذي العصابة السـوداء؟ وأخرج « باليس » قبعة قـديمة مصنوعـة من جلد الغـزال ، لها حافتان عـريضتان كالأذنـان مما جعلـه يبدو كأرنب فرنسي في حالة تفكير عميق . ومن وقت لآخر كانت تلتقي عيناي بعيني « نسيم » في مرآة العربة فيبتسم .

كانت العتمة قد خيمت عندما وصلنا إلى شواطئ البحيرة والطائرة المائية القديمة تهمهم وتزأر في انتظارنا. كانت ممتلئه بأكوام من الشراك والخدع . وجمع « نسيم » لنفسه زوجًا من بنادق صيد البط الطويلة وركائز ثلاثية القوائم قبل أن يلحق بنا في القارب القليل العمق ، المسطح القاع ، لننطلق عبر البركة الموحشة بغابها المتشابك إلى المأوى الخرب الذي سنقضي فيه الليلة . واختفت كل الآفاق بشكل فجائي بينما تشق القنوات المعتمة بمركبنا الشديد الضوضاء ، نزعج زوار البركة من الطيور بزئير آلاتنا، والغاب يعلو فوق رءوسنا . وهنا وهناك ترتفع قمم نبات الحلفا من الجزر رغم إخفاء الماء لها . وينفتح أمامنا مرة أو مرتين ممر مائي طويل ضيق ـ ونلمح زوبعة من الطيور ـ البط البري يجرجر أغشية أرجله عبر سطح الماء الساكن . وبالقرب منا هنا وهناك وقفت الطيور الشرهة في متناول يدنا تتطلع إلينا في فضول ومناقيرها الطويلة ، التي استعبدتها شهيتها المفتوحة ، مليئة بالحلفا . وحولناالآن ، بعيدًا عن الأنظار تتهيأ مستعمرات البركة المكتظة لقضاء الليل . وعندما توقفت آلات الطائرة المائية ، امتلأ الصمت فجأة بأنين وطنين البط .

وتهب ريح خفيفة نشطة تغضن سطح الماء حول الكوخ الخشبي الصغير الذي ينتظرنا في شرفته حملة النبادق والذين يقومون بحشوها . وهبط الظلام فجأة ، وأصوات البحارة خشنة زاهية مرحة . وحملة النبادق مجموعة وحشية الطباع يركضون من جزيرة إلى أخرى بنداءاتهم الحادة ،.وقد شمروا جلابيبهم وشدوها حول وسطهم ، غير مبالين بالبرد . إنهم يبدون سود الشرة ضخام الأجسام وكأنهم قد نحتوا من الظلام . إنهم يشدوننا واحدًا بعد الآخر إلى الشرفة ثم ينطلقون في القوارب القليلة العمق المسطحة القاع لينصبوا كل عدتهم من الشراك والخدع بينما نتجه نحن إلى الحجرة الداخلية حيث تضيء بالفعل مصابيح بترولية . وتأتي من ناحية المطبخ الصغير رائحة الطعام التي تبعث الطمأنينة في نفوسنا والتي نستنشقها في استحسان ، بينما نتخلص من

بنادقنا وأحزمة الخرطوش ، ونركل أحذيتنا بعد خلعها . وينغمس الرياضيون الآن في لعب الطاولة أو الحديث عن الصيد ، ذلك الحديث الذي يستغرق الرجال ويدخل البهجة على نفوسهم أكثر من أي حديث آخر في الدنيا . « ورالي » يحك دهن الخنزير في حذائه القديم المليء بالرقع . إن الطبيخ المسبك رائع والنبيذ الأحمر قد جعل مزاج الجميع في حالة طيبة .

وعلى أى حال ،، في التاسعة ، تستعد غالبية الحاضرين للنوم ، ونسيم منهمك في الظلام في الخارج يلقي بآخر تعليماته لحملةالبنادق ويضبط المنبه القديم الصدئ ليدق في الثالثة . « وكابوديستريا » وحده لا يبدو عليه أي ميل للنوم . إنه يجلس وكأنما قد غرق في تأملاته ، يرشف نبيذه ويدخن سيجاره المفتوح الطرفين . ونتحدث لفترة من الزمن في مسائل تافهة ، وعلى حين غرة يندفع « كابوديستريا » في نقد كتاب «بورسوارون » الثالث والذي ظهر في المكتبات منذ فترة وجيزة . إنه يقول : « إن ما يدهشني هو أنه يقدم مجموعة من القضايا الروحية وكأنها أشياء عادية ، إنه يصورها من خلال شخصياته . إنني أفكر في شخصية « بار » الرجل الشهواني . إنه يشبهني إلى حد كبير . إن تبريره لحياة الإنسان الشهواني لشيء جيد إلى درجة خيالية ـــ كتلك الفقرة التي يقول فيها : « إن الناس لا يرون فينا غير المظهر الخارجي لحمى الشهوة الحقيرة التي تتحكم في أفعالنا ، ولكن يفوتهم ما يكمن تحت هذا المظهر من رغبة عارمة للجمال . إن المرء يلتقي في بعض الأحيان بوجه من الوجوه التي يتمنى أن يلتهم ملامحه قطعة فقطعة . حتى مضاجعة الجسد الراقد تحت المرء لا تنهي ما بنفسه أو تمنحه الراحة . ما الذي يجب عمله مع أناس مثلنا ؟ » . ويتنهد ثم يبدأ فجأة في الحديث عن « الإسكندرية » في الأيام الخالية . إنه يتحدث بطريقة جديدة فيها الرقة والإذعان ، عن تلك الأيام التي مضت منذ زمن بعيد والتي يرى نفسه يتحرك خلالها كحدث وشاب ، بكل هدوء ودون أي عناء . « لم أصل ألبتة إلى أعماق والدى . كانت نظرته للأمور نظرة لاذعة .

ومع ذلك فـربما كانت تخفي تلك السخـريـة نفسًا جـريحة . إن الرجل الـذي يستطيع أن يقـول أشياء سديـدة إلى حد أنها تشغـل انتباه وذاكرة الآخـرين ، ليس رجلا عاديًا ، كان يتحدث ذات مرة عن الزواج فقال ، « إنهم يقننون اليأس في الزواج » . وقال : « كل قبلة إنما هي إخضاع صد سابق » . ولقد صدمني أن نظرتـه التي تتلاءم مع الحيـاة قد تخللها الجنـون ، وكل ما بقى لى هـو ذكرى بعض الأحـداث والأقـوال المأثورة . والتـي أرغب في أن أترك ورائي قـدر مـا أستطيع منها » .

وأرقد مستيقظـًا في السرير الخشبي الضيق بعـض الوقت أفكـر فيما كان يقول : الظـلام والصمت يلفان المكان خـلا صوت « نسيم » السريع في الخارج وهو في الشرفـة يتحدث إلى حملـة البنادق . إنني لا أستطيع أن ألتقط الكلمات . ويجلس « كابوديستريا » في الظـلام مدة من الزمن قصيرة لينهي سيجارة قبل أن يتسلّق ببطء إلى السرير الواقع تحت النافـذة . ونام الآخرون بالفعل ، الأمر الذي يمكن الحكم عليه من شخير « رالي » الثقيل . وحل الاستسلام محل خوفي مرة أخرى إنني أفكر الآن وأنا على حافة النوم في« جوستين » مرة أخرى ، أفكر للحظة قبل أن أدع ذكـراها تنـزلق إلى عالم النسيـان الذي لا تسكنــه اليوم إلا أصوات بعيـدة ناعسة وتأوهـات مياه البركة الكبيرة المنـدفعة . وأستيقظ من لمسة يد « نسيم » الـرقيقة وهو يهز كتفي ، لأجد الظلام حالكـًا كالقطران ، لقد خذلنا المنبه فلم يدق . غير أن الحجرة مليئة بأشباح تتمطى وتتثاءب وتهبط من أسرتها . وكان حملة البنادق قد تكـوروا وهم نيام في الشرفة في الخارج ككلاب الحراسة . إنهم يشغلون أنفسهم الآن بإشعال مصابيح الزيت ، والتي سيضيء وهجها الغريب إفطارنا المتقطع ، والمكـون من القهوة والسندويتشات . وأهبط درجة المرسى وأغسل وجهي في مياه البحيرة الثلجية . الظلام المطبق يحيط بنا. والجميع يتكلمون بأصوات خفيضة ، وكأنما أثقل عبء الظلام عليهم . دفعات

من الريح تبعث الـرعشـة في المأوى الصغير المبني فوق المياه على قـوائم خشبية هزيلة .

ويعطي كل منا قـارب مسطح القاع وشخص يحمل لـه البندقيـة . ويقول «نسيم » : ستأخذ « فرج » معك . إنه أكثر حملة البنادق دربة ، كما أنه أكثر من يمكن الاعتماد عليهم . » وأشكره . وجه بـربري أسود مكتئب لا يبتسم ، تحت عمامة بيضـاء متسخة . إنه يتناول حـاجياتي ويستديـر في صمت إلى القارب المظلم . وأتسلق القارب وأنا أهمس مودعـا ، ثم أجلس . ويدفع « فرج » بالمدرة لتتأرجح بطـريقة مـرنة ، ويسير بنا القـارب في القناة . وفجأة نبحـر عبر قلب جوهرة سوداء . المياه زاخرة بـالنجوم ، هناك « أوريون » ، « والعيوق » يرمي بشراراته المتألقة . وظللنا نزحف في صمت لفترة طويلة فوق صفحة من النجوم تـزينها الجواهـر ، لم يكن هناك من صـوت غير صوت المدرة وهي تنغـرز في الطين، ثم صوتها وهي تسحب منـه . ثم نستديـر فجأة إلى قناة أوسع لنسمع صوت سلسلة من التموجات وهي تدق مقدمة القارب ، بينما تصل إلينا نفحات لها طعم الملح من هواء البحر الذي لا يمكن رؤية شاطئه .

تباشير الفجر تلـوح بالفعل في الجو ، بينما نعبر ظلام هـذا العالم الضائع . والآن ترتجف القنوات الموصلة إلى الميـاه الفسيحة ، بأقل النقوش التي تكونـها الجزر ، ونبتـة الحسك ، والحلفـا والغـاب . ويأتي الآن نقيق جماعـات البط وصوت النورس الحاد الرفيع عند شاطئ البحر من جميع النواحي . ويزمجر «فرج » كـالخنزيـر ويديـر القارب نحـو جزيـرة قريبة . وتمسك يـدي وهي تتحسس في الظلام ، بالحافة الثلجية لأقرب برميل ، وأبذل جهدًا حتى أتسلقه. كانت الأمـاكن التي سنحتمي بها مكونـة من مجرد زوج من البراميل التي هي ألواح خشبية جافة مربوطة معًا وقد غطتها فروع أغصان الغاب ، لتحجبها عن الأنظار . ويمسك « فرج » القارب بثبات بينما أخلصه من عدتي . ولم يعد هناك

ما يفعله المرء الآن غير أن يجلس وينتظر الفجر الذي يشرق في بطء في مكان ما، الفجر الذي يولد من هذا الظلام الأسود الأخرس .

الجو الآن قـارس البرد حتى أن معطفـي الثقيل لم يعـد يـدفئنـي بما فيـه الكفاية. وقد أخبرت « فرج » بأني سأقوم بنفسي بحشو بندقيتي ، فأنا لا أرغب في أن تكـون بندقيتي الإضـافية والخرطـوش الموجود في البرميل المجـاور ، في متناول يـده، ويجب أن أعترف بأنني كنت أحس الخجل وأنا أفعل ذلك ، غير أن هذا التصرف قد جعل أعصابي هادئة . ويـومئ بوجه خال من التعبير ، ويقف بعيدًا بـالقارب في دغل الغاب القـريب ، وقد بـدا متنكرًا مثل خيال المآتـة . إننا ننتظر الآن وقـد ولينا وجهينا ننظر إلى أبعـد آفاق البحيرة ـ وبدا كأن قـرونًا تمر.

وفجأة يشد أنظاري عنـد نهاية قبة السماء الهائلة فـاصل شاحب مرتعش يبدو كحاجز من الأزهار الصفـراء ينمو بالتدريج إلى شعاع يسقط في بطء عبر كتل السحاب الداكنـة عند الشرق ، ويزداد الزعيق وحـركة الماء في مستعمرات الطيور حولنا ونحن لا نراهـا . ويشرق الفجر علينا في بطء وألم ، كباب نصف مفتوح ، يـدفع الظلام إلى الخلف في قـوة . وتمر دقيقة وينـزلق في لين سلم من الأقحوان الأصفر الناعم من السماء ليلمس آفاقنـا ، وليزود عقولنا وبصـائرنا بأبعاد عن المكـان كانت تنقصها . وتثـاءب « فرج » بقوة وأخـذ يحك جسمه . وتشتعل الزهـور الحمراء بلون الـذهب الساخن . وتتحـول السحب إلى اللون الأخضر والأصفر . لقد بدأت البحيرة تنفض عنها نعاسـها . وأرى خيالات البط السوداء عبر ناظري نحو الشرق . ويتمتم « فرج » : « لقد حان ا لوقت » . إلا أن عقرب الدقائق في ساعة معصمي يوضح أنـه مازال لدينا خمسة دقائق لنغادر المكـان . وأحسست بعظـامي وكأنها قـد نقعت في الظـلام . وأحس بـالتـوتـر والقصور يجاهدان كي يسيطرا على عقلي الناعـس . هناك اتفاق ألا يبدأ الصيد قبل الرابعـة والنصف . وأحشو بندقيتي في بطء ، وأضع حـزام الخرطوش إلى

جواري وفي متناول يدي ، عبر المكان الذي أحتمى فيه . ويقول « فرج » بصورة أكثر استعجالا : « لقد حان الوقت . » وفي الجوار يوجد صوت طيور مختفية تطير في سرعة أو تغطس في الماء . ويقرفص في وسط البحيرة زوج من دجاج الماء، وكأنه غارق في التأمل والتفكير . وأكاد أقول شيئًا عندما تنطلق المجموعة الأولى من البنادق في الجنوب ـ مثل طقطقة كرات الكريكيت الصادرة من بعيد .

والآن بدأت تمر الطيور المنفردة ، واحد ، اثنان ، وثلاثة . ويزداد الضوء ويتسع ، متحولا من اللون الأحمر إلى الأخضر . وتتحرك السحب لتكشف عن فجوات هائلة في السماء . إنها تقشر الصباح كما تقشر الفاكهة . وترتفع نحو السماء على بعد مائتي ياردة أربعة تشكيلات منفصلة من البط ، كل منها على صورة رأس السهم . وتعبر من فوقي في نظام بديع وهي تميل بزاوية ، وأفتح عليها نيراني من بندقية اختيرت خصيصًا للمسافات البعيدة . إلا أن البط كالمعتاد ، أسرع وأبعد مما يبدو . وتمر الدقائق « تتكتك » في القلب ، وتنطلق النيران من بنادق أكثر قربًا ، إن البحيرة الآن في حالة عامة من النشاط . ويفد البط الآن في مجموعات تتزايد بصورة لا بأس بها . ثلاثة ، خمسة ، تسعة : إنها تطير على ارتفاع قليل وفي سرعة . وحفيف يصدر عن أجنحتها وهي تشق السماء بريشها وقد مدت أعناقها . ومرة أخرى تنطلق إلى أعلى في وسط السماء تشكيلات البط البري ، وقد تجمعت ينعكس عليها الضياء مثل الطائرات ، تشق طريقها في طيران سهل بطيء . البنادق تزحم الهواء برصاصها وتسطو على أسراب البط البري الطائرة ، نحو البحر الطليق في خط متعرج. ويأتي الأوز البري بعد ذلك في تتابعات أعلى وأبعد من أن تنال ، وصرخاته النائحة ترن في وضوح عبر مياه مريوط وقد غمرتها الشمس الآن .

لم يعد هناك وقت للتفكير : فالأنواع المختلفة من بط المياه العذبة والبط البري تصفر فوقي وكأنها السهام المنطلقة ، وأبدأ إطلاق النار في بطء وبطريقة منهجية . الأهداف وفيرة ، إلا أن المرء غالبًا ما يجد صعوبة في اختيار واحد منها

خلال الجزء من الثـانية الذي تكون فيـه أمام مرمى البندقيـة . ووجدت نفسي أطلق النار في سرعة مرة أو مـرتين على إحدى التشكيلات . فإن أصيب طائر في الصميم فإنه يترنـح ويدور على نفسه ، ويتـوقف للحظة ثم يغطس في رشـاقة كمنديل يسقط من يد سيدة . ويلتئم نبات الغاب على أجسام البط البنية ، إلا أن « فرج » الذي لا يتعب ولا يكل يتجه نحوها كالمجنون ليسترد الطيور . إنه يقفز في بعض الأحيان إلى الماء « بجلبيته ! وقـد شدها إلى حجابـه الحاجز . وتتوهج ملامحه بالانفعال . وهو يطلق ما بين الفينة والأخرى شهقة حادة .

إنها تفد الآن من كـل مكان ، من كل زاويـة يمكن تصورها وبكـل درجات السرعة . وتعـوى البنادق وتختلـط في الأسماع بينما تسوق الطيـور إلى الأمام وإلى الخلف عبر البحيرة . بعض الأسراب قـد أرهقتهـا الحرب بشكل واضح ، رغم رشاقتها وخفة حركتها ، بعـد الخسائر الفادحة التي أصابتها ، والبعض الآخر من الطيور المنفردة قد جن جنونها رعبًا وفزعًا . وتحط بطة صغيرة غبية للحظة إلى جوار المكان الذي أختبئ فيه ، إنها تكاد تكون في متناول يد « فرج » ، قبل أن ترى فجأة الخطر المحدق بها وتقفز منزلقة كالـرغوة . وفي تواضع لم أكن شـديد السوء رغم أنـه من الصعب في ذلك الهيجـان ، أن يسيطر المرء على نفسه ليطلق الرصاص بتأن ورويـة . الشمس ترتفع الآن بصورة لا بأس بها ورطوبـة الليل قد تبددت . سأغرق بعـد ساعة ، وأنـا بتلك الملابس الثقيلة ، في عرقي مرة أخـرى . الشمس تلمع فوق مياه « مريوط » المتموجـة حيث ماتزال الطيـور تطير . إن ا لمكامن التي يختبئ فيهـا الصيـادون ممتلئة الآن بأجسـاد الضحايا المخضلة ، الدم القاني يجري من المناقير المحطمة ، والريش الرائع ، قد جعله الموت كئيبًا .

وأطيل أمد الـذخيرة الباقيـة معي على قدر استطـاعتي ، غير أني أطلق آخر خـرطوش في الثـامنة والـربع ، « وفرج » مـايزال يعمل في همة ، يـلاحق البط المترنح بين الغـاب ، لا يسيطـر عليـه غير اهتمامه بـاستعـادة مـا وقع منهـا .

وأشعلت سيجارة ، وأحسست لأول مرة وقد نفضت عن كاهلي شبح النذر والتطير ـ بأني حر في أن أتنفس ، في أن ألم شتات عقلي مرة أخرى . إنه لأمر غريب ، كيف يحد منظر الموت من انطلاقة العقل ، كدرفة الشباك المصنوعة من الصلب ، تفصل المستقبل الذي يتغذى بمفرده على الآمال والرغبات . وأتحسس الشعر النامي على ذقني غير الحليقة وأفكر باشتياق في حمام ساخن، وإفطار دافئ . « وفرج » مايزال يستكشف بلا كلل جزر الحلفا . وتراخت البنادق وصمتت بالفعل في أركان البحيرة . وفكرت في « جوستين » باكتئاب موجع ، إنها موجودة في مكان ما هناك عبر المياه التي تغمرها الشمس . لم أكن أخاف كثيرًا على سلامتها ، لأنها كانت قد أخذت معها خادمي « حميد » ، كحامل لبندقيتها .

وأحسست فجأة بالمرح ، وبأني لا أحمل همًّا عندما ناديت على « فرج » حتى يكف عن بحثه ويعود بالقارب . وينصاع للنداء على مضض . وأخيرًا نغادر المكان ، ونعود أدراجنا نعبر البحيرة . خلال نتوءات وممرات الغاب نحو الكوخ .

ويقول « فرج » : « ثمانية أزواج ليست بالصيد الوفير » ، إنه يفكر في زكائب محتر في الصيد التي علينا أن نواجهها عندما يعود « رالي » و « كابوديستريا » . وأقول ، « إنها صيد جيد للغاية بالنسبة إليّ ، إنني صياد ردىء لم يحدث أن أجدت الصيد كما أجدته اليوم » . ودخلنا القنوات المائية الكثيفة النباتات والتي تتاخم البحيرة كمجاري مياه صغيرة .

وأرى في النهاية قاربًا آخر ينعكس عليه الضوء يتجه نحونا ، ويتضح فيه بالتدريج منظر « نسيم » المألوف . إنه يرتدي قلنسوته القديمة المصنوعة من الفرو قد ثنى أطرافها التي تغطي أذنيه وعقدها فوق رأسه ، وألوح له غير أنه لا يستجيب لي . إنه لا يجلس في مقدمة القارب ، يهيم بعيدًا بأفكاره وقد شبك راحتيه فوق ركبتيه . وأزعق : « نسيم » ، كيف كانت أحوالك ؟ لقد اصطدت

ثمانية أزواج ، وفقدت واحدًا » . والآن يكاد القاربان أن يتوازيا ، فقد كنا نتجه نحو مدخل آخر مجرى للمياه يقودنا إلى الكوخ . وينتظر « نسيم » حتى تصبح المسافة بيننا بضع ياردات قبل أن يقول في هدوء غريب ! « هل سمعت ؟ لقد وقعت حادثة . « كابوديستريا » ... » وفجأة ينكمش قلبي داخل جسدي . وأقول متلعثما ، « كابوديستريا ؟ » . ومايزال يكسو وجه « نسيم » ذلك الهدوء الشيطاني الغريب . هدوء إمرئ يستريح بعد أن بذل جهدًا كبيرًا . ويقول ، «لقد مات » ، وأسمع صوت الزئير المفاجئ لآلات الطائرة المائية وهي تبدأ خلف جدار الغاب . ويومئ برأسه نحو الصوت ، ويضيف بنفس الصوت الهادئ : « إنهم يأخذونه إلى « الإسكندرية » مرة أخرى . وتقفز إلى رأسي ألف تفاهة ، ألف سؤال عادي ، غير أني لا أستطيع أن أقول شيئًا لفترة طويلة من الزمن .

ويتجمع الآخرون في الشرفة وقد بدا عليهم الانزعاج ، يكاد يغمرهم الخجل، إنه يشبهون مجموعة من التلاميذ الحمقىُ ، انتهت إحدى ألعابهم بموت واحد منهم . وماتزال الضجة الصادرة من الطائرة المائية والمخيمة على المكان تكسو الهواء . وفي وسع المرء أن يسمع على بعد يساوي نصف المسافة زعيق وضجيج آلات السيارات وهي تستعد للانطلاق . وترقد أجساد البط المكومة والتي لابد وأن تكون مادة طبيعية للتعليقات الخبيثة ، كشيء سخيف في غير مكانه . ويبدو أن الموت قضية بشعة ، لم نكن معدين إلا لتقبل نصيب معين منه عندما دخلنا البحيرة المظلمة نحمل أسلحتنا . إن موت « كابوديستريا » يعلق في الهواء الراكد كرائحة كريهة ... كنكتة سخيفة .

لقد أرسل « رالي » لإحضاره ، فوجد الجسد ممددًا ، وقد اتجه الوجه إلى أسفل في مياه البحيرة الضحلة ، وعصابة عينه السوداء تطفو إلى جواره . كان من الواضح أنها حادثة وقعت بالصدفة . كان حامل بندقية « كابوديستريا » رجلا متقدمًا في السن ، نحيلا كطائر بحري شره ، إنه يجلس الآن في الشرفة منكبًا فوق أكله فول . إنه لا يستطيع أن يقدم عرضًا متماسكًا للواقعة . إنه من

الصعيد يحمل وجهه تعبير شخصي مرهق يوشك على الجنون كالتعبير الذي يرتسم على سمات رهبان الصحراء .

إن « رالي » في حالة عصبية شديدة وهو يشرب جرعات كبيرة من البراندي ، إنه يعيد سرد القصة للمرة السابعة ، لا لشيء إلا ليتكلم حتى يهدئ أعصابه . ورغم أن الجسد لم يمض عليه وقت طويل في الماء ، إلا أن جلده كان يشبه جلد راحتي امرأة غسالة . وانزلقت أسنانه الصناعية من فمه عندما حملوه ليضعوه في الطائرة المائية ، وتحطمت على الأرض فأخافتهم جميعًا . ويبدو أن هذه الحادثة قد تركت أثرًا عميقًا على نفسه . وأحس أنا فجأة بالإرهاق وهو ينال مني وأحس بركبتي وقد أخذتا في الارتعاش . وأتناول كوزًا من القهوة الساخنة، وأركل حذائي بعيدا ، وأزحف أنا والقهوة إلى أقرب سرير . « رالي » مازال يتكلم في إصرار يصم الآذان ، وراحته الطليقة تشق الهواء في أشكال معبرة . والآخرون يرقبونه في كآبة وفضول لا يعني شيئًا محددًا ، كان كل منهم غارقًا في أفكاره الخاصة . وحامل بندقية « كابوديستريا » مايزال يأكل في صخب كحيوان يكاد يموت جوعًا ، ويرمش في ضوء الشمس . الآن يظهر للعيان قارب به ثلاثة من رجال البوليس وقد جلسو في حذر داخله . « ونسيم » يرقب منظرهم الهزلي بجأش ثابت ، حتى أنه بدت عليه لمحة سريعة من الرضا ، وكأنه كان يبتسم لنفسه . وترتفع طقطقة الأحذية وقعقعة أقعاب البنادق فوق السلالم الخشبية ، إنهم يصعدون إلى أعلى ليأخذوا أقوالنا في مذكراتهم . إنهم يجلبون معهم جوًا من الشك خطيرًا يحوم فوق رءوسنا جميعًا . ويضع أحدهم القيد في حرص في يديّ حامل بندقية « كابوديستريا » قبل أن يقودوه إلى القارب. ويمد الخادم معصميه للقيد الحديدي بطريقة رقيقة خالية من الفهم والإدراك ، نفس الانطباعات التي يراها المرء على وجوه القردة العجوزة عندما يطلب منها أن تؤدي عملا إنسانيًا تعلمت أداءه دون أن تفهم مغزاه .

كانت قد بلغت الواحدة قبل أن ينتهي رجال البوليس من عملهم . لابد أن

باقي المجموعات قد عادت الآن من البحيرة إلى المدينة حيث تنتظرهم أنباء موت «كابوديستريا » . غير أن هذا لن يكون كل شيء .

ونهيم واحد بعد الآخر بعدتنا نحو الشاطئ . السيارات في انتظارنا ، وتبدأ الآن مرحلة طويلة من المساومات مع حملة البنادق والبحارة الذين يجب أن ندفع لهم أجورهم ، وتفرغ البنادق ، وتوزع الأكياس ، وأرى خادمي « حميد » في كل هذه الفوضى وهو يتقدم على استحياء خلال الزحام وقد أغلق عينه السليمة اتقاءً لضوء الشمس . وأعتقد أنه يبحث عني ولكن كلا : إنه يتجه إلى «نسيم » ويناوله مظروفًا أزرق صغيرًا . إنني أود أن أصف هذه الواقعة بدقة. « نسيم » يتناول الخطاب بيسراه وهو شارد بينما تمتد يمناه داخل السيارة ليضع صندوق الخرطوش في علبة قفازه . ويفحص العنوان دون ترو مرة ، ثم يفحصه مرة أخرى بانتباه ملحوظ . ثم يأخذ نفسًا عميقًا وعيناه على وجه «حميد» ، ويفتح الخطاب ليقرأ ما هو مكتوب على نصف صفحة من ورق الخطابات . إنه يطالعه في دقيقة ثم يضع الخطاب مرة أخرى في المظروف . وينظر حواليه وقد ارتسم فجأة على وجه تعبير متغير ، وكأنه قد أحس بالغثيان فجأة ، إنه ينظر حواليه بحثًا عن مكان يتقيأ فيه ، ويشق طريقة خلال الزحام ليضع رأسه على زاوية حائط طيني ويطلق إجهاشة قصيرة لاهثة ، كتلك التي يطلقها شخص جرى حتى تقطعت أنفاسه . ثم يستدير إلى العربة ، وقد سيطر على نفسه تمامًا وجفف دموعه ، ليكمل حزم حاجياته . وتمر هذه الحادثة القصيرة دون أن يلحظها باقي الضيوف على الإطلاق .

وترتفع الآن غمامات من التراب ، فقد بدأت السيارات انطلاقها نحو المدينة، وتزعق وتلوح لنا زمرة البحارة الخشنة الطباع ، يودعوننا بابتسامات تبدو وكأنها منحوتة من بطيخ مرصع بالذهب والعاج . ويفتح «حميد » باب السيارة ويتسلق كالقرد . وأقول : « ما الأمر ؟ » ويقول وهو يمد راحتيه الصغيرتين نحوي في اعتذار وتوسل ، وكأنه يعني ، « لا تلم حامل الأخبار

السيئة . » ويقـول في صوت خفيض يحاول مـواساتي : « سيـدي ، لقد رحلت السيدة ، وهناك خطاب في المنزل من أجلك » .

وأحس وكأن المدينة كلها قد تحطمت حول أذني : وأسير في بطء إلى الشقة ، على غير هـدي ، كـالنـاجين من زلـزال وهم يسيرون في شـوارع مـدينتهم ، مندهشين عندما يجدون أن كل ما كان مألوفًا لديهم قد تغير . شارع « بيرو » ، شارع « فرنسا » ، جامع « التربانة » (دولاب تفوح منه رائحة التفاح) ، شارع « سيدي أبو العباس » (الميـاة المثلجة والقهوة) ، « الأنفوشي » ، « رأس التين» ، « كنج مـريـوط » (حيث كنـا نجمـع الأزهـار البريـة ، وأنـا مقتنع أن ليس في مقدورهـا أن تبادلني الحب) ، تمثـال « محمد على » ممتطيًا جـواداً في الميدان . تمثال نصفي صغير مضحك للجنـرال « أيرل » الذي قتل في « السـودان » عام ١٨٨٥ .... أمسيـة زاخرة بعصـافير الجنة .... المقـابر في « كـوم الشقافـة » ، الظلام والتربة الرطبة ، لقد أرعبنا الظـلام .... « شارع فؤاد » باعتباره الطريق القـديم الـذي تظللـه الأشجـار ، والذي كـان يطلق عليـه ذات يـوم شـارع « روزيت».... «هتشينسون » وقد أخل بكل النظام المائي الخاص بـالمدينة عندما هدم السـدود المقامـة على البحر .... المشهـد الموجود في كتـاب « عادات » حيث يحاول أن يقرأ لها الكتاب الذي يكتبه عنهـا . « إنها تجلس في كرسيها المصنوع من الأغصان المجدولة وقد وضعت راحتيهـا في حجرها ، كأنها ستتخذ وضعًا تصور منه ، غير أن نظـرة فزع كانت تزداد بـاضطراد على وجهها . وأخيرًا لم يعد في وسعي أن أحتمل أكثر من هذا ، فألقي بالمخطوط إلى المدفأة ، وأنا أصيح، (ما قيمة تلك الصفحات النابعة من قلب مطعون حتى أعماقه النابضة ، ما دمت لا تفهمين منها شيئًا ؟) إنني أستطيع أن أرى بعين خيـالي « نسيم » وهو يقطع السلم الكبير في سرعة إلى حجـرتها ليجد « سليم » في حـالة من الـذهول يتأمل الدواليب الفارغة ومنضدة الزينة وقد أزيح كل ما فوقها كأنما أطاح بها مخلب نمـر . وتـزعق صفـارات السفن في مينـاء « الإسكنـدريـة وتنـوح ، وتمضع

وتجرش محركات السفن مياه الحاجز الداخلي الخضراء التي يكسوها الزيت . وتدير اليخوت سواريها نحو السماء وهي تتثنى وتميل في كسل ، وتنفخ دون جهد كأنها نبضات الأرض ذاتها وهي تنقبض وتتمدد . هناك في مكان ما في قلب التجربة نظام وانسجام يمكن أن نضع أيدينا عليه إذا انتبهنا بما في الكفاية، وأحببنا بما فيه الكفاية ، أو تذرعنا بالصبر بما فيه الكفاية .

هل سيكون هنالك متسع من الوقت لذلك ؟

الجزء الرابع

كان اختفاء « جوستين » أمرًا جديدًا يجب احتماله . لقد غير كل النمط الذي قامت عليه عـلاقاتنا . لقد بـدا الأمر وكأنها قد أزاحت حجرًا هـو واسطة العقد الذي يمسك ببناء أحـدالأقواس . ويمكن القول : إنها قد تـركتنا أنا و « نسيم » بين الأنقاض نواجـه مهمة إصلاح علاقة هي التي أوجدتها وقـد صارت خواء لغيابها ، يتردد فيها أصداء إثم أحسست أنه سيخيم دائماً من الآن فصاعدًا على عواطفي .

كان ألمه واضحًا لكل إنسان . وبدا ذلك الوجه المعبر مسلوخًا عليلاً ـ شاحبًا شحوب تمثال شهيد في كنيسة . وعندمـا رأيته على تلك الحالة تذكرت بصورة حادة مشاعري الخاصة خلال آخـر لقاء لي مع « ميليسا » قبل أن تغادر المدينة إلى المصحة في « أورشليم » حيث مضى عليها حتى الآن ما يقرب من عام كامل. الصفاء والـرقة اللتـان تحدثت بهما عندمـا قالت : « لقـد انتهى الأمـر كله .... وربما إلى غير رجعـة .... على الأقل هذا الفـراق » . وغـدا صـوتها ناعماً دامعـًا يطمس أطـراف الكلمات . كـانت في ذلك الوقت صريعـة المرض . فقـد انفتحت إصابتها من جديد . « سيكون لدينا الوقت لنراجع ما في نفوسنا .... ليتني كنت «جوستين»..... إنني أعرف أنك تفكر فيها عندما تضاجعني .... لا تنكر ذلك ... إنني أعرف يـا حبيبي ... أنني أحس بالغيرة حتى ممـا يطوف بخيـالك .... إنه لأمر فظيع أن يلوم الإنسـان نفسه فوق مـا يعانيه من شقاء وعذاب .. وعلى كل حـال لا تهتم » . ودعكـت أنفهـا وهي تنتفض وحـاولت أن تبتسم ، « إنني في حاجة ملحة إلى الراحة ....

لقـــد وقع « نسيم » الآ في حبي » . ووضعت راحتي فـــوق فمهـــا الحزين واختلجت سيارة التاكسي في عنف ، وكأنها شخص ما يعيش على أعصابه . كان

كل شيء حولنا يسير ، نساء الإسكندرية ، وقد غادرن دورهن أنيقات ، وكأنهن أطياف صقلت صقلاً جيدًا . كان السائق يرقبنا في المرآة كجاسوس . ربما كان يفكر في أن عواطف البيض شاذة مثيرة فاجرة ، كان يراقبنا كما يراقب المرء قططًا تتعاشر .

« لن أنساك أبد الدهر » .

« ولا أنا ، اكتبي إليّ ».

« سأعود في أي وقت إن أردت عودتي » .

« لا يخالجك الشك في ذلك . اشف ، يا « ميليسا » من مرضك . يجب أن تشفى . سأكون في انتظار عودتك . سنبدأ دورة جديدة من الحياة . إن كل شيء مايزال في أعماقي كما كان . إنني أحس به » .

إن الكلمات التي يتبادلها العشاق في مثل تلك الأوقات تكون محملة بمشاعر مشوهة . إن صمتهم وحده هو الذي يلتزم الدقة المتناهية التي تشدهم إلى الحقيقة . كنا صامتين ، يمسك كل منا بيد الآخر . فعانقتني وأشارت للسائق أن ينطلق .

يكتب « الأرناؤوطي » : « وبرحيلها اتخذت المدينة حياله مظهرًا ، تثير غرابة الضعف في نفسه . فحيثما تقع ذكراه عنها على ركن مألوف لديهما ، فإنها تستعيد وجودها في سرعة وحيوية ، مسلطة تلك العينين واليدين الشبحيتين على الشوارع والميادين . وقفزت أحاديث قديمة تبادلاها تلطمه وسط الموائد المصقولة في المقاهي التي جلسا فيها ذات مرة من قبل ، ينظر كل منهما في عيني الآخر كنمرين . كانت تتراءى له في بعض الأحيان وهي تسير أمامه في الظلام ببضع خطوات . كانت تقف لتصلح رباط صندلها فيلحق بها وقد أسرعت دقات قلبه ، ليجد أنها واحدة غيرها . وبدت له بعض الأبواب وقد أوشكت أن تفتح لتسمح لها بالدخول . فكان يجلس يرقبها في عناد . وفي أحيان أخرى كان يتملكه فجأة اعتقاد لا يقاوم بأنها على وشك أن تصل في قطار معين ، فيسرع إلى

المحطة ويخوض بين جمهرة المسـافرين كما يخوض المرء نهرًا . أو ربما جلس في غرفة الانتظار المكتومة في المطار بعد منتصف الليل يرقب الراحلين والقادمين ، كأنما ستفاجئه بعودتها . وسيطرت بهذه الطـريقة على خياله ، وعلمته إلى أي مدى كان إدراكـه ضعيفًا . وحمل معه ثقل إحساســه برحيلها حيثما ذهب كما يحمل المرء طفلاً ميتًا لا يستطيع التخلي عنه » .

ولقد هبت في الليلـة التي أعقبت رحيل « جوستين » عـاصفة رعـدية بـالغة الحدة . كنت قد همت لساعـات تحت المطر ، نهبًا ليس فقط لمشاعـر عجزت عن التحكم فيها ولكن أيضًا لتبكيت ضميري لما جال بخاطري من مشاعر لابد وأن يعـانيها الآن « نسيـم » . وفي صراحة ، فإنني لم أجـرؤ على العـودة إلى شقتي الخالية، حتى لا يغريني نفس الطـريق الذي كان « بورسـواردن » قد سلكه في غـايـة اليسر والسهـولـة ، مع قليل من العمـد وسبق الإصرار . وبينما أقطع « شارع فؤاد » للمرة السابعـة ، بلا معطف ، ولا قبعة ، في ذلك المطر المدرار الذي يلف كل شيء ، تصادف أن لمحت الضوء في نافذة « كليا » العالية ، فاندفعت إلى أعلا أدق الجرس . وأنَّ الباب الخارجي وهو يفتح ، فخطوت من الشارع المظلم بأمطاره الهادرة كالميازيب ورشاش فتحات البالوعات وقد فاضت منها المياه .

وفتحت لي الباب ، وبنظـرة واحدة أدركت حالتي . وسمحت لى بالـدخول ، لأخلع مـلابسي المبتلة وأرتـدى جلبـابًا أزرقـًا . ونعمت بنـار المدفأة الكهربيـة الصغيرة وأخذت تعد لى القهوة الساخنة .

كانت تـرتدي بيجـامتها ، وقـد مشطت شعرهـا الذهبي استعـدادًا للنوم . ونسخة من كتاب « بالعكس » موجودة على الأرض وغلافها إلى أسفل إلى جوار المنفضـة حيث توجـد بها سيجارة تحترق . وظـل البرق يومض عنـد النافـذة بصـورة متقطعة ، يضيء وجههـا الرصين بـومضـاته التي تماثل ومضـات الماغنسيوم ، وتدحرج الرعد وتلـوي في السماوات الحالكة خارج النافذة . كان من الممكن إلى حـــد مـا أن أتخلـص من مخاوفي من ذلك الهدوء بـالحديث عن

«جوستين » . وبدا لي أنها تعرف كل شيء ـ لم يكن في الاستطاعة إخفاء شيء عن فضول سكان « الإسكندرية » . ويمكن القول ، أنها كانت تعرف كل شيء عن «جوستين » .

قالت « كليا » في قلب كل هذا : « لابد أنك قد خمنت أن « جوستين » كانت هي المرأة التي أخبرتك ذات مرة أنني قد أحببتها حبًّا جمًّا » .

لقد كلفها هذا القول جهداً كبيرًا . كانت تقف إلى جوار الباب وقد ارتدت بيجامتها ذات الخطوط الزرقاء ، وقد أمسكت قدح القهوة في إحدى يديها . وأغلقت عينيها وهي تتكلم ، وكأنها تتوقع ضربة على أم رأسها . وسالت في بطء دمعتان من عينيها المغلقتين وانحدرتا حول أنفها . وبدت كوعل صغير انكسر مفصل قدمه . وأخيرًا قالت في صوت هامس : « آه ، دعنا لا نتحدث عنها مرة أخرى ، إنها لن تعود أبدًا » .

ولقد حاولت فيما بعد أن أغادر المكان إلا أن العاصفة كانت على أشدها وملابسي مبتلة إلى درجة لا يمكن تصورها . و قالت « كليا » : « في وسعك أن تبقى هنا معي » . ثم أضافت في رقة جعلتني أحس بغصة في حلقي « ولكن أرجوك ـ لا أدري كيف أقولها ـ أرجوك ألا تضاجعني » .

ورقدنا سويًّا في ذلك السرير الضيق نتحدث عن « جوستين » بينما العاصفة تدوي في الخارج ، والأمطار المندفعة من عند شاطئ البحر تحك زجاج نوافذ الشقة . كانت ترقد الآن هادئة في نوع من الاستسلام الذي كان يفصح عن نفسه بطريقة مؤثرة . وأخبرتني الكثير عما في « جوستين » والذي لم يكن يعرفه سواها ، تحدثت عنها في حيرة ورقة كما يتحدث عامة الناس عن ملكة محبوبة غير أنها تثير الحنق والغضب .

وعندما تحدثت معها عن مجازفات « أرناؤوطي » في عالم التحليل النفسي قالت وهي تحس أن الأمر مسل : « إنها لم تكن بالفعل ماهرة ، كما تعلم ، إلا أنها كانت تمتلك فكر حيوان برى وقع في مأزق . إنني لست متأكدة من أنها قد

فهمت بالفعل موضوع تلك الفحوص . رغم أنها كانت تراوغ الأطباء إلا أنها كانت صريحة للغاية مع أصدقائها .

مثلا كل تلك المكاتبات حول كلمات « واشنجطن . د . ك . » والتي تدارسوها كثيرًا ، هل تتذكر ؟ لقد سألتها ذات ليلة بينما كنا نرقد هنا سويًا أن تشرح لي ما ترتبط به تلك العبارة . بالطبع كانت تثق في تعقلي بشكل مطلق . فأجابت دون أن تقع في خطأ (كان من الواضح أنها قد درست هذا الأمر بالفعل رغم أنها لم تخبر « أرناؤوطي » بذلك) . توجد مدينة قرب «واشنجطن» تدعى «الإسكندرية » . وكان أبي دائم الحديث عن الذهاب إلى هناك لزيارة بعض الأقارب البعيدين . وكانت لهم ابنة تدعى « جوستين » في مثل عمري بالضبط .

ولقد جنت « جوستين » تلك وعزلت . كان قد اغتصبها أحد الرجال . وعندئذ سألتها عن معنى د . ك . فقالت « داكابو كابوديستريا » .

إنني لا أدري كم استغرق ذلك الحديث أو كيف انتهى بنا إلى النوم . غير أننا استيقظنا صباح اليوم التالي متعانقين لنجد أن العاصفة قد كفت . والمدينة نظيفة وكأنها قد مسحت بالإسفنج . وتناولت إفطارًا سريعا واتخذت طريقي نحو دكان « منمجيان » ، لأحلق ذقني ، عبر شوارع قد غسل المطر ألوانها الأصلية حتى أنها كانت تتوهج بالدفء والجمال في ذلك الطقس الناعم . كنت ما أزال أحتفظ بخطاب « جوستين » في جيبي غير أنني لم أجرأ على قراءته مرة ثانية وإلا تحطمت راحة البال التي منحتني إياها « كليا » . غير أن العبارة الافتتاحية ظلت تدوي في رأسي في إصرار عنيد نابض : « إذا قدر لك أن تعود حيًا من البحيرة فستجد هذا الخطاب في انتظارك » .

وفي الشقة في غرفة الاستقبال على رف المدفأة كان هناك خطاب آخر يعرض على عقدًا لمدة عامين كمدرس في مدرسة كاثوليكية في الصعيد . وأجلس للحال دون أدنى تفكير وأكتب مسودة موافقتي . إن هذا الأمر سيغير كل شيء مرة

أخرى ، سيحررني من شوارع المدينة التي أخذت تلاحقني أخيرًا حتى أني أحلم بأني أسير بلا نهاية جيئة وذهابًا ، أبحث عن « ميليسا » بين الشعلات المحتضرة في الحي العربي .

وبإرسال خطاب القبول هذا بالبريد تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياتي . إنه يحدد ميعاد انفصالي عن المدينة التي وقعت لي فيها أحداث كثيرة ، ذات أهمية خطيرة ، أحداث من الكثرة بمكان حتى أنها جعلتني أسرع نحو الشيخوخة . ومع ذلك فإن الحياة ستحمل نبضها ساعات وأيامًا لفترة محدودة من الزمن . ستتوهج نفس الشوارع والميادين في خيالي كما يتوهج الفراعنة في التاريخ . حجرات بذاتها ضاجعت فيها عشيقتي ، موائد ، مقاه بذاتها حيث سحرني ضغط الأنامل فوق معصمي ، وذلك الإحساس بإيقاعات «الإسكندرية» والذي ينتقل عبر الشوارع الحارة إلى أعلى ، إلى الأجساد التي لا تستطيع أن تترجمها إلا إلى قبلات جائعة ، أو عبارات تودد وتحبب في أصوات مبحوحة من الدهشة والحيرة . إن هذه الفواصل ، في حياة تلميذ الحب مُرة ، غير أنها ضرورية لنموه ونضجه . إنها تساعد المرء كي يجرد نفسه بصورة ذهنية من كل شيء عدا الرغبة العارمة في مزيد من الحياة .

والآن يعاني الوضع الراهن للأمور أيضًا عملية تغيير غامضة ، فقد بدأت عمليات رحيل أخرى . « نسيم » ذاهب إلى « كينيا » في إجازة . نال « بومبال » الترقية ونقل إلى وظيفة بالمحكمة العليا « بروما » حيث سيكون دون شك أسعد حالا . وبدأت سلسلة من حفلات الوداع التي تحقق أهداف كل منا ، إلا أنها كانت حفلات ثقيلة الظل لغياب الشخص الوحيد الذي لم يعد يذكره أحد ـ «جوستين » . من الواضح أيضا أن حربًا عالمية تزحف علينا في بطء عبر مضايق التاريخ ـ تضاعف مطالبنا إزاء بعضنا البعض وإزاء الحياة . وتعلق رائحة الدم الحلوة إلى حد الغثيان في الجو المعتم وتعمل على خلق إحساس بالإثارة والغرام والاستهتار . وهي نغمة كنا نفتقدها حتى الآن .

إن الثريات التي في المنزل الكبير والتي بدأت أكره قبحها تتوهج فوق الجمع الذي التأم شمله ليودع صديقي . إن الجميع هناك ، الوجوه والتواريخ التي عرفتها معرفة جيدة ، « سفيفا » ترتدي الأسود ، « وكليا » ترتدي رداء ذهبيًا ، «جاستون » ، « كلير » ، و « جابي » . وألاحظ أن اللون الرمادي قد بدأ يأخذ طريقة بصورة طفيفة إلى شعر « نسيم » خلال الأسابيع الأخيرة . « بتوليميو» و« فؤاد » يتشاجران بكل الحيوية التي يتمتع بها العشاق القدامى . وترتفع حولي الحيوية السكندرية الأصيلة وتهدأ إلى مناقشات هشة حقيقة كالزجاج المشغول . هنا نساء الإسكندرية بكل خبثهن المهذب يودعن الرجل الذي أسرهن بالسماح لهن بمصادقته . أما عن « بومبال » ذاته فقد غدا منذ نال الترقية أتخن مما كان ، وأكثر ثقة في نفسه . وأصبح لمنظر وجهه الجانبي شبهًا معينًا «بنيرون » . إنه يفضي إلى بقلقه عليّ في صوت خفيض ، إننا لم نلتق منذ بضعة أسابيع اللقاء الواجب ، لم يسمع هو بمشروعي عن التدريس إلا الليلة . وأخذ يكرر ، يجب أن ترحل ، أن ترجع إلى أوربا . إن هذه المدينة ستقوض إرادتك . ماذا سيقدم لك الصعيد ؟ حر مشتعل ، غبار ، ذباب ، عمل حقير ... وعلى كل حال فإنك لست « ريمبود » .

وتحول الوجوه التي تتموج حولنا وترشف الأنخاب دون الرد عليه ، ويغمرني هذا الأمر بالسعادة إذ ليس لدي ما أقوله . وأحملق فيه أومئ برأسي ، وأنا أحس بخدر هائل . وتمسكني « كليا » من معصمي لتسحبني جانبًا وتهمس لي : « بطاقة من « جوستين » . إنها تعمل في « الكيبوتز » اليهودي في فلسطين . هل أخبر « نسيم ؟ » .

« نعم . كلا . لست أدري » .

« إنها تطلب مني ألا أخبره » .

« إذن فلا تخبريه » .

وتحول كبريائي دون سؤالها إذا كانت هناك أية رسالة من أجلي . وأخذ

الجمع يغني تلك الأغنية القديمة « لأنه إنسان طيب خفيف الروح » ، في فترات مختلفة وبلهجات متنوعة . وغدا وجه « بومبال » قانيًا من فرط سعادته . وأنزل يد « كليا » بلطف حتى ألحق بالغناء . والقنصل العام الضئيل الجسد يأتي بحركات من يديه وجسده ويتملق « بومبال » . إنه مرتاح ارتياحًا كبيرًا لرحيل صديقي حتي أنه ارتدي لباس الصداقة والأسى بصورة تبدو وكأنها نوبة مرضية . وتبدو مجموعة القنصلية الإنجليزية في جو كئيب كأنها عائلة من الديكة الرومية تبدل ريشها . وتتابع مدام « فنيوتا » النغم بنقرات من يدها الرشيقة المكسوة بالقفاز . والخدم السود بقفازاتهم البيضاء الطويلة يتحركون من مجموعة إلى أخرى من مجموعات الضيوف في خفة كأقمار مخسوفة . وأجد نفسي أفكر في الذهاب إلى إيطاليا أو فرنسا : حتى أبدأ نوعًا جديدًا من الحياة : لن تكون حياة مدنية في تلك المرة ، ربما في جزيرة في خليج «نابولي » ... غير أني أدرك أن المشكلة التي بقيت بلا حل في حياتي ليست هي مشكلة « جوستين » ولكنها مشكلة « ميليسا » . فقد كان المستقبل ، إذا كان هناك ثمة مستقبل ، مرتبطًا بها دائماً على نحو غريب . ومع ذلك فإنني أحس بعجزي عن التأثير فيه بالقزارات أو حتى بالأماني . إننى أحس بأن على أن أنتظر في صبر حتى تلتئم آثار تاريخنا الضحلة مرة أخرى ، حتى تلتقي خطانا مرة أخرى . ربما يستغرق هذا الأمر سنوات ـ ربما يكون كلانا قد ابيض شعره عندما يتغير مجرى التيار فجأة . أو قد يموت الأمل وهو مازال وليدًا ، وتسحقه تيارات الأحداث كحطام سفينة غارقة . إنني لا أثق في نفسي إلا بقدر محدود للغاية . النقود التي تركها « بورسواردن » ما تزال في البنك ـ لم ألمس مليماً واحدا منها . إنه بمثل هذا القدر من المال يمكننا أن نمضي عامين نتمتع بالشمس في كل مكان رخيص .

« ميليسا » ما تزال تكتب إلى تلك الخطابات المرحة اللامبالية والتي أعاني صعوبة حقيقية في الرد عليها إلا بردود باكية عن الأحوال التي أعيشها أو عن

تبذيـري وفشـلي . ما أن أغـادر المدينة حتى يسـهل الأمـر على . سينفتح أمامي طريق جـديد . سأكتب لها في صراحة مطلقـة لأخبرها بكل ما أشعر بـه ـ حتى بـالأشيـاء التي أؤمن أنها لن تستطيع فهمهـا أبـدًا على الـوجـه الصحيح . إن «نسيم» يقول للبـارون « ثيبولت » : « سأعود في الـربيع فترة الصيف في « أبو الصـير » *. لقد عقـدت النية على الاسـترخاء لمدة تقـرب من عامين . فقـد بذلت جهدًا شـاقًّا في العمل غير أنه لا يستحق ذلك « . ورغم الشحـوب الشجي الذي كـان يكسو وجهـه فقد كـان في وسـع المرء أن يرى مـا فيه من شعـور جديـد بـالطمأنينة ، وراحـة البـال ، ربما كـان قلبه يعـاني التشتت والحيرة ، غير أن أعصابـه قد هـدأت أخيرًا . إنه ضـعيف ، ضـعـف المتماثل للشفاء ، لكنـه لم يعد مريضًا . ونتحـدث ونتبادل النكات لفترة في هدوء . فمن الـواضـح أن صداقتنا سـوف تلتئم من تلقاء نفسـهـا إن عاجـلا أو آجلا ـــ فكلانـا لديـه الآن ذخيرة مشـتركة من التعاسة يمكن أن يجتر منها . وأقول له « جوسـتين » فيشـهق قليلا وكأن أحدهم قـد دفع بشوكة تحت ظفـر إصبعه . « إنها تكتب من فلسطين » . ويومئُ برأسـه في سرعة ، ويشير إلى إشارة بسيطة : « إنني أعرف . فقد اقتفينا أثرها . لا داعي لـــ .. إنني أكتب إليها . في مقدورها أن تظـل بعيدًا كيفما تشاء . وتعود وقتما تشـاء » .

من الغبـاء أن يحرمه المرء من الأمـل والعزاء الـذي يمنحـه له هـذا الأمل ، ولكنني أدرك الآن أن « جوسـتين » لن تعود أبـدًا على أسس حياتها الماضية . إن كل جملـة في خطابها إلىّ تـوضـح هـذا المعنى . لسنا نحن الـذي هـجـرتنا هـذا الهجران ولكنه نمط الحياة الذي هدد عقلهـا ـ المدينة ، والحب ، مجموع كل ما تقاسمناه معًا . ماذا كتبت له ، كنت في حيرة ، كلما تذكرت النهنهة القصـيرة التي صدرت عنه عندما كان مستندًا إلى الحـائط المطلي باللون الأبيض ؟

---

* يقصد المؤلف « أبو صير »

إنني أسير على الشواطئ المهجورة ، صباح الأيام الربيعية عندما تتمدد الجزيرة في بطء بعيدًا عن البحر في الساعات الأولى لشروق الشمس ، أحاول أن أستيعد ذكريات العامين اللذين قضيتهما في صعيد مصر . ومن الغريب أن يكون كل شيء عن « الإسكندرية » مليئًا بالحياة حتى أنني لا أتذكر إلا القليل عن تلك الفترة الضائعة . أو هي ربما ليست على هذا القدر من الغرابة - إذ عند مقارنتها بالحياة التي عشتها في المدينة فإن حياتي الجديدة كانت كئيبة رتيبة.

إنني أتذكر الجهد الذي يقصم الظهر في العمل المدرسي ، النزهات في الحقول المنبسطة الغنية بمحاصيلها الفائضة والتي تتغذى على عظام الموتى من الرجال: النيل الأسود بغذائه من الطمي يتحرك سمينًا ممتلئ الجسم إلى البحر عبر الدلتا: الفلاحون الذين تمكنت البلهارسيا منهم والذين تشع النبالة والصبر من أسمالهم يبدون كاختراعات منزوعة الملكية : قساوسة القرية ينشدون ترانيمهم: الأبقار المعصوبة تدير عجلة الساقية البطيئة ، معصوبة العينين حتى تحمى من رتابة عملها — انظر إلى أي مدى يمكن أن يغدو العالم صغيرًا ؟ لم أقرأ شيئًا خلال تلك الفترة ، ولم أفكر في شيء ، لم أكن أي شيء . كان آباء المدرسة كرماء معي فتركوني بمفردي خلال أوقات فراغي ، ربما أحسوا عدم استطابتي للملبس وللجهاز الإداري الكهنوتي .

أما الأطفال فقد كانوا بالطبع مصدر عذاب لي - ولكن أي مدرس حساس لا يردد في أعماقه كلمات « تلستوي » الرهيبة : — « ما أن أدخل مدرسة وأرى مجموعة من الأطفال ، مهلهلي الثياب نحاف الأجسام قذرين إلا أن عيونهم صافية تطفر منها أحيانًا تعابير ملائكية ، حتى يسيطر عليّ القلق والرعب ، وكأنني قد رأيت بعض الناس وهم يغرقون » .

ورغم زيف المكاتبة إلا أنني حافظت على اتصال غير منتظم مع « ميليسا » التي كانت تصلني خطاباتها بطريقة منتظمة ، وكتبت لي « كليا » مرة أو مرتين، إلا أن الشيء الذي كان غاية في الغرابة هو أن « سكوبي » العجوز كان متضايقًا

لأنــه افتقدني بصــورة كبيرة كما عبر عن ذلك بنفسه . كــانت خطابــاته مليئــة بالسـخرية المدهشة من اليهود (والذي كان يشير إليهم على الدوام مستهزئًا ـ « بالديكـة القارضـة ») . وكذلك كـان غريبًا للغايــة أن يشـير إلى اللواطين (الذين أطلق . عليهم اسم الخناث) . لم أفاجأ عندما علمت أن البوليس السري قد ألقى بـه واستغني عنه ، وغـدا في مقـدوره الآن أن يمضي معظم اليـوم في فراشــه و «زجاجة خمر قوية » في متناول يده ، إلا أنه كان يحس الوحدة ، لذا فقد كتب إليّ يراسلني .

كانت تلك الخطابات مفيـدة لي . فإن شعوري بأن كل شيء غير حقيقي كان قد نما إلى درجة أنني لم أعد أأتمن ذاكرتي في بعـض الأحيان ، فأجد صعوبة في أن أصدق بأن هناك على الإطلاق شيئًا كمدينة « الإسكندرية » .

ما إن ينتهي عملي حتى أغلق حجرتي عليّ وأزحف إلى سريري ، الذي يوجد إلى جواره صندوق أخضر مصنــوع من حجر اليشم مليء بالسجــاير المحشوة بالحشيش . وإن كــان البعض قد لاحظ نهجي في الحيـاة أو علق عليه فإنني لم أترك على الأقل أي ثغرة للنقد في عملي . كان من العسير أن يغبطني أحد لرغبتي المفرطـة في الوحـدة . وللحقيقة فإن الأب « راسين » قـد بذل معـي محاولة أو محاولتين كي يستثير همتي . كان أكثـرهم حساسيـة وذكاء وربما أحس بأن صداقتي له قد تلطف من وحدته الفكرية .

كنت حـزينـًا من أجله وآسفـًا على نحـو مـا لعجزي عن الاستجـابـة لتلك العروض الـودية . غير أني كنت مصابـًا بتبلد كـان يزداد بصورة تـدريجية ، جمود ذهني جعلني أحجم عن الاتصال بالآخرين . وقـد رافقته مرة أو مرتين في نزهــة إلى جانب النهر (كـان عالمًا في النبات) واستمعت إليـه يتحدث في يسر وذكاء عن مـوضوعه . غير أن المناظر الطبيعيـة كانت بلا طعم لتفـاهتها وعدم تجانسـها مع الفصـول . وبدا أن الشمس قـد لفحت شهيتي لكل شيء ـ للطعام ، وللصحبة، وحتى للحـديث . وفضلت أن أستلقي في سريري أحملق في السقف

وأتسمع الضوضـــاء حولي في جناح المدرسين : الأب « جـودير » يعطس ، يفتح الأدراج ويغلقها ، الأب « راسين » يعزف على ناية بعض المقطوعات مرة أخرى ، وتتلاشى أصوات الأرغن وسط أنغامـه في الكنيسة المظلمة ، ومنحت السجاير الثقيلة عقلي حالة من الهدوء ، وقد خلصته من كل همومه .

وناداني « جوديـر » ذات يـوم بينما كانت أعبر السور ، وأخبرني أن أحدهم يرغـب في مكالمتي هـاتفيا . كـان من الصعوبـة بمكان أن أدرك مـا يقول أو أن أصدق أذنيّ . من الـذي سيطلب مكالمتي بـالهاتف بعد كل هـذا الصمت ؟ ربما كان « نسيم » ؟

كان الهاتف في مكتب الرئيس ، حجرة لا يسمح لأحد بدخولها مليئة بالأثاث الضخم والكتب الفاخرة التجليد . كانـت السماعة تطقطق طقطقة خفيفة ، وقد رقدت فـوق نشافة الحبر أمامـه . ونظر إلى شزرًا وقال في قـرف : « إنها امرأة تتحدث من « الإسكنـدرية » . واعتقدت أنها لابد وأن تكـون « ميليسا » ، ولكن لـدهشتي انساب فجأة صـوت « كليا » سـابحًا من شـذرات الذاكـرة : « إنني أتحدث إليك من المستشفى اليـونـاني . إن « ميليسـا » هنـا ، إنها في الحقيقـة مريضـة للغاية ربما كانت تحتضر » .

إنني لا أنكر أن دهشتي وارتبـاكي قد تحولا إلى غضـب .. « غير أنها لم تكن لتسمح لي بأخبارك من قبل ، لم تكن ترغب في أن تراها مريضـة ـ نحيفة للغاية. ولكن يجب أن أخبرك الآن . هل في وسعك الحضور سريعًا ؟ سوف تراك الآن».

واستطعت أن أرى بعين خيالي قطار الليل المتسكع بوقفاته وانطلاقاته التي تنتهي عنـد المدن والقرى التي يغلفهـا التراب والحر والقذارة . ربما استغـرق السفر طوال الليل . واتجهت إلى « جوديـر » وسألته أن يسمح لي التغيب طوال نهاية الأسبـوع . وقال مفكرًا : « إننا نمنح الإذن في الحالات الاستثنـائية . كأن تتـزوج مثلاً أو أن يكـون أحـدهم مريضـًا للغـاية » . وأقسم أن فكـرة زواج «ميليسا» لم تكن قد خطرت برأسي حتى نطق تلك الكلمات .

وعاودتني الآن أيضـًا ذكرى أخـرى بينما كنت أحزم حقيبتي الـرخيصة . الخاتمان ، خاتما « كـوهين » ، إنهما مازالا في علبة أزرار القمصـان ملفوفين في ورقـة بنية . ووقفت أتأملهـا للحظـة وأنا أتسـاءل في حيرة إن كـان للأشيـاء الجامدة أيضًا مصيرها كما للإنسـان . هذان الخاتمان اللعينان ، وفكرت ـ لماذا ، بدا الأمـر وكأنهما كانا ينتظران هنـا طوال هذا الوقت في اشتيـاق كالآدميين ، ينتظران أن يـوفيا حقهما التـافه بأن يـوضعا علي أصبع أحدهـم وقد وقع في مصيدة زواج قائم على المنفعة . ووضعت الخاتمين البائسين في جيبي .

إن الأحداث البعيـدة تكتسب وقد حولتهـا وغيرتها الذاكرة لمعانـًا مصقولا لأنها ترى في عـزلتها ، مفصولـة عن التفاصيل السـابقة واللاحقـه عن خيوط الزمن ولفافاته . إن ممثلو الأحداث يعانون أيضًا التحويل والتغير ، ويغطسون في بطء، أعمق فأعمق في محيط الـذاكـرة كالأجسـاد مثقلة ، ويجدون عنـد كل مستو في القلب الإنساني تقديرًا جديدًا، وتقييماً جديدًا .

لم يكن ألمًا ما أحسست به لانتكاسة « ميليسا » ، لكنه كان الغضب ، هياج لا يستهـدف شيئًا ، ويقـوم كما أعتقـد ، على شعـور بالنـدم . وانتهت كل آفـاق المستقبل الهائلـة والتي عمرتها رغم تشتت فكـري بصور « ميليسـا » ، انتهت الآن إلى العجـز والفشل ، ولم أدرك إلا الآن إلى أي مدى كنت أغـذي نفسي بتلك الآمال . كانت كلها هناك ، كذخيرة ضخمة مؤتمنة ، كحساب يمكنني أن أسحب منه ذات يوم . وفجأة غدوت الآن مفلسًا .

كان « بلتازار » ينتظرني عند المحطـة بسيارته الصغيرة . وضغط على يدي في تعاطف حـار وخشن بينما كان يقول في أسلوب عملي : « لقد مـاتت المسكينة مســاء أمس . لقـد أعطيتهـا المورفين كي أسـاعـدهـا على أن تنتهي دون ألم . حسنًا». وتنهد وهو ينظر إلى نظرة جانبية . « المؤسف أنك غير معتاد على ذرف الدموع . كان من الممكن أن تخفف عنك » .

« تخفف عن النفس بطريقة سوقية » .

« إنها تعمق العواطف .... وتغسلها » .

« اصمت يا « بلتازار » ، أصمت » .

« كانت تحبك على ما أعتقد » .

« إنني أعرف ذلك » .

« كانت تتحدث عنك دائماً . وكانت كليا معها طوال الأسبوع » .

« كفى » .

لم تبد المدينة أبدًا جميلة مذهلة إلى هذا الحد كما بدت في هواء ذلك الصباح الناعم . وتلقيت الريح الخفيفة القادمة من الميناء على خدي الخشن كقبلة صديق قديم . ولمعت « مريوط » هنا وهناك بين ذرا النخيل ، بين الأكواخ الطينية والمصانع . وبدت الحوانيت على طول « شارع فؤاد » وقد اكتسبت كل لمعان « باريس » وجدتها . لقد غدوت ، كما أدركت ، مواطنًا حقيقيًا من صعيد مصر . وبدت لي « الإسكندرية » مدينة رئيسية . وفي الحدائق المشذبة كانت المربيات تدفعن عربات الأطفال بينما كان الأطفال يدفعون أطواقهم . وقطارات الترام تهرس الأرض تحتها وتقعقع وتصلصل . وقال « بلتازار » بينما كنا نقطع الطريق في سرعة : « هناك شيء آخر . طفلة « ميليسا » ، إنها ابنة « نسيم » غير أني أعتقد أنك تعرف كل شيء عنها . إنها في الفيلا الصيفية . فتاة صغيرة » .

لم أستطع أن أستوعب كل هذا وأنا نشوان بجمال المدينة التي كدت أن أنساها . وخارج مبنى البلدية جلس الكتبة المحترفون على مقاعدهم ، وإلى جوارهم محابرهم وأقلامهم وعرائض التمغة . كانوا يحكون أنفسهم ويثرثرون بطريقة ودية . وصعدنا التبة المنخفضة التي تقوم عليها المستشفى بعد أن قطعنا الجزء الرئيسي من الطريق الذي تظلله الأشجار . كان « بلتازار » ما يزال يتكلم عندما غادرنا المصعد وبدأنا سيرنا في ممرات الطابق الثاني الطويلة البيضاء .

« لقد نما بيني وبين « نسيم » حائل من البرود . لقد رفض في تقزز رؤية

«ميليسا » بعـد ما عـادت ، ورأيت في ذلك تصرفًا غير إنســاني ، يصعب فهمه . إنني لا أعرف .... أما عن الطفلة فإنه يسـعى لتبنيهـا . وأعتقد أنه قد بدأ يمقتها. إنه يعتقد أن « جوستين » لن تعود إليـه طالما احتفظ بطفلة « ميليسا » . أما من ناحيتي » ، وأضــاف في بطء أكثر ، « فإنني انظـر إلى الأمر على هذا النحـو : لقد حدث عن طريق واحـدة من عمليات التبادل المخيفة والتي يبـدو ألا يقدر عليها غير الحب أن « نسيم » قـد أعـاد طفلة « جـوستين » المفقـودة لا « لجوستين » ولكن « لميليسا » . أترى ؟ » .

إن الشعور بالألفة المخيفة والذي أخذ ينمو في نفسي إنما يعود إلى حقيقة أننا كنا نقترب من الحجرة الصغيرة التي زرت فيها « كوهين » عندما كان يحتضر . بالطبع ستكون « ميليسا » راقدة في نفس السرير الحديدي الضيق في الركن إلى جوار الحائط . وكأن الحياة الحقيقية تقلد الفن في هذه النقطة .

كانت هنـاك بعض المرضـات في الحجرة ، كن مشغـولات ، يهمسن حول السرير ، يعـددن الستائر ، ولكنهن تفـرقن واختفين بكلمة واحـدة صدرت من «بلتازار » . ووقفنـا عند مـدخل الباب ننتظر لحظـة وقد أمسك كل منـا بذراع الآخر . كانت « ميليسا » شاحبة يابســة . كانوا قد ربطوا فكها بشريط وأغلقوا عينيها ، حتى بدت وكأنها قد نامت أثنـاء عملية تجميل . وأحسست بالراحة إذ كانت عيناها مغلقتين ،فقد كنت أخشي نظرتهما .

وتـركت وحدي معهـا لفترة من الـزمن ، في ذلك الصمت الهائل الذي ســاد حجـرة المستشفي البيضــاء الجدران ، وفجأة وجـدت نفسي أعـاني من حيرة بالغة. إنه لأمـر عسير أن تعرف كيف تتصرف مع الموتي ، إن صممهم الشديد وصرامتهم البـالغة تبـدو أمرًا مـدروسًا ومعـدًّا إعدادًا متقنـًا . ويغدو المرء في في حضرتهم مرتبكـًا وكأنه في حضرة ملكيـة . وسعلت من خلف يـدي وأخذت أمشي في الحجرة جيئة وذهابًا وأنـا أسترق منها نظرات خاطفة من ركن عيني ، فتذكرا الاضطراب الذي حل ذات مرة عندمـا زارتني ومعها هدية من الزهور .

كنت أرغب في أن أضع خاتمي « كـوهين » في أصابعهـا غير أنهم كانوا قـد لفوا جسدها في الأربطـة ، وكانت ذراعاها مشـدودتين متصلبتين إلى جوارها . ففي مثل هذا الطقس تتحلل الأجساد في سرعة حتى أنهم يدفعون بها إلى القبور دون طقوس أو مراسيم . وقلت « ميليسـا » مـرتين في صوت هامس واهن وأنا أميل بشفتي فوق أذنها . ثم أشعلت سيجارة وجلست إلى جـوارها فوق كرسي حتى أدرس وجهها دراسة مستفيضـة ، مقارنًا إياه بكل وجـوه « ميليسا» الأخرى والتي تـزحم ذاكرتي والتي وطـدت كيانها هناك . لم تكن تحمـل أي شبه لأي منها ـ ومع ذلك فقد فاقتهم وكـانت خاتمة لهم . إن هذا الوجه الأبيض الصغير كان الحلقة الأخيرة في سلسلة الوجوه التي عرفتها لها . وبعد تلك النقطة هناك باب مغلق .

في مثل تلك الأوقـات يتلمس المرء بـادرة يمكن أن تماثل استرخـاء الإرادة الرخامي الرهيب والـذي يقرأه المرء على وجوه الموتى . ليس هناك من شيء في كل مخزون العـواطف الإنسانية المهلهـل . وقد كتب « الأرناؤوطـي » في سياق آخـر : «كم هي مرعبـة وجوه الحب الأربعـة » . وعاهـدت الشبح المسجي على الفراش بأني سآخذ الطفلة إن تركها « نسيم » . وما إن انتهيت من هذا الاتفاق الصـامت حتى قبلت جبينها العـالي الشاحب وتـركتها لـرعايـة هؤلاء الـذين سيلفـونها ويـرسلون بها إلى القبر . كنـت مسرورًا أن أغادر الحجـرة ، أغـادر صمتـًا محكماً ومانعـًا . إنني أعتقـد أننـا نحن الكتـاب قوم قسـاة . الموتى لا يعبأون. إن الأحياء هم الذين يمكن الإبقاء عليهم إذا استطعنا أن نحمل الرسالة التي ترقد مدفونة في أعماق التجربة الإنسانية .

(في الأيـام الغابـرة كـانت تقوم السفـن المبْحرة والتي تحتـاج إلى أن تثقل نفسها لتواجه البحر ، بجمع السـلاحف البرية من اليابسة وملء براميل كبيرة بها وهي حيـة . وقـد تباع تلك التي تنجـو من الـرحلـة الـرهيبة إلى الأطفـال كحيوانـات أليفة. أمـا أجساد البقية المتعفنـة فقد كـانت تفرغ في مـواني الهند

الشرقيـة . وأصبحت كمياتها هنـاك أكثر من كميـاتها في الأماكن التي جـاءت منها) .

سرت في المدية في خفـة دون جهد كسجين هارب . وكان عينـا « منمجيان » البنفسجية مليئة بدموع بنفسجية عنـدما عانقني في حرارة . وقرر أن يحلق لي ذقني بنفسه ، كانت كل حركة من حركـاته تعبر عن التعاطف والعزاء والرقة . وفي الخارج فوق الأرصفـة مشى أهل « الإسكندرية » يغمـرهم ضوء الشمس وكل منهم حبيس عالم من العـلاقات الشخصية والمخاوف .ومع ذلك فقـد بدا كل منهم غريبـًا غرابـة لا نهاية لها عما يشغل بالي من مشـاعر وأفكـار . كان المدينة تبتسم في لا مبالاة تحطم الفؤاد ، كعاهرة أنعشها الظلام .

لم يبق غير شيء واحـد أقوم بـه الآن ، أن أرى « نسيم » . وارتحت عندمـا علمت أنه ينتظر عودته إلى المدينة ، ذلك المسـاء . هنا أيضًا كان الزمن يختزن لي مفاجأة أخـرى ، لأن « نسيم » الذي عاش في ذكـرياتي لمدة عـامين من قبل قد تغير .

كان قـد هرم كامرأة ـــ وتضـخم وجهه وردفاه . كـان يسير الآن وقد وزع ثقله على سطـح قدمية بطـريقة مـريحة وكأن جسده قـد عانى الحمـل مرات عديدة. واختفت تلك الـر شاقة الغريبة التي كانت تتميـز بها خطاه . فضلاً عن ذلك فقد غدا يشع فتنة فيها رخـاوة تمتزج بالهم والقلق مما جعلني لا أتعرف عليه في بادئ الأمـر . وقد سيطرت عليه نزعة تسلط حمقـاء محل حيائه القديم الذي كان يبعث السرور في النفس .

لم يكن لدي مـا يكفي من الوقت لأضع يـدي على تلك الانطباعـات الجديدة وأفحصها عنـدما أقترح أن نزور « الإيتـوال » سويًا . ذلك النـادي الليلي الذي كانت تـرقص فيه « ميليسـا » . وأضـاف أن أصحاب النـادي قد تغيروا ، وكأن هـذا التغيير يبرر زيارتنـا للملهى في نفس الليليـة التي شيعت فيها جنـازتها . ووافقت دون تـردد لقد كنت مصعـوقًا ومـدهوشـًا يحفزني فضـول لمعرفـة

مشاعره هو ورغبة في مناقشة المشكلة التي تخص الطفلة .

وعندما هبطنا السلم الضيق الخانق إلى ضوء المكان الساطع انطلقت صرخة وهــرعت البنات إليــه من كل ركن كالصراصير . وظهـر أنه معـروف لهن الآن معرفة جيدة كزبون للمكان . وفتح ذراعية بصيحة ضاحكة ، واستدار لي وهو يفعل ذلك لأقر تصرفه . ثم تناول أديديهن واحـدة بعد الأخرى وكان يضغطها بطـريقة شهـوانية إلى جيب سترتـه الواقع على صـدره حتى يمكنهن تحسس محفظته المحشوة بأوراق البنكنوت والتي يحملها الآن . وذكرتني هذه الحركة في الحال ، كيف أمسكت امـرأة حـامل اعترضت طـريقي ذات ليلـة في شـوارع المدينـة المظلمة بيـدي عنـدمـا حاولـت أن أهرب منهـا ، وكأنها كـانت يسعى لإعطـائي فكـرة عن المتعـة التي تعـرضها عليّ (أو ربما لتأكيـد حـاجتهـا) ، ووضعتهـا فوق بطنهـا المنتفخة . وتـذكرت فجأة وأنـا أراقب « نسيم » الآن ، دقات قلب الجنين المرتجفة وهو في شهره الثامن .

من الصعب أن أصف كيف وجـدت أن الجلـوس إلى جـوار هـذا الشبيـه السوقي « لنسيم » الـذي عرفته ذات مـرة ، أمر غـريب يستحيل التعبير عنه . وأخذت أرقبه بدقة غير أنه تجنب نظراتي إليه وحصر حديثه في توافه ثقيلة كان يقطعها بتثـاؤبه المتصل والذي كان يـداريه خلف أصابع مرصعـة بالخواتم . ومع ذلك فقـد كانت تظهـر مـا بين الفينة والأخـرى من خلف هـذه الواجهـة الجديدة لمحة من حيائه القديم ، غير أنه الآن مـدفون ـ كما يدفن قوام جميل في جبل من السمنـة. ولقـد أسر لى « زولتـان » النـادل في حجـرة الغسيل : « لقـد استعاد ذاته الحقيقية منذ هجرته زوجته . إن كل « الإسكندرية » تقول ذلك » . والحقيقة أنه قد غدا مثل كل ما في « الإسكندرية » .

واستولت عليـه في ساعة متأخـرة من تلك الليلة نزوة في أن يتـوجه بي إلى المنتزه في ضوء القمر المتأخر ، وجلسنا في السيارة صامتين لمدة طويلة ، ندخن، ونحملق إلى الخارج في الأمواج التي تحجل عبر كثبان الرمـال وقد أضاءها نور

القمـر . لقـد أدركت حقيقتـه خلال هـذا الصمت . إنـه في الحقيقـة لم يتغير في أعماقه. لقد تخذ لنفسه قناعًا جديدًا فقط .

* * *

وتلقيت في أوائل الصيف رسالة طويلـة من « كليا » يمكن أن نختم بها هذه المقدمة التذكارية القصيرة عن « الإسكندرية » .

« ربما تكون مهتماً بتقريـر مني عن لقاء قصير تم بيني وبين « جوستين ». منذ أسـابيع قليلة . لقد كنا منـذ فترة مضت ، كما تعرف ، نتبادل البطـاقات في المناسبات كل من البلد التي تنتسب إليه ، وعندما عرفت « جوستين » أنه ينتظر مروري « بفلسطين » في طريقي إلى « سـوريا » اقترحت أن نلتقي لقاء قصيرًا . وقالت إنها ستأتي إلى محطـة الحدود حيث يتوقف قطـار « حيفا » لمدة نصف ساعة . إن المستعمرة التي تعمل بها تقع على مقـربة من المكان . وفي وسعها أن تجد من يوصلها . وإننـا سنتكلم لمدة قصيرة على رصيف المحطة . فوافقت على ذلك .

« وقد وجـدت في بادئ الأمر صعوبـة في التعرف عليها . لقـد سمن وجهها كثيرًا ، وقصت شعرها من الخلف بطريقة مهملة حتى أنه كان ملتصقًا ببعضه كذنب الفأر . وفي اعتقادي أنها تضمه أغلـب الوقت بقطعة من القماش . لم يعد هناك أثر لرشـاقة و « شياكة » الماضي . وتبدو تقاطيعهـا وقد اتسعت ، تقاطيع يهودية كلاسيكية ، الشفاه والأنف يميلان أكثر فأكثر نحو بعضعهما البعض. ولقد صدمـت في بادئ الأمر بعينيها الـلامعتين وبالطريقة السريعـة الصارمة التي تتنفس وتتحدث بها ـ وكأنها محمـومة . وكما في وسعك أن تتصور ، فقد كنا خجلتين كلاً من الأخرى خجلا قاتلاً .

« وسرنا خارج المحطة على طول الطريق وجلسنا عند حافة واد ضيق جاف، وتحت أقدامنا بعض زهور الربيع التي كانت تطل برأسها في خوف وأحسست بانطباع أن أختيارها هذا المكان للقائنـا ربما تم لكآبته التي تناسب كآبة اللقاء .

إنني لا أدري . أنها لم تذكر « نسيم » أو تذكرك في بادئ الأمر ، ولكنها تكلمت فقط عن حياتها الجديدة . وادعت أنها قد حققت سعادة كاملة جديدة ، من خلال قيامها « بالخدمة الاجتماعية » . وأوحت لى الطريقة التي تحدثت به عن نوع من الهداية الدينية . لا تبتسم . إنه لأمر صعب ، كما أعرف أن تكون حليماً مع الضعيف . إنها تدعى بأنها قد حققت من ذلك الجهد الذي يقصم الظهر في المستعمرة الجماعية « تواضع جديد » (تواضع ! الفخ الأخير الذي يترقب الأنا في بحثها عن الحقيقة المطلقة . وأحسست بالتفزز ولكننى لم أقل شيئًا) . ووصفت العمل في المستعمرة بطريقة خشنة خالية من الخيال ، كما يفعل أي فلاح . ولاحظت أن يديها اللتين كانتا تعتني بهما في الماضي عناية فائقة قد أصبحتا غليظتين خشنتين . وقلت لنفسي وأنا أحس الخجل إذ لابد أنني كنت أشع نظافة وراحة ، غذاء واستحمامًا ، قلت إنني أعتقد أن للناس الحق في أن يتصرفوا في أجسادهم بالطريقة التي تروق لهم ، وبالمناسبة فهي لم تصبح ماركسية بعد ، إنها روحانية على طريقة « بنايوتس » في « أبو الصير » . ولقد وجدت وأنا أراقبها الآن وأتذكر الإنسانة التي كانتها ذات يوم ، الإنسانة المعذِّبة لنا جميعًا ، إنه من الصعب فهم التغير الذي أصاب تلك الصغيرة المكتنزة ذات المخالب الصلبة .

« إنني أعتقد أن الأحداث ما هي إلا تفسير لمشاعرنا ــ يمكن أن تقودنا واحدة منها إلى الأخرى . الزمن يحملنا (إذا تخيلنا في جرأة أننا شخصيات متميزة ، نشكل بإرادتنا مستقبلنا الشخصي) ـ الزمن يحملنا إلى الأمام بقوة تلك المشاعر التي تعيش في أعماقنا والتي لا نعى عنها إلا القليل . هل الأمر مبهم بالنسبة إليها إلى هذا الحد ؟ إذًا فقد عبرت عن الفكرة بطريقة سيئة ... أقصد أن « جوستين »، وقد شفيت من الخلل العقلي الذي جلبته لها أحلاهما ، ومخاوفها، انكمشت كما تنكش الغرارة . لقد شغلت النزوات الجزء الظاهر من حياتها فترة طويلة حتى أنها جردت الآن من كل مخزونها . إن موت « كابوديستريا » لم

يكن وحـده هـو الـذي أزاح الممثل الـرئيسي في هذه التمثيليـة الـوهميـة ، أزاح سجانها الأساسي . إن مـرضـها الذي كان دافع حـركتها قد ترك محلـه ، عندما انتهى ، شعورًا كاملا بالإرهاق . و يمكن القول أنها قد أخمدت في نفسـها دوافع الحياة وحتى شعلة عقلها مع خمود رغباتها الجنسية . إن الناس الذين يدفعون هكذا إلى أقصى آماد الإرادة الحرة يجبرون في مكـان ما على طلب العون لاتخاذ قرارات حاسمة. ولو لم تكن « جوستين » سكندرية أي (متشككة) لاتخذ هذا الأمر مظهـر الهداية الدينيــة . كيف يمكن للمرء أن يعبر عن هـذه الأشياء ؟ إن القضية ليست قضية نمو المرء ليغدو سعيدًا أو تعيسًا . إن جزءًا كاملا من حياة امرئٍ يسقط في البحر فجأة . ربما كما حدث لك مع « ميليسا » . غير أن (فهكذا تجري الحيـاة ، قانـون الجزاء الذي يمنح الخير للشر والشر للخير) عتقهـا هي إنما هو عتق أيضًا « لنسيم » من المواقع التي تحكم حياته العاطفية . إنني أعتقد أنه قـد أحس دائماً بأنــه طالما عاشت « جـوستين » فإنه لـن يقدر على احتمال أبسط علاقة إنسانية مع أي واحدة أخرى . غير أن « ميليسا » قد برهنت له على خطئه، أو على الأقـل فإنه قـد اعتقد ذلك ـ إلا أن آلام قلبـه القديمـة انطلقت مع رحيل «جوستين » وامتلأت نفسه بتقزز شامل مما فعله ـ مع « ميليسا » .

« العشــاق ليسو على الإطـلاق أندادًا ـــ ألا تعتقد ذلك ؟ إن أحـدهـم يحجب الآخر دائماً ويوقف نموه أو نموها حتـى أن المحبوب تؤرقه دائماً الرغبة في أن يهرب . في أن يكون حرًّا وينمو . إن هذا بالتـأكيد هو الشيء المأساوي الوحيد في الحب؟

ولو كان « نسيم » من ناحية أخرى هـو الذي خطط مقتل « كابوديسـتريا » (كما انتشرت الإشاعة وصدقت) فإنه يكون بذلك قد اختار أكثر السبل شؤمًا . والحقيقـة أنـه كـان من الأحكم لـو قتلـك أنت . ربما كـان يأمل في أن يخلص «جـوستين » من الشبح (كما حاول « الأرنـاؤوطي » من قبله) يخلصهـا من أجله هـو . (هذا مـا قاله مـرة ـ وأنت الـذي أخبرتني) . غير أن ما حـدث هوا

العكس تمامـًا . لقـد منحهـا بما فعل نـوعـًا من المغفـرة والإبـراء ، أو أن «كابوديستريا » المسكين هو الذي منحها ذلك دون قصد منه ـ والنتيجة أنها لم تعد تفكر فيه الآن كحبيب ولكن كرئيس قسـاوسة : إنها تتحدث عنه في إجلال سوف يرعبه إن سمعه .

إنها لن تعود أبدًا ، وكيف يمكن لها أن تفعل ذلك ! ولـو فعلت لأدرك للتوأنه قد فقدها إلى الأبد ـ لأن هؤلاء الذين يقفون منا موقف المعترف لنا لا يمكنهم أن يحبوننا ، إنهم لا يحبوننا ألبتة حبًا حقيقيًا .

« (أما عنك فقد قالت « جوستين » في بساطة وبهزة خفيفة من كتفها . «كان على أن أقصيه عن تفكيري ») .

« حسنًا ، تلك هي بعض الأفكـار التي جالت بخاطـري بينما حملني القطار عبر بيارات البرتقال إلى الشاطئ . لقد تحددت معالم تلك الأفكار بصورة قاطعة بمعاونـة الكتاب الـذي اخترته كي أقرأه خـلال الرحلـة ، إنه الجزء الأخير من كتاب « الله يحب الفكـاهة » . لكم ارتفعت مكـانة « بورسـواردن » بعد مـوته ، وكأنما كان يقف فيما مضي حـائلا بين كتبه وبين فهمنا لها . إنني أرى الآن أن ما كنا نراه غامضًا في هذا الرجل إنما يرجع إلى خطأ في نفوسنا نحن . إن الفنان لا يحيا مثلنا حياة خاصة ، إنـه يخفيها ، ويرغمنا أن نبحث في كتبه إن شئنا أن نلمس المنبع الحقيقي لأحـاسيسـه . فتحت كل اهتماماتـه بـالجنس والمجتمع والدين.. إلخ (كل التجريـدات الأساسية التي تسمح بالثرثـرة للجزء الأمامي من المخ) هناك في بساطة شديدة رجل يتعذب فوق ما يحتمل لافتقاد هذا العالم إلى المعاملة الرقيقة .

« وتعود بي كل تلك الأمور إلى نفسي ، لأني أنا أيضًا أعاني تغييرًا غريبًا . إن الحياة القديمـة القانعة المكتفية بـذاتها قد تحولت إلى شيء أجوف بعض الشيء ، فارغ بعض الشيء . إنها لم تعـد تستجيب لأعمق احتياجاتي . ففي مكـان ما في أعماق نفسي يبدو أن تيـارًا قد حـول طبيعتي . لا أدري لما ، ولكن أفكـاري ، يا

صديقي العزيز ، قد تحولت أخيرًا أكثر فأكثر نحوك ، هل في وسعي أن أكون صريحة ؟ هل يمكن أن توجد صداقة ينشدها المرء ويعتمد عليها في هذا الجانب من الحب ؟ إننى لن أتكلم أكثر من هذا عن الحب ـ فقد غدت الكلمة وما تحمله من اصطلاحات كريهة إلى نفسي . ولكن هل توجد صادقة يمكن أن ينالها المرء أكثر عمقًا من ذلك ، عميقة بلا حدود ، ومع ذلك فهي صداقة بلا كلمات أو أفكار ؟ يبدو ـ على نحو ما ـ أنه من الضروري أن يجد المرء إنسانًا يخلص له . لا في الجسد (فأنا أترك هذا للقساوسة) ولكن في الفكر الذي يحس اللوم والتأنيب ؟ ولكن ربما لا تكون مثل هذه المشكلة من النوع الذي يثير اهتمامك كثيرًا في هذه الأيام . لقد أحسست مرة أو مرتين بالرغبة السخيفة في أن أحضر إليك وأقدم خدماتي في العناية بالطفلة . ولكن يبدو واضحًا الآن أنك لم تعد في الحقيقة تريد أحدًا ، وأنك تضع وحدتك فوق كل شيء .... »

وهناك بعض السطور الأخرى ثم الخاتمة العاطفية .

* * *

الحشرات المجنحة والتي يشبه صوتها الزقزقة تخفق في السهول الشاسعة، والبحر المتوسط يمتد في الصيف أمامي بكل زرقته الخلابة . هناك في مكان ما خلف خط الأفق الخفاق الأرجواني الفاتح ترقد « إفريقيا » ، ترقد «الإسكندرية» تمسك بقبضتها الرقيقة عواطف المرء خلال ذكريات أخذت تعود في بطء إلى عالم النسيان ، ذكريات أصدقاء وأحداث مضت منذ زمن بعيد إن البطء الوهمى للزمن يأخذ في الضغط عليها ، في طمس معالمها ـ حتى أنني أتساءل أحيانًا عما إذا كانت تلك الصفحات تسجل أفعال أناس حقيقيين ، أو أنها ليست في بساطة قصة أشياء قليلة خالية من الحياة أحاطتهم بمأساة أقامتها حولهم ـ أعني عصابة سوداء ، غطاء أخضر من المطاط ، مفتاح ساعة ، وزوج من خواتم الزواج سلبت من صاحبها ....

وسرعان ما يحل الظلام وتغطي نجوم الصيف سماء الليل الصافية فتملؤها.

سأكون هنا ، كما كنت دائماً ، أدخن إلى جوار الماء . لقد قررت أن أترك خطاب « كليا » الأخير دون رد . لم أعد أرغب في أن أفرض إرادتي على أحد ، في أن أفكر في الحياة على أساس من العهود والقرارات والشروط . سيكون الأمر «لكليا» في أن تفسر صمتي طبقًا لحاجتها ورغباتها ، في أن تحضر إلى إن شاءت أو لا تحضر ، حسبما يتراءى لها . ألا يتوقف كل شيء على تفسيرنا للصمت الذي يحيط بنا ؟ .

عن الروايات المدهشة

.. ما من رواية تجاوزت شهـرتها اسم صاحبها . قبل رباعيـة الاسكندرية لمبدعها لـورانس داريل . بل إنه لا يذكر اسمـه إلا متبوعًا بها لدرجة أنـه تولد إحساس أنها تكمل اسمه . وإن ذكر بعيدًا عنها يترك الإحساس أن ثمة أمرًا من الأمور ما زال ناقصًا .

رباعيـة الاسكندرية ليست نصًا روائيـًا فذا وفريـدًا فقط . لقد تحولت مع مرور الوقـت إلى علامة فارقه في الابـداع الروائي . لدرجة أنـه يمكن القول أن هناك ما قبل الاسكندرية وما بعدها .

وسيبقى من الصعب إحصاء النصـوص الروائيـة التي خرجت من معطف هذا الاثـر البديع من آداب العـالم المختلفة . ومن بينها الأدب العـربي الروائي المعاصر . فقـد كان هـذا النص فتحًا جديـدًا وهامًا في الكتـابة الـروائية ويمكن القـول ـ دون الابتعـاد عن الحقيقـة ــ أن هذا النص يعـد من أهم النصـوص الروائية في قرننا العشرين كله .

ليست هذه هي المرة الأولى التي يترجم فيها . ولكنها المرة الأولى التي يترجم فيها كاملاً . من الكلمة الأولى وحتى الأخيرة .

والمحاولات السـابقة لترجمة هذا الاثـر . تمت على النحو التـالي . من ابريل «نيسان » سنة ١٩٦١ . صدرت الـرواية الأولى « جوستين » عن دار الطليعة في بيروت بالعربية . وكانت قد ترجمتها الدكتورة سلمى الخضراء الجيوسى . وفي نوفمبر « تشرين الثاني » سنـة ١٩٦٢ أصدرت نفس الدار الروايـة الثانية من

الرباعية لنفس المترجمة . ثم توقف المشروع ولم يكتمل رغم مرور ثلاثون عامًا على المحاولة .

وفي سنة ١٩٦٩ أصدرت دار المعارف بمصر . ترجمة أخرى للرواية الأولى من الرباعية . قام بترجمتها إلى العربية الدكتور فخري لبيب . ولكن السنوات مرت دون اكمال هذا النص العذب .

هذه المرة ستصدر الأجزاء الثلاثة الأخرى . تباعـًا حتى يكتمل هذا الأثر . للمرة الأولى في المكتبة العربية ويكون في متناول أيادى أجيال طالعة من المثقفين والقراء لم تعاصر محاولات الترجمة السابقة .

وصاحب هذا العمل . يقال عنه أنه كاتب إنجليزي من باب التجاوز . فقد ولد في منطقة الهملايا في الهند سنة ١٩١٢ لأب إنجليزي من أصل ايرلندي وتعلم في مدارسها وقضى السنوات العشر الأولى من عمره فيها وإن كان قد عاش في بريطانيا سنوات المراهقة . ومقدمات الشباب . فإنه سرعان ما غادرها لكي يعمل صحفيًا ودبلوماسيًا في باريس والقاهرة واليونان واودس وبلجراد.

وفي سنة ١٩٥٧ استقر نهائيـًا في فرنسا . إلى أن مات في العام الماضي . وقد قضي عمره كله رافضًا للحضارة الأوروبية ومتمردًا عليها حيث وجد في الشرق فردوسه المفقود . وفي الشرق اكتشف حقيقة موهبته الأدبية المتألقة .

أصدار داريل في حياته حوالى سبعين كتابًا ما بين الشعر والقصة والرواية وأدب الرحلات . وفي كل كتاباته وقف في منتصف المسافة بين الشعر والنثر لدرجة أنه من الصعب معرفة أين ينتهي الشعر في كتاباته وأين يبدأ النثر . وخلال الثلاثينات كرس داريل مواهبه للشعر الذي اكتسب كثيرًا من الاستحسان والمديح وإن كانت سنوات الحرب العالمية الثانية قد عرقلت مؤقتًا تطوره الأدبي .

وعلى الرغم من أن ميوله السياسية والفكرية أقرب إلى المحافظة . إلا أن كتاباته تعد مغامرة فنية فريدة في أعماله الروائية اكتشاف مدهش لعبقرية

المكان ، وتـداخل للأحداث . واختراق للضمائر : مع سيـولة في الزمـان والمكان معًا . وتأكيـد على استحالة الاحاطة بكـافة جوانب أي حدث مـا . إلا من زوايا رؤيا متعددة ومختلفة . فدائماً هناك ظلال أخرى في الجانب الآخر من الحدث . لا توجد حقيقة مطلقة أبدًا . والحقيقة لابد وأن تكون نسبيه .

« الكتاب الأسود » . كانت أول رواياته . وقد نشرها سنة ١٩٣٨ . وإن كان لم يتم تداولها في بريطانيا سوى في سنة ١٩٣٧ . بسبب الإباحية المنتشرة فيها. وقد قدمها : ت . س . اليوت بإعتبارها واحـدة من أهم آمال الرواية الإنجليزية الحديثة .

ومهما تنوعت أعماله فيبقى داريل كاتبًا غربيًا يكتب عن الشرق . ولذلك ثمة حالات تصـوف . وطيوف خيالات رحالـة . وقدرة لا تنفد على الاندهـاش عند رؤية أي شيء تقع عليه العين في هذه البلاد الغريبة .

« جوستين » هي الرواية الأولى . والروايات الثلاث الآخرى هي : «بلتازار»، « ماونت أوليف » و « كليـا » . والروايات الثلاث الأولى ليست متتـابعة ولكنها متجاورة . فيها الأحداث نفسـها تقريبـًا . حيث الإسكندرية قبل الحرب العالمية الثانية مبـاشرة والرواية الرابعة والأخيرة تغطي تطورات الأحـداث خلال هذه الحرب وقد صدرت جوستين لأول مرة سنة ١٩٥٧ . وتـوالى ظهور الرباعية . بلتازار١٩٥٨ . مونتليف ١٩٥٩ . كليا ١٩٦٠ وكـان مكتوبًا عليها لا توزع في المملكة المتحدة .

هنـرى ميلـر يقـول عن داريـل إنــه سيـد الأدب الانجليـزي وعن رائعتــه الاسكندرية أنها أهم أثر أدبي من القـرن العشرين . ونقاد الأدب يعتبرونه أحد البناة العظام للفن الروائي في زماننا ويضعونه في نفس مكان مارسيل بروست وجيمس جويس .

حيث قام الثلاثة . كل بمفرده بهدم دعائم الكتابة القديمة وأرسى كل واحد منهم ـ في نفس الوقت ـ كتابة أخرى مغايرة تمامًا . مشكلة خروجًا حقيقيًا على

ما كان سائدًا في الحكى والقص . ولـذلك يعتبر داريل أحد رواد التجديد الأدبى في الكتابه الروائية في القرن العشرين .

لا مفر من التوقف أمام النص بعيد عن الاعجاب الشديد به . الذي يستحقه. لم يعجبنى من هـذه الروايـة ، اتجاهها غير العادي نحـو الأجانب .. بكـل هذا الانجذاب وشحوب ابناء الوطن وحضورهم الباهت . لذلك فإن عين الروائي لم تر مصر بكل ما فيها ولم تستطع الهجرة خطوة واحدة بعيدًا عن الإسكندرية . ولم يـر في الإسكنـدريـة سـوى الأجـانب . ومن هم على هـامش حيـاتهم من المصريين . وظلت رؤيته للإسكنـدرية رؤية سياحية . رغم بـراعته الفنية التي لايمكن انكارها أو التقليل منها .

آلمني عنـد القـراءة كل هذا التركيـز على الـذبـاب والقذارة والاهمال . عنـد وصف المدينـة . لأن العين التي رأت هـذا . كـانت تخلو نظـراتها من أبجـديـة التعاطف والحب .

كذلك لم استرح لجوستين اليهوديـة التي تهرب من مصر إلى فلسطين هربًا من افتضاح امر زوجها نسيم في الإسكندرية كتاجر سلاح يهربه إلى اليهود في فلسطين .

على أن الـروايـة لابـد وأن تحرك فينـا ــ خـاصـة الـروائيين من أبنـاء الإسكندرية ـ تلك الغيرة الصحيـة الخلاقة فقـد اعاد داريل خلق المدينـة بقدرة فنية فذة . وطوال صفحات الرواية نجد الإسكندرية التي تحولت من مدينة إلى كائن حى . له حضوره الذي لا يقل عن حضور البشر أنفسهم .

لدرجة أن المكان يصبح بعدًا جديدًا من الحكي والقص . وخلال هذا التفاعل نلمح بين السطـور ذلك الـوعي التاريخي بـالمدينـة والايحاءات الكثيرة . التي تثيرها في النفس .

وبصراحة . فإن كل هذا أو بعضه لا نجده في كتـابات الذين قضوا أعمارهم كلها في الإسكندرية . ويبدو أن آلفة الحياة اليومية تفقدنا القدرة على الاندهاش.

وبالتالي تجعلنا نرى في كل الأمور غير العادية . انها أصبحت من الأمور العادية تمامًا .

لدينا كتابات عذبة عن الإسكندرية . ولكن للأسف ـ وهذه ظاهرة تستحق الدراسة والاهتمام . فإن أصحاب هذه الكتابات إما أجانب . أو مصريين ليسوا من أبناء الإسكندرية . زاروها . وترددوا عليها . ولكنهم لم يعيشوا فيها فترات طويلة من أعمارهم .

إن الغريب يشرب المرئيات ويسمع حتى دبيب النمل . في حين أن ابن البلد . يتآلف مع الأشياء . ويرهـا ضمن سوقية الحياة اليومية وتفـاهتها وعاديتها . وينزع عنها اشراقات الشعر وبهاء الأسطـورة . وقداسة الأماكن التي لا يمكن أن نعيش فيها أعمارنا كلها .

هذا عن الرواية والروائي . أما المترجم الدكتور فخرى لبيب . فقد قدمته لنا من قبل أعمالـه . عند ما قـرأنا هـذه الروايـة من طبعة سـابقة . أضـاف إليها ونقحها وزادها بهاءًا في هذه الطبعة . وعندما قرأنا له ترجمته الرائعة لرواية : « غربان بين ذئاب » ليرونو أبيتز حيث تتفوق ترجماته على التفوق نفسه .

تبقى سلسلة روايات معاصرة . التي نحاول مـن خلالها أن نقدم كل ما هو جديد ومتميز من النتاج الروائى المصري والعربي والعالمي المترجم . يتم هذا في وقت تتربع فيـه الروايـة على عرش الـوجدان العـربي والعالمي . كتـابه ونشرًا وقراءة ومتابعة . حيث تحاول القيام بدور معاصر لشهرزاد القديمة .

هذا زمان الـرواية في بلادنا وفي أجزاء أخرى كثيرة من العـالم . وفي الزمان الروائى . نحاول أن نقـدم النصوص الروائية مـؤلفة أو مترجمة . التي تعكس توهج وتألق هذا الفن الذي أصبح علامة على العصر ..

وعندمـا نقول إن الروايــة هي ديوان العرب الآن . نتكئ في هـذا على حقائق ثابتة وأساسية في ميادين القص الروائي . ابتداء من فوران الابداع وصولاً إلى الاقبال منقطع النظير على الرواية الآن .

يوسف القعيد

الفهرس

هذه الرواية

● ملحمة القرن العشرين ، وواحدة من أهم الروايات التي صدرت في هذا القرن . هي الرواية الأولى من رباعية الإسكندرية الشهيرة . التي تعد درة انتاج صاحبها رغم غزارته .

كان صدورها . علامة فارقة من تاريخ الكتابة الروائية . وقد تركت أثرها الكاسح في الكتابات الروائية التي جاءت بعدها . ويمكن تحديد حوالى عشر روايات هامة في الأدب العربي المعاصر ما كان يمكن أن تكتب . لو لم تكن رباعية الإسكندرية .

شكلت هذه الرواية الدقات الأولى التي أنهت زمان الكتابة التقليدية المستقرة . وفتحت الآفاق أمام مغامرة فنية في القص مازالت اصداؤها تتلألأ يومًا بعد الآخر .

ها هم أبطال النص . دارلي . ميلسيا . جوستين اليهودية المتزوجة من نسيم المصري . التي تهرب إلى فلسطين لكى تعمل هناك من أحد الكبوتزات .

لكن في الأجزاء التالية نجد أنفسنا وجهًا لوجه أمام الجوانب الأخرى للصورة .

هذا الروائي

قال عنه هنري ميللر . سيد الأدب الانجليزي . ويضعه نقاد الأدب في نفس مكان: جيمس جويس ومارسيل بروست بإعتبار أن الثلاثة آباء شرعيين للتجديد الأدبي الذي كان من سمات قرننا العشرين .

ولد في الهند سنة ١٩١٢ ورحل عن عالمنا في العام الماضي . وترك لنا حوالى سبعين كتابا في الرواية والقصة وأدب الرحلات .

لورانس داريل غربي رفض حضارة الغرب . وعاش في شرق المتوسط . وكتب عنه ولذلك تناثرت في أعماله روائح صوفية ، وظلال رؤية رحاله . وفي كل الأحوال . فقد رأى الدنيا بقدر كبير ومستمر من الدهشة .

وتحولت هذه الدهشة إلى تجديد لا نهاية له في كل حرف كتبه .

وإن كان هناك كاتب ارتبطت حياته بقرننا العشرين . بدأ معه . ومات مع غروبه . وجسد في كتاباته كل أحلامه . فإن هذا الكاتب هو لورانس داريل دون سواه .

العدد القادم

بلتـــازار

الرواية الثانية من رباعية الإسكندرية

لورانس داريل

لورانس داريل

لورانس داريل ، مواطن بريطاني من أصل ايرلندي ، ولد في منطقة الهملايا في الهند ، حيث قضى سنواته العشر الأولى . قرر بعد أن أنهى دراسته في انجلترا أن يصبح كاتبًا . كرس كل مواهبه خلال الثلاثينيات لشعره الذي حظى بكثير من الاستحسان . نشر له في باريس عام ١٩٣٨ «الكتاب الأسود » ، الذي كتب عنه ت . س . إلوت ، باعتباره واحدًا من الآمال الكبار للرواية الإنجليزية الحديثة . نشر « الكتاب الأسود ، لأول مرة في الولايات المتحدة ، عام ١٩٦٠ .

واعترضت الحرب العالمية الثانية ، مستقبل داريل الأدبى بصورة مؤقتة . خدم خلال سنوات الحرب ، ولبعض الوقت بريطانيا العظمى ، في مجالات رسمية ودبلوماسية مختلفة في أثينا . القاهرة ، رودس وبلغراد .

إن نشر جوستين عام ١٩٥٧ والظهور المتتالى لـ « بلتازار » (١٩٥٨)، و«ماونت أوليف » (١٩٥٩) و « كليا » (١٩٦٠) ، كأجزاء في نفس السلسلة الرائعة المسماة « رباعية الإسكندرية » ، والتي كرسها لمناقشة مسألة الحب بمختلف صوره ، قد أدت ، وبصورة سريعة ، إلى أن يغدو داريل معروفًا باعتباره واحدًا من أكبر كتاب بريطانيا في الأزمنة الحديثة وأكثرهم أهمية .

دار سعاد الصباح

رقم الإيداع : ١٩٩٢/١٧٨٣

I.S.B.N. 977 - 00 - 2576 - 3

مطابع الشروق

القاهرة، ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت، ص . ب . ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

■ دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هي مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلي نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربي والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربي من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون في متناول أبناء الأمة فهذه الدار هي حلقة وصل بين التراث والمعاصرةوبين كبار المبدعين وشبابهم وهى نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيا تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب في مجالات الابداع المختلفة.

دار سعاد الصباح
ص.ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ ـ الكويت
ص. ب: ١٣ المقطم ـ القاهرة

